سلسلة علم الاجتماع المعاصر

الكتاب الثاني والثمانون

الأنثروبولوجيا الاجتماعية

ودراسة التغير والبناء الاجتماعي

دكتور

علي محمد المكاوي

استاذ علم الاجتماع

والأنثروبولوجيا

كلية الآداب – جامعة القاهرة

٢٠٠٢ م – ١٤٢٣ هـ

الناشر

مؤسسة الأهرام

ش الجلاء – القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

« يا ايهـا النـاس إنا خلقناكم من ذكر وانثى

وجعلناكم شـعوبا وقبـائل لتعـارفوا إن أكرمكم

عند الله اتقـاكم إن الله عليم خبير » .

صدق الله العظيم

(الحجرات آية ١٣)

الإهـــداء

إلى ابنتى لقـــاء على المـــكاوى :

ملتقى خفة الظل وبراءة الأطفال .

اقر الله بها ـــ وباختيها ـــ عينى .

وبارك لى فيهـــن .



مقدمة

يدور هذا الكتاب حول علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية . ولذلك فهو يتضمن عديدا من الموضوعات التى توصل لهذا العلم ، وتستوضح منهجه وطرق بحثه ، واهم ما يدرسه فى المجتمعات البشرية ، والفائدة التطبيقية التى تعود علينا من جزاء استخدام هذه المعلومات والمعارف عن الشعوب المختلفة .

والواقع أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية علم قديم نسبيا ، وان كان تاريخ ظهوره والارهاصات الاولى فيه قد بدات منذ القرن الخامس قبل الميلاد عند هيرودوت على سبيل المثال . ولكى نبرز موضوع هذا العلم ومجالات الاهتمام فيه ، فقد قسمنا الكتاب الحالى الى اربعة أبواب تضم مجتمعة اربعة عشر فصلا . أما **الباب الاول** فهو يحوى (مقدمة فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية) من خلال أربعة فصول ، يتناول كل فصل منها زاوية محددة . فالفصل **الأول** مثلا يقدم تعريفا للأنثروبولوجيا ، العلم الأم وماهية هذا العلم ، وابرز اهتماماته وفروعه الاساسية ، الفيزيقية والاجتماعية والثقافية . ويعرض الفصل **الثانى** لموضوع الأنثروبولوجيا الاجتماعية بالتحديد ، على حين يقتصر الفصل **الثالث** على استعراض تاريخ الأنثروبولوجيا الاجتماعية . ويبرز الفصل **الرابع** علاقة هذا العلم بالعلوم الاخرى .

أما **الباب الثانى** فقد خصصناه لإبراز موضوع الأنثروبولوجيا الاجتماعية من خلال إلقاء الضوء على البناء الاجتماعى وما يحويه من نظم مختلفة . وفى هذا الصدد تضمن الباب خمسة فصول ، يختص كل فصل منها بالاشارة الى نظام من أهم النظم الاجتماعية . حيث يدور الفصل **الخامس** حول

نظام الزواج ، ويعالج الفصل **السادس** النظام الأسرى فى المجتمع ، على حين يتصدى الفصل **السابع** لشرح النظام القرابى ، ويهتم الفصل **الثامن** بتوضيح النظام السياسى ، ونختتم الباب بالفصل **التاسع** الذى قصرناه على دراسة النظام الاقتصادى .

واذا كان البابان الأول والثانى يقدمان للأنثروبولوجيا عامة ، والأنثروبولوجيا الاجتماعية بصفة خاصة ، من خلال التركيز على البناء الاجتماعى ، فان **الباب الثالث** يحاول القاء الضوء على الجانب الدينامى للبناء الاجتماعى . وبالتالى خصصناه لموضوع « الأنثروبولوجيا الاجتماعية ودراسة التغير الاجتماعى » ، وعرضنا أهم معالم التغير التى تعترى هذا البناء ، وأهم العوامل التى تعجل بالتغير . وذلك من خلال ثلاثة فصول . وقد اختص الفصل **العاشر** بتناول « تغير نظم العائلة والقرابة فى المجتمع العربى » وهو نظرة أفقية ورأسية للتغير الواقع على هذه النظم فى مجتمعات السعودية والأردن والبحرين والجزائر والجماهيرية الليبية ومصر والسودان . وهو بحث قدمه المؤلف لندوة المرأة فى المجتمع العربى التى تنظمها جامعة قاريونس بالجماهيرية الليبية . أما الفصل **الحادى عشر** فهو يعرض « للتغير الاجتماعى : الأنماط والعوامل » . بينما يناقش الفصل **الثانى عشر** موقف « النظرية الوظيفية وقضية التغير الاجتماعى » ويستعرض أهم المعوقات الاجتماعية للتغير ، ويفسر هذه العملية .

الا أن جوانب علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية لا تكتمل الا بالاشارة التفصيلية الى المنهج الأنثروبولوجى ، وأهم الأغراض العملية التى تستخدم فيها المعرفة الأنثروبولوجية . ولذلك قصرنا **الباب الرابع** على الأنثروبولوجيا الاجتماعية : المنهج والتطبيقات . وعلى مدى فصلين . يعرض الفصل **الثالث عشر** « لطرق البحث فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية » ، ويقدم الفصل **الرابع عشر** الأخير صورة متكاملة لموضوع « الأنثروبولوجيا التطبيقية » .

وفى النهاية أرجو من الله التوفيق فى هذه المحـاولة المتواضعة التى أقدم فيها تعريفا بعلم الأنثروبولوجيا وتأصيلا له . وأؤكد للقارىء الكريم أن الدراسة تحوى موضوعات عديدة ، وتثير قضايا أكثر عددا ، وهـذا اجتهادى . فان أصبت فالحمد كله لله المنعم ، وان أخطأت فحسبى أننى اجتهدت ولى أجر اجتهادى .

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنـا من أمرنا رشدا .

الهرم فى ١٩٨٩/٧/٣١

دكتـور
على محمـد المكاوى

الباب الأول

(مقدمة فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية)

الفصل الأول : ماهية الأنثروبولوجيا .

الفصل الثانى : موضوع الأنثروبولوجيا الاجتماعية .

الفصل الثالث : تاريخ الأنثروبولوجيا الاجتماعية .

الفصل الرابع : علاقة الأنثروبولوجيا الاجتماعية بالعلوم الأخرى .

الفصل الأول

ماهيـــة الأنثروبولوجيـــا

الفصل الأول

ماهية الانثروبولوجيا

أولاً : معنى المصطلح واستخدامه :

ترجع كلمة الانثروبولوجيا **Anthropology** اساسا الى كلمة يونانية الأصل تتكون من مقطعين اولهما **Anthropos** وتعنى الانسان ، والثانى **Logy** او **Logos** او **Logia** ويعنى العلم . وبهذا تعنى هذه الكلمة الأجنبية فى اللغة العربية (علم الانسان) .

الا اننا حينما نستخدم الكلمة العربية المقابلة — اى علم الانسان — المصطلح الأجنبى ، فاننا نحدث نوعا من اللبس بين ما تعنيه الأنثروبولوجيا وتهتم به ، وبين ما تدرسه العلوم الأخرى التى تدرس الانسان كعلم الطب والبيولوجى وعلم النفس والاجتماع والسياسة ... الخ . وعلى هذا الأساس ساد استخدام المصطلح الأجنبى كما هو **Anthropology** فى اللغة الانجليزية ، **L'Anthropologiè** فى اللغة الفرنسية خاصة بعد اشتقاقه من الكلمة اليونانية الأصلية . كما ساد استخدام كلمة الانثروبولوجيا — كما هى فى اللغة العربية درءا لهذا اللبس — باعتبارها (علم دراسة الانسان) .

والواقع ان تاريخ استخدام مصطلح الانثروبولوجيا قد لفت انتباه الكثيرين من العلماء والباحثين للتعرف على هذا العلم وفهم موضوعه . ولعل هادون **Haddon** أبرز هؤلاء العلماء ، اذ ارجع تاريخ استخدام هذا الاصطلاح الى الحضارة الاغريقية والحضارة الرومانية . فقد لاحظ أن ارسطو قد استخدمه للاشارة الى (الشخص الذى يتحدث عن نفسه) . ومن الواضح ان هذا المعنى يختلف تماما عن المعنى الحديث للاصطلاح (1) .

---

(1) د. عاطف وصفى ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ، ط ٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧[illegible] ، ص ٩ .

وفى عـــام ١٥٠١م ظهــر هــذا الاصـــطلاح (انثروبولوجيـــون (Anthropologeion) كعنوان لكتاب المفكر هندت (Hundt) حيث تكلم فيــه عن الخصـــائص التشريحية لجســم الانســـان . وكذلك اورد المفكر كوبيلا Copella هذا الاصطلاح فى كتابه بعنوان L'Anthropologia — فى عام ١٥٣٣م — الذى يدرس فيه الصفات الشخصية الفردية .

والملاحظ أن اول مرة يظهر فيها اصطلاح (انثروبولوجيا) فى اللغــة الانجليزية كان فى عام ١٦٥٥م فى كتـــاب مجهــول المــؤلف يحمل عنـــوان Anthropology Abstracted ويـــدور حـــول الطبيعـــة البشرية . ويتناول بين دفتيه قســـمين اولهمـــا خاص بعلم النفس حيث يناقش فيه الطبيعة البشرية ، وثانيهما يختص بعلم التشريح . ومنذ ذلك الحين بـــدأ مصطلح الأنثروبولوجيا ينتشر فى الاستخدام والأوساط العلمية تدريجيـــا ، الى أن صار له مفهوم واضح ومحدد المعالم ، خلال القرن التاسع عشر .

ومع تطور البحث فى علم الأنثروبولوجيا ، صار مجاله اكثر تحديدا ، وتبلورت الفروع التى تتفرع عنه ، حتى أن تشارلز نينيك Charles Winick قد ذكر فى عام ١٩٥٦م أن علم الأنثروبولوجيا الحديث يضم الفروع الأربعة التالية : علم الآثار ، واللغويات ، والأنثروبولوجيا الثقافية والأنثروبولوجيا الطبيعية . وبهذا يتضـــح من المعنى اللفظى لاصـــطلاح انثروبولوجيا أن موضوع هذا العلم هو الانسان . وبالتالى فالانسان هو الاطار الوحيـــد الذى يحدد الموضوعات التى يدرسها هذا العلم .

اما الزمان أو المكان فلا يقيدان الموضوعات التى تدخل فى نطـــاقه ، اذ يدرس الانسان واجداده واصوله منذ اقـــدم العصـــور وحتى الوقت الحاضر ، ويدرس الانســان فى كل مكان . وهكذا لا يتقيد علم الأنثروبولوجية بحدود الزمان أو المكان ، ولكنه يتقيد فقط بالانسان كموضوع للدراسة .

الا أن الانسان مفهوم واسع للغاية ، وبالتالى يجب تحديد أبعاده ، وتضييق نطاقه حتى يتسنى لنا تمييز اهتمامات علم الأنثروبولوجيا بالانسان، عن اهتمامات العلوم الطبيعية والاجتماعية الأخرى ، التى تدرس الانسان أيضا . وفى ضوء هذه الاعتبارات نجد علم الأنثروبولوجيا يهتم بدراسة الجنس البشرى ، حيث يدرس أجسام أفراده ومجتمعاتهم ووسائل الاتصال فيما بينهم ، وكل ما ينتجونه سواء كان مادة أو علاقة اجتماعية أو فكرة . والملاحظ أن الرواد الأوائل فى علم الأنثروبولوجيا قد ركزوا اهتماماتهم على مظاهر الحياة الاجتماعية للمجتمعات البدائية ، حيث اجتذبتهم غرابة تلك المجتمعات واختلافها عن المجتمعات الأخرى وخاصة المجتمعات الأوروبية .

ومع تراكم المعرفة العلمية ، وتعدد الدراسات والبحوث الأنثروبولوجية زاد التراث العلمى حول الانسان وتنوعت مجالاته . فهناك دراسات تتعلق بثقافة الانسان وتراثه المعرفى ، وهناك البحوث التى تدور حول الجانب الجسمى للانسان ، كما أن هناك دراسات حول الانسان فى المجتمعات الحديثة ، فى حين تناولت بحوث رابعة عملية تنمية المجتمع ... الخ (٢) .

وفى النهاية نلاحظ أن الدراسات التى أجراها علماء الأنثروبولوجيا على الانسان أظهرت جوانب لم تظهرها أو تتناولها علوم انسانية أخرى ، كعلوم الطب والنفس والاقتصاد وغيرها . كذلك فان تراكم المعرفة — كما قلنا — وزيادة عدد الأنثروبولوجيين ، قد أدى الى تجمع الدراسات الأنثروبولوجية فى شكل مجموعات متشابهة بحيث شكلت كل مجموعة فرعا متميزا من فروع العلم . وعلى سبيل المثال فان الدراسات الأنثروبولوجية التى أجريت على جسم الانسان وتكوينه وملامحه وخصائصه الفيزيقية ، قد أسهمت فى تأسيس علم الأنثروبولوجيا الطبيعية أو الفيزيقية . كما

---

(٢) د. نبيل صبحى ، الاتجاهات التقليدية والحديثة فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٥م ، ص ٤٣ .

نجد أن دراســات الأنثروبولوجيا حول الممارســات والمعتقدات والدين والعادات واللغة (الثقافة عموما) قــد كونت علم الأنثروبولوجيا الثقافية . ومن جانب آخر فان مجموعة الدراسات التى قام بها علماء الأنثروبولوجيا حول النظم والعلاقات الاجتماعية قــد شــكلت أسس علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية . وهناك — بالاضافة الى ذلك — بعض الدراسات والبحوث الأنثروبولوجية التى أجريت على الانسان أيضا ، ولكنها لا تزال فى بدايتها أو لم تصل الى ما وصلت اليه الفروع الثلاثة السابقة ، منها على ســبيل المثال الأنثروبولوجيا الحضرية والاقتصادية والطبية واللغوية ... الخ .

* * *

ثانيا — موضوع الأنثروبولوجيا وفروعهــا :

على الرغم من أن علم الأنثروبولوجيا يدرس موضــوعات عديدة فى الوقت الراهن ، وتتفرع عنه عدة فروع علمية ، الا أن الملاحظ عموما على بداية ظهور هذا العلم ، أن علماء الأنثروبولوجيا الأوائل قــد ركزوا على دراسة المجتمعات البدائية مثل الهنود الحمر الأمريكيين ، وسكان استراليا الاصليين وشعوب جنوب المحيط الهادى ، والمجتمعات الأفريقية الاستوائية ... الخ .

وتجدر الاشارة الى أن التركيز على مثل هذه المجتمعــات يرجع الى العوامل التاليــة :

١ — اهتمام علماء الأنثروبولوجيا الأوائل بدراسة اللغات واللهجات والنظم والعادات الغريبة التى تختلف عن لغات ونظم وعادات مجتمعــاتهم الأوروبية الأصلية . وصار ذلك الاهتمام تقليدا فى الأنثروبولوجيــا الى حــد كبير ، حتى أوائل القرن العشرين ، حينما اتجهت اهتمامات الأنثروبولوجيين نحو دراسة المجتمعات الريفية والحضرية والصناعية الحديثة فى العالم الغربى ذاته (٣) . كذلك اهتمت الأنثروبولوجيــا

---

(٣) د. عاطف وصفى ، مرجع سابق ص ١٢ .

حينئذ بدراسة عمليات الصراع الثقافى Gultural conflict والاتصال الثقافى Cultural Contact بين الثقافات والحضارات المختلفة . ومثال ذلك دراسة المهاجرين الى الولايات المتحدة الأمريكية وما طرأ على ثقافاتهم من تغيرات .

٢ — يعتمد علم الأنثروبولوجيا على المنهج التكاملى Integrative Method أو ما يسمى فى هذا العلم بالنظرة الشمولية Holistic . وبالتالى تسعى الدراسات الأنثروبولوجية نحو تحديد جميع عناصر الثقافة والنظم الاجتماعية فى مجتمع ما . وهذا لا يتحقق غالبا الا بدراسة المجتمعات البدائية صغيرة الحجم مثل قبائل النوير Nuer والازاندى Azande بالسودان . وهنا يصل الأنثروبولوجى الى تشخيص طريقة حياة Way of life ابناء القبيلة ، من خلال ملاحظة مساكنهم وملابسهم والأدوات التى يستخدمونها ونظمهم العائلية والقرابية والاقتصادية والدينية . وكذلك يهتم بدراسة الطقوس الدينية والمعتقدات السحرية والعادات والتقاليد والفنون السائدة ، علاوة على اهتمامه بتناول النظام السياسى والجماعات التى تتكون منها القبيلة والمراكز الاجتماعية فيها والادوار الاجتماعية لافرادها . وهكذا يستطيع الانثروبولوجى التعرف على طريقة حياة المجتمع الصغير الذى يدرسه ، على حين لو أجرى هذه الدراسة على المجتمع الهندى أو المجتمع الفرنسى أو المجتمع المصرى لعجز عن تحديد طريقة الحياة تلك ، ولما توصل الى الصورة الكلية التى يقوده اليها المنهج التكاملى .

غير أنه بتقدم بحوث ودراسات علماء الاجتماع والاقتصاد والقانون ، والسياسة والدين وغيرها ، وتراكم المعرفة العلمية حول المجتمعات الكبيرة ، تمكن الأنثروبولوجيون من الاستفادة بتلك الدراسات

للوصول الى تحديد عناصر ثقافة المجتمع المتقدم كبير الحجم وحضارته المعقـدة .

٣ ـ لعب العامل الايدولوجى دوره البارز فى تركيز علمـاء الأنثروبولوجيا الأوائل على دراسة المجتمعات البدائية صغيرة الحجم . حيث سعى بعضهم الى وضـع مقيـاس يقيس تطور المجتمعـات بحيث تحتل المجتمعات الأوروبية قمته (درجة ١٠٠ مثلا) ، وتشغل المجتمعات البدائية نقطة البداية فيه (الصفر مثلا) . وبين هـذين التصنيفين الاستقطابيين (الصفر ـ المائة) يمكن التعرف على المستوى أو الدرجة التى تشغلها هذه المجتمعات على مقياس التطور . ولعل الاتجاه التطورى فى الأنثروبولوجيا يوضح لنـا هذه الفكرة .

والواقع ان الآراء قد اختلفت فى تحـديد اقســام أو فـروع علم الانثروبولوجيا . الا انه يمكن تقسيم هذا العلم عموما الى قسمين رئيسيين هما الانثروبولوجيا الطبيعية أو البيولوجية ، والانثروبولوجيا الاجتمـاعية والثقافية (٤) . وهذان الفرعان يمثلان الفرعين التقليديين فى الانثروبولوجيا . على حين توجد فروع أخـرى ـ سنشير اليها لاحقـا ـ تمثل الاتجاهات الحديثة فى هذا العلم .

---

(٤) د. محمد الجوهرى ، الانثروبولوجيا : أسس نظرية وتطبيقات عملية ، ط ١ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ١٧ .

١ — الفروع الرئيسية فى الانثروبولوجيـا :

(أ) الانثروبولوجيا الطبيعية او البيولوجية :

Physical or Biological Anthropology

ويســمى هــذا الفــرع بالانثروبولوجيا الفيزيقيــة (الطبيعية) او الانثروبولوجيا البيولوجية البشرية (٥) . ويهتم هذا الفرع بدراسة تطور الانسان وسلوكه ، والخصائص البيولوجية العديدة التى يتباين فيها البشر القدماء عن البشر المحدثين . وينظر هذا الفرع الى الانسان على أنه عضو فى المملكة الحيوانية ، اذ يتناول فيه هذا الجانب فقط دون اهتمام بالجوانب الاجتماعية او الثقافية . وعلى هذا الأساس تعتبر الانثروبولوجيا الطبيعية أو البيولوجية اقرب الى العلوم الطبيعية منها الى العلوم الاجتمــاعية . وبالتالى نجدها أكثر ارتباطا بعلوم التشريح **Anatomy** وعلم وظائف الأعضاء **Physiology** وعلم الحياة **Biology** .

ومن ناحية أخرى فان الانثروبولوجيا الطبيعية تدرس جسم الانسان من حيث صفاته مثل لون البشرة وشكل الشعر وطول القامة وفصــائل الدم ، ولون العينين ، وبالتالى تصنيف الجماعات البشرية الى ســلالات وتحديد خصائص كل سلالة ، وتوزيع الاجناس على المناطق المختلفة على سطح الأرض . وعلى الرغم من الاعتقاد بأن الاجناس البشرية قد انحدرت عن أصل واحد هو الانسان العاقل **Homo Sapins** ، الا أن توزعها على الأرض ، وتفاعلها مع البيئات المختلفة قــد أدى الى اختلاف خصائصهــا . وقد أدى إهتمام الانثروبولوجيا الطبيعية بجسم الانسان الى تسميتها أحيانا بعلم دراسة الجسم *Somatoloty* من حيث صفاته ومقاييسه ، أو من حيث أصوله وأجداده . وأهم تخصصات هذا العلم علم العظام **Osteology** وعلم البنية للبشرية **Human Morphology** ومقاييس جسم الانســان

---

(٥) د. نبيل صبحى ، مرجع سابق ، ص ١٤ .

Anthropomety ودراسة مقاييس الاجسام الحية **Biometrics** وعلم الجراحة الانسانى **Human Serology** (٦) ولعله يتضح لنـا أن هـذه العلوم والتخصصـات تدخل فى صـميم دراسـات كليـات الطب والعلوم والتمريض . ولذلك نجد أن معظم المتخصصين فيهـا من الاطبـاء وعلماء الحياة . وان كانت هذه الدراسات تدخل فى دائرة أهتمـام أقسام الانثروبولوجيا بكليات العلوم الاجتماعية والآداب .

ومن الواضح أن تاريخ الأنثروبولوجيا الطبيعية يرجع أساسـا الى كتابات شارلز دارون **C. Darwin** عن أصل الانواع **Origin of Spacies.** والى بحوث بول بروكا **Paul Broca** وفرانسيس جالتون **Francis Gallton** . ويرجع الفضل الى بروكا فى تصميم أدوات الدراسـة فى الأنثروبولوجيا الطبيعية حتى أصبحت مرادفة لعلم قياس جسـم الانسـان (الأنثروبومترى) ، أضف الى هذا أن اعتماد الأنثروبولوجيا الطبيعية على علم التشريح أدى الى تصنيف السلالات البشرية بناء على توزيع السـمات التشريحية . وقد شهدت سنة ١٨٣٠م بداية تقدم هذا العلم ، حينما اتجه العلماء نحو دراسة التطور الجسمى للانسان ، ودراسة الحفريات الاثرية للتعرف على الهياكل البشرية والبقايا العظمية للانسان . وهنا انقسـمت هذه البحوث الى ميدانين رئيسيين وهما دراسة الانسان كنتاج لعمليـة التطور ، ودراسة وتحليل الجماعات البشرية (٧) . ورغم أن المنـاهج المستخدمة فى هذين الميدانين مختلفة ، الا انها ترتبط ببعضها وتسهم بالقاء الضوء على المشكلات القائمة فى الفرع الآخر .

---

(٦) **Ronald A. Reminick, Theory of Ethnicity ; An Anthropologist's Perspective, Univ - Press of America, Inc., New York, 1983, pp. 6-14**

(٧) د. محمد الجوهرى ، مرجع سابق ، ص ٢٩ .

وبالاضافة الى ذلك ، فان الأنثروبولوجيا الطبيعية تسعى للتعرف على السمات الفيزيقية للانسان القديم ، ولذلك يفتش الباحثون عن آثارة ومخلفاته ، ويقارنون بينها وبين بعضها من ناحية ، وبينها وبين الانسان من ناحية أخرى (٨) . ومن خلال المقارنة يتمكن الباحث من تعقب سمة بنائية معينة او مجموعة كاملة من السمات منذ أقدم الجماعات البشرية حتى احدثها . وبالتالى نستطيع اكتشاف متى ظهرت سمة معينة لأول مرة ، وكيف انتشرت بين الناس ، ونلاحظ اختفاءها التدريجى فى بعض الاحيان . وهنا يستطيع عالم الانثروبولوجيا الطبيعية الاجابة على التساؤلات التالية : متى واين ظهرت اقدم الكائنات البشرية لأول مرة ؟ وكيف كانت هيئة هذه الكائنات البشرية ، وكيف تتشابه أو تختلف بعضها عن بعض ؟ وكيف تغيرت السمات الفيزيقية للانسان خلال الفترة التى عاشها على الأرض ؟ .

وتعتبر دراسة العمليات الفعلية التى تحدث التغيرات البيولوجية فى الانسان من اهم موضوعات الانثروبولوجيا البيولوجية (٩) . وقد بدأت هذه الدراسة بالتعرف على نمو الانسان من الحمل الى البلوغ ، وتأثير الظروف البيئية المختلفة على هذا النمو ثم تطرقت الدراسة لاحقا لتتناول الوراثة البشرية أى العوامل الوراثية وأساليب تعديل الصفات الوراثية ، وأساليب تكيف الكائنات البشرية بيولوجيا مع الظروف الجديدة ، سواء على مستوى الفرد أو على مستوى النوع بأكمله .

(ب) الأنثروبولوجيا الثقافية : Cultural Anthropology

تعتبر الأنثروبولوجيا الثقافية فرعا أساسيا من فروع علم الانثروبولوجيا يهتم بدراسة الثقافة **Culture** من جوانبها المختلفة ، حيث تركز على

---

(٨) Roger parson, Intyoduction to Antnropology, Holt, Rinehartaud winston, INC., New York, 1974, p. 122.

(٩) Roger pearson, ibid, pp. 126 – 128.

بناء الثقافات البشرية وادائها لوظائفها فى كل زمان ومكان . وبالتالى فهى تهتم بالثقافة فى ذاتها ، سواء كانت ثقافة الانسان الأول أو ثقافة العصور القديمة أو ثقافة المجتمعات المعاصرة فى أمريكا واوروبا .

والواقع أن جميع الثقافات تستأثر باهتمام دارس الأنثروبولوجيا لأنها تسهم فى الكشف عن استجابات الناس نحو مشكلات البيئة الطبيعية ، ومحاولاتهم الحياة والعمل معا ، وتفاعلات المجتمعات الانسانية بعضها مع البعض . والثقافة من صنع الانسان ، وهى ظاهرة طبيعية تخضع لقوانين الطبيعة مثل التطور والتغير والبقاء للاصلح . وتعتبر قدرة الانسان على انتاج الثقافة اهم خاصية تميزه عن سائر المخلوقات الأدنى منه . ومن أهم عناصر الثقافة اللغة ، اذ عن طريقها تتناقل الافكار وتستمر من جيل الى جيل ، وتجمع وتسجل الثقافة . ومن ناحية أخرى فان الثقافة هى التى تزود اللغة بمعظم مضامينها فتعطى الانسان الاسماء والموضوعات التى يتكلم فيها . وتشمل الثقافة أيضا كل ما يصنعه الانسان من عناصر المادة مثل الملبس والمسكن والآلات والأدوات — التى تتقدم بمرور الوقت — سواء للعمل أو للتزين أو للانتقال او للترويح ... الخ .

ويجع الفضل الى تايلور Tylor فى نشأة هذا الفرع وتطوره ، وتنظيم موضوعاته فى اطار واحد ينتظم حول الثقافة (١٠) . ولعل التعريف الذى قدمه تايلور للثقافة لا يزال سائدا حتى اليوم ، على الرغم من ظهوره فى عام ١٨٧٨م . وهو كاف لاعطاء فكرة تفصيلية عن الموضوعات الكثيرة والمختلفة التى تدخل فى نطاق الثقافة . ويذهب تعريفه للثقافة الى أنها (ذلك الكل المركب الذى يضم المعرفة والمعتقدات والفن والعادات والأخلاق والقانون وأى قدرات أخرى يكتسبها الانسان باعتباره عضوا فى مجتمع) .

---

(١٠) **Roger M. Keesing, Cultural Anthropology ; A Contmporary perespective, (2 ed editiot) , Holt , Rinehartand winston, New York, 1981, pp. 67 - 70.**

وقد وضع تايلور بعض الأسس العامة لدراســة الثقــافة من أجل التعرف على طرق التفكير ونماذج الفعل الانســانى . كذلك حاول تايلور تفسير تشابه الحضارات الانسانية على اعتبار تشــابه الفعل وتشــابه الاسباب التى تؤدى الى حدوثه .

ومن الممكن أن تكون الدراسة فى الأنثروبولوجيا الثقافية ذات جانبين :

أولهما : هو الدراســة المتزامنة او الآنية **Synchronic Study** أى دراسة الثقافة فى نقطة معينة من تاريخها . وهنا ننظر الى العنصر الثقافى من حيث ارتباطه مع حياة المجتمع ككل .

وثانى الجانبين هــو الدراســة التتبعيــة **Diachronic Study** (أو التاريخية) بمعنى دراسة الثقافة عبر التاريخ . وهذا ما يمثل الاتجاه التطورى فى دراسة الثقــافة حيث يعزل الظــاهرة أو العنصر ويتتبعها فى سيرها التاريخى (١١) .

وفى ضوء كثرة وتنوع الموضوعات التى تدخل فى نطاق الثقافة ، فان الانثروبولوجيا الثقافية تضم عدة موضوعات أو فــروع ، مثل الاثنولوجيا **Ethnology** وعلم الآثار **Archeology** (الاركيولوجيا) ، وعلم اللغويات **Linguistics** وسنتناول كل فرع منها بشىء من الايجاز .

١ — الاثنولوجيــا : **Ethnology** :

وهى علم يختص بدراسة ثقافة المجتمعات الموجودة وقت الدراســة وكذلك الحضارات التى انقرضت بشرط أن تتوافر عنها ســجلات متكوبة وشواهد حية تلقى الضوء على هذه للحضارات . ويهتم الاثنولوجى بدراسة

---

(١١) ايكه هولتكرانس ، قاموس مصطلحات الاثنولوجيا والفولكلور ، ترجمة الدكتورين محمد الجوهرى وحسن الشامى ، ط ٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٢م ، ص ٢٤٤ — ٢٤٥ ، وص ٣٣٣ .

ووصف الثقافات المختلفة ، اينما وجدت سواء فى القارات القطبية الشاسعة او فى صحراوات وغابات افريقيا او فى الجزر المتناثرة فى المحيط الهادى او فى المدن المزدحمة فى اوروبا وآسيا وامريكا . وبالتالى يعتبر وصف السمات الثقافية للجماعات البشرية المختلفة بمثابة الشغل الشاغل لعالم الانثولوجيا . ونظرا لقلة معلوماتنا عن المجتمعات البدائية نجده يكرس جهده للتعرف على ثقافاتها . ومع ذلك فلا ينبغى أن نصف الانثولوجيا بأنها دراسة المجتمعات والثقافات البدائية لانها تهتم بالثقافة كظاهر مميزة للبشر فى كل مكان وليس بثقافات مجتمع معين أو مجموعة من المجتمعات . كذلك فالانثولوجى يبحث فى كل ثقافة المجتمع فيدرس النظم السياسية والاقتصادية والدينية والفنون والعادات والتقاليد . وقد اتفق العلماء على اطلاق اصطلاح اثنوجرافيا **Ethnography** على الدراسة التى تقتصر على الوصف العام للثقافة ، على حين يطلقون اصطلاح إثنولوجيا على الدراسات التى تجمع بين وصف الثقافة والمقارنة بينها وبين غيرها من الثقافات . ولذلك يستهدف الاثنولوجى الوصول الى قوانين عامة للعادات الانسانية والتغير الثقافى وآثار الاتصال الثقافى بين الحضارات والثقافات المختلفة ، وتصنيفها الى مجموعات أو اشكال على اساس مقاييس معينة ، ثم تفسر أوجه التشابه وأوجه الاختلاف بينها . وقد اهتمت الاثنولوجيا فى الوقت الحالى بدور الفرد فى المجتمع وارتباط نمو الشخصية بالتراث الثقافى للوصول الى تعميمات واجابات عن مدى دور الفرد فى بعض العمليات الثقافية كالاختراع والاكتشاف ونشر السمات الثقافية وانتشارها ، ووسائل تشكل الشخصية الفردية وانواع السلوك الذى تحبذه الثقافة والسلوك الذى تلفظه ... الخ .

٢ ــ علم الآثار : (الأركيولوجيا) Archeology :

يهتم علم الآثار بدراسة الانسان لتحديد وتتابع التغير الحضارى والثقافى على مر العصور . ولذلك يتحتم عليه أن يستخدم السجلات المكتوبة

كلما وجد اليها سبيلا — كما فى مصر القديمة والصين — لاعادة رسم صورة ثقافات العصور الغابرة بالاستعانة بمخلفاتها المادية وحدها فى أغلب الأحوال . فقد يعثر عالم الآثار على بعض الملاجىء التى كان الانسان القديم يسكنها كالكهوف ، وكذلك يعثر على بعض الاسلحة والأدوات والاوانى المدفونة تحت الأرض (١٢) . وقد يعثر على بعض الرسوم والنقوش الحجرية والفخار والبيوت وبقايا المعابد ... الخ . وبالتالى يستطيع وصف جانب من الثقافة القديمة وربطها ببيئتها الطبيعية التى عاشت فيها .

والواقع أن هناك اختلافا كبيرا بين علماء الآثار وعلماء التاريخ . فإذا كان علماء التاريخ يدرسون الفترات المسجلة بالكتابة فى المدنيات والحضارات الكبرى فى الشرق الاوسط والاقصى واوروبا ، فان علماء الآثار يهتمون بالفترات والمراحل التاريخية الطويلة التى قضاها الانسان مثلا اكتشاف القراءة والكتابة (١٣) . ومن هنا فانهم يعتمدون فى دراساتهم على البقايا التى خلفها الانسان وتمثل حضارته وعناصر ثقافته .

وبذلك يسهم عالم الآثار بنصيب اساسى فى اثراء معرفتنا بتاريخ الثقافات وتطورها . فمنه نعلم اين اكتسب الانسان الثقافة لأول مرة ومتى كان ذلك ، ومنه نقف على جانب من تاريخ الشعوب الامية ، كما نتوصل الى قدر من المعرفة بتطور الثقافات البشرية او اساليب تعاقب نمط ثقافى بعد آخر فى مختلف مجتمعات العالم (١٤) . ومن ناحية اخرى يمكننا أن ندرس ظهور المجتمعات التى تستخدم الأساليب الزراعية فى أعقاب المجتمعات

---

(١٢) د. محمد الجوهرى ، مرجع سابق ، ص ٣٥ .

(١٣) د. عاطف وصفى ، مصدر سابق ، ص ١٧ .

(١٤) Roger pearSon, Ihtroduction to Anthropology; Op. pp. - 302 - 304 .

التى لا تستخدم هذه الأساليب فى الأماكن المختلفة (الجغرافية) والأزمان المختلفة (التاريخية) .

وقد توصل علماء الآثار الى مناهج دقيقة لفحص هذه البقايا ، والمخلفات البشرية ، كما توصلوا الى أساليب محكمة لحفر طبقات الأرض ، وتحديد المواقع التى يوجد فيها بقايا وتصنيفها ومقارنتها . وبالتالى يستنتج عالم الآثار الكثير من المعلومات عن الحضارات القديمة وتغيراتها واتصالاتها بغيرها من الحضارات . ويتعاون — فى هذا الصدد — مع المؤرخين والأنثروبولوجيين باختلاف تخصصاتهم الدقيقة ويستفيدون من ابحاث ودراسات علماء الجيولوجيا وعلماء النبات والحيوان والمناخ فى تأريخ وتحقيق (هوية) البقايا التى يكتشفونها . وكثيرا ما يستخدمون التجارب المعملية لاكتشاف خصائص ومناخ البقايا الأركيولوجية . ويتطلب عمل عالم الآثار معرفة واعية بالكيمياء والطبيعيات والمهارات الدقيقة . وقد نجح العلماء المحدثون فى اختراع وسيلة جديدة لتحديد عمر (البقايا) بدقة وهى طريقة الكربون المشع **Radio Active Carbon** وتعرف باصطلاح (ك ١٤) .

٣ — علم اللغويات : **Linguistics** :

تختص اللغويات بدراسة جميع لغات البشر ، بما فى ذلك اللغات المعاصرة (عند الشعوب الأمية أو الشعوب التى تعرف القراءة والكتابة) واللغات التى لا نعرفها الا من واقع السجلات التاريخية المكتوبة فقط مثل اللغة اللاتينية واليونانية القديمة واللغة السنسكريتية . وينصب اهتمام دارس اللغويات على اللغة نفسها أساسا فيهتم بأصولها وتطورها وبنائها . وهو فى هذا يختلف عن دارس اللغويات العملية ، أو دارس اللغة المقارنة **Polyglot** — الذى يتكلم ويفهم عدة لغات — أو دارس الأدب الذى يهتم باللغات اهتماما ثانويا فى مقابل اهتمامه بالأعمال الأدبية ذاتها . كذلك يختلف عن دارس فقه اللغة ، الذى يهتم باللغة أساسا

كوسيلة لفهم التراث اللغوى والأدبى لشعب معين فهما أفضــل (١٥) .
وبالتالى يستطيع عالم اللغويات أن يعيد رسم صورة تاريخ اللغات والأسر
اللغوية ، ويقارن بينها لتحديد السمات المشتركة ، وفهم العمليــات التى
تظهر من خلالها اللغات الى الوجود ، وتتنوع كما نراها اليوم .

والواقع أن دراسة اللغويات تعتمد على منهج علمى ، وتعتبر أحــد
فروع الأنثروبولوجيا الثقافية لأن اللغة أحد عناصر الثقافة ، ان لم تكــن
اهمها على الاطلاق . وينقسم علم اللغويات الى عدة اقسام فرعية اهمها
علم اللغويات الوصفى Descriptive Linguistics وعلم أصول
اللغات Glottochronology . أما القســم الأول — علم اللغويات
الوصفى — فهو يهتم بتحليل اللغات فى زمن محدد ، ويدرس النظم الصوتية
وقواعد اللغة والمفردات . ويعتمد عالم اللغويات هنــا فى دراساته على
اللغة الكلامية (اى لغة غير مكتوبة) فيستمع الى المواطنين ويعبر عــن
لغتهم المنطوقة برموز دولية متعارف عليها . وتتركز معظم هذه الدراسات
فى المجتمعات البدائية التى لم تعرف القراءة والكتابة . أما القسم الثانى —
علم أصول اللغات — فهو يختص بالجانب التاريخى والمقارن ، حيث يدرس
العلاقات التاريخية بين اللغات التى يمكن متابعة تاريخها عن طريق وثائق
مكتوبة . وتزداد المشكلة حدة عندما يتناول اللغوى لغة قديمة لم تتــرك
وثائق مكتوبة . وهنا يستهدف تحديد أصول اللغات الانسانية بما فيها هذه
اللغــة القــديمة .

وينبغى ألا نفهم مما سبق أن اللغوى منعزل عن الأنثروبولوجيا ، بل
على العكس تماما ، فهو يوجه اهتمامه الى المشكلات اللغوية البحتــة ،
كما يهتم بالاعلاقات العديدة القائمة بين لغــة شــعب ما ، وبقية جوانبه

---

(١٥) Roger Keesing, Cultural Anthropology Op. Cit., pp. 80 - 82.

ثقافته . وهكذا يمكن ان يدرس الكيفية التى ترتبط بها لغة جماعة معينة بمكانة تلك الجماعة أو وضعها الاجتماعى ، والرموز اللغوية المستخدمة فى الشعائر والاحتفالات الدينية ، وكيف أن هذه الرموز تختلف عن الكلام اليومى العادى ، وكيف يعكس تغير الحصيلة اللغوية فى احدى اللغات الثقافة المتغيرة للشعب الذى يتكلمها ، وعمليات نقل اللغة من جيل الى جيل وكيف تساعد على نقل المعتقدات والمثل والتقاليد الى الاجيال اللاحقة (١٦) . اذن يتمثل دور عالم اللغويات فى فهم دور اللغة فى المجتمعات البشرية ، وكذلك دورها فى رسم الصورة العامة للحضارة الانسانية .

(جـ) الأنثروبولوجيا الاجتماعية : Social Anthropology

تمثل الأنثروبولوجيا الاجتماعية فرعا متميزا فى علم الأنثروبولوجيا العامة ، الا أنها تمثل فى نفس الوقت — محور خلاف بين المدارس الأنثروبولوجية الحديثة . فالمدرسة الأمريكية ترى أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية فرع من فروع الأنثروبولوجيا الثقافية ، وبالتالى فان الأنثروبولوجيا العامة تنقسم الى أنثروبولوجيا طبيعية أو بيولوجية وأنثروبولوجيا ثقافية ، يتفرع منها الأنثروبولوجيا الاجتماعية . على حين تعتبر المدرسة البريطانية أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية هى القسم الرئيسى الثانى للأنثروبولوجيا — بعد الأنثروبولوجيا الطبيعية — ويتفرع عنها الأنثروبولوجيا الثقافية . وبعبارة أخرى تعتبر الأنثروبولوجيا الاجتماعية بمثابة الأصل — من وجهة نظر المدرسة البريطانية — والأنثروبولوجيا الثقافية بمثابة الفرع ، بينما تعتبر الأنثروبولوجيا الثقافية — فى ضوء فكر المدرسة الأمريكية — هى الأصل ، والأنثروبولوجيا الاجتماعية هى الفرع .

وعلى اية حال ، فان هذه الخلافات لا تهمنا كثيرا هنا بقدر ما يهمنا توضيح أن مجال اهتمام الأنثروبولوجيا الاجتماعية هو البناء الاجتماعى :

---

(١٦) انظر : Roger Pearson, op . Cit., p. 268.

وانظر أيضا : Roger Keesing , op . Cit., p. 329

ومحور اهتمام الأنثروبولوجيا الثقافية هو الثقافة . ونحن فى مصر — ومن وجهة نظر المدرسة المصرية فى الأنثروبولوجيا اذا جازت التسمية — نعتبر أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية فرع مستقل ، كما أن الأنثروبولوجيا الثقافية هى الاخرى فرع مستقل من فروع الأنثروبولوجيا العامة .

تدرس الأنثروبولوجيا الاجتماعية — اذن — السلوك الاجتماعى الذى يتخذ فى العادة شكل نظم اجتماعية كالعائلة ونسق القرابة والتنظيم السياسى والاجراءات القانونية والعبادات الدينية وغيرها (١٧) . كما تدرس العلاقة بين هذه النظم ، سواء فى المجتمعات المعاصرة أو فى المجتمعات التاريخية التى توجد لدينا عنها معلومات مناسبة من هذا النوع ، ويمكن معها القيام بمثل هذه الدراسات (١٨) .

وتولى الأنثروبولوجيا الاجتماعية البناء الاجتماعى **Social Structure** اهتماما ملحوظا . فهى تحلل هذا البناء فى المجتمعات الانسانية ، وخاصة المجتمعات البدائية والبسيطة التى يظهر فيها تكامل البناء الاجتماعى ووحدته بوضوح . وهنا يزداد اهتمام علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية بالقطاع الاجتماعى للحضارة ، والدراسة التفصيلية للبناء الاجتماعى ، وتوضيح الترابط والتاثير المتبادل بين النظم الاجتماعية . وسوف نعالج هذه الموضوعات بالتفصيل فى الفصول اللاحقة .

٢ — الفروع الحديثة للأنثروبولوجيا :

تعددت الدراسات الأنثروبولوجية فى الوقت الراهن وتراكمت البحوث التى أجريت على موضوعات حديثة وفى مجتمعات كبيرة الحجم نسبـ

---

١٧) انظر : Roger Keesing, op - Cit., p - 316 . 334.
See Also :
Roger Pearson, Introduction to Anthropology, op . Cit., pp . 191 - 205 .

١٨) ايفانز بريتشارد : الانثروبولوجيا الاجتماعية ، ترجمة الدكتور أحمد أبو زيد ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٦٠م ، ص ٢٣ .

؛ ريفية وحضرية صناعية ... الخ) والملاحظ أن هذه الفروع ليست حديثة بالمعنى الزمنى (بداية ظهورها) لأنها نالت بعض الاهتمام فى دراسات الرواد ، وفى الفروع التقليدية (الطبيعية والاجتماعية والثقافية) ، ولكنها حديثة بمعنى تبلورها بشكل واضح حول محور من محاور الاهتمام والدراسة يجذب الباحثين اليه فتتراكم بحوثهم وتنصب على هذا المحور ، فيصبح بالتالى فرعا متميزا وحديثا فى نفس الوقت . وتزداد معالم هذا الفرع رسوخا كلما ساهمت بحوثه ودراساته بتقديم الحلول لبعض المشكلات، وابراز الجوانب التطبيقية المفيدة . ومن أهم هذه الفروع : الأنثروبولوجيا السياسية Political Anthropology والأنثروبولوجيا الاقتصادية Economic Anthropology والأنثروبولوجيا الطبية Medical Anthropology (١٩) ، والأنثروبولوجيا الحضرية Urban Anthropology والأنثروبولوجيا النفسية (٢٠) Psychological Anthropology والأنثروبولوجيا التطبيقية Applied Anthropology (*) .

---

(١٩) حول هذا الموضوع أنظر مزيدا من التفاصيل فى :

(أ) د. على المكاوى ، الجوانب الاجتماعية والثقافية للخدمة الصحية : دراسة ميدانية فى علم الاجتماع الطبى ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٨م الفصل الخامس صص ٢٩٣ — ٤٠٧ .

(ب) د. على المكاوى ، الطب السحرى ، دراسة نقدية ، الكتاب السنوى لعلم الاجتماع ، العدد الرابع ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣م صص ٤٧٢ — ٤٨٣ .

(ج) د. على المكاوى ، الخدمة الصحية فى مصر : دراسة للابعاد المهنية والاجتماعية والثقافية ، رسالة دكتوراه (غير منشورة) ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٦م ، البابان الاول والثانى .

(د) د. نبيل صبحى ، الانثروبولوجيا الطبية وخدمة قضايا الصحة والمرض فى مصر، مقال منشور بالكتاب السنوى لعلم الاجتماع ، العدد الثالث ، دار المعارف ، القاهرة ، أكتوبر ١٩٨٢م ، صص ١٩ — ١٠٠ .

(٢٠) أنظر تفاصيل هذا الفرع فى الكتاب التالى :

د. عاطف وصفى ، الثقافة والشخصية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٥م .

(*) سنتناول هذا الموضوع بالتفصيل فى الفصل الرابع عشر الاخير من هذا الكتاب .

الفصل الثانى

موضوع الأنثروبولوجيا الاجتماعية

الفصـــل الثــانى

موضـــوع الأنثروبولوجيا الاجتمــاعية

تناولنا فى الفصل السابق فكرة سريعة عن موضوع علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، وفى هذا الفصل نشير الى هــذا الموضوع بالتفصيل ، حتى يتضح لنــا بجلاء مجــال الدراســـة فى ذلك الفــرع المتميز من فروع علم الأنثروبولوجيا العامة ، أعنى الأنثروبولوجيا الاجتماعية .

ان الأنثروبولوجيا الاجتماعية تهتم بمجال محدد من مجالات العــلوم الاجتماعية وهو دراسة النظم الاجتماعية ووظائف هذه النظم فى اطار البناء الاجتماعى للمجتمع . والواقع أن كثرة الدراسات والبحوث فى هذا المجال، قد انصبت فى البداية على المجتمعات البدائية . ولذلك سادت تسمية هــذا العلم ووصفه بأنه (علم اجتماع المجتمعات البدائية) . ومع ذلك فان تراكم هذه البحوث وتنوعها ، ساعدنا على اجراء بعض المقارنات بين عدد قليل من المجتمعات البسيطة أو البدائية ، ثم بينها وبين المجتمعات الحديثـــة (الحضرية والصناعية) ، مما أدى فى النهاية الى الوصول الى مبــادىء عامة تفسر الحياة الاجتماعية .

واذا كانت دراسات الأنثروبولوجيا الاجتماعية قد انصبت فى البداية — كما قلنا — على المجتمعات البدائية والبسيطة ، فان من الأفضل توضيح المقصود بهذه المجتمعات البدائية أولا ، ثم تفسير اسباب دراســتها بهذه الكثافة والتركيز عند الرواد الأوائل فى القرن التاسع عشر من ناحيـــة ثانيـــة .

أما كلمـــة (بــدائى) Primitive التى يكثر اســـتخدامها فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، لا تعنى أن المجتمعات التى توصف بأنها بدائية أسبق فى الزمن ، أو أدنى فى المكانة من انواع المجتمعات الأخرى . فمــن المعروف أن لهذه المجتمعات تاريخا طويلا قد يماثل فى طوله تاريخ المجتمعات

الأوروبية ذاتها . واذا كانت هذه المجتمعات لم تتطور فى بعض النواحى بنفس النسبة التى تطور بها المجتمع الأوروبى ، فانها تفوقه تطورا فى بعض النواحى الأخرى . وعلى ذلك يؤكد ايفانز بريتشارد **Evans Pritchard** على أن كلمة بدائى ربما كانت اختيارا غير موفق ، الا أنها اصبحت الآن اصطلاحا واسع الذيوع والانتشار الى حد لا يمكن معه تجنبها (١) . ويكفى القول بأن الأنثروبولوجى حينما يستخدم هذه الكلمة فانه يقصد بها مجتمعا صغيرا سواء من حيث عدد السكان أو المساحة أو تشعب العلاقات الاجتماعية . كما يقصد بها أيضا أن هذا المجتمع يتصف ببساطة الفنون والاقتصاد وقلة التخصص فى الوظيفة الاجتماعية اذا قورن بالمجتمع المتقدم .

أما الجانب الثانى — وهو أسباب تركيز علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية على المجتمعات البدائية — فانه موضع نقاش طويل (*) . فغالبا ما يؤخذ ذلك على الأنثروبولوجى الاجتماعى ويطالب بدراسة المجتمعات الحديثة ، والبحث فى مشكلاتها ، وطرح الحلول لعلاجها ، وهذا أنفع واجدى . ومع ذلك فقد استأثرت المجتمعات البدائية بالاهتمام الأكبر بحكم الأسباب التالية :

١ — جذبت المجتمعات البدائية انتباه علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية المهتمين بدراسة النظم الاجتماعية . حيث أثارت انتباه فلاسفة القرن الثامن عشر ، باعتبارها تمثل الحالة الطبيعية الأولى التى كان يعيشها الانسان الأول قبل أن يظهر نظام الحكومة المدنية .

---

(١) ايفانز بريتشارد ، مرجع سابق ، ص ٢٦ — ٢٨ .

(*) لا يعنى هذا ان دراسات الانثروبولوجيا الاجتماعية وقف على المجتمعات البدائية ، ذلك لان هناك دراسات هامة أجريت على المجتمعات المتقدمة فى ايرلندا والصين واليابان والهند والمكسيك وكذا وفى الولايات المتحدة نفسها . وسوف نعرض لهذا الموضوع فى مواضع لاحقة .

٢ — اعتقد علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية — طوال القرن التاسع عشر — بأن دراسة هذه المجتمعات تقدم لهم شواهد ودلائل تساعدهم فى بحثهم عن أصول النظم الاجتماعية .

٣ — ساد الظن لدى علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية — فى بداية القرن العشرين — بأن هذه المجتمعات تعرض النظم الاجتماعية فى أبسط صورها ، وأن المنهج السليم يقتضى التقدم والانتقال من دراسة النظم الأكثر بساطة الى النظم الأكثر تعقيدا ، حتى يتسنى للباحث أن يستعين فى دراستها بما تعلمه من الدراسة السابقة .

٤ — أدى ظهور الأنثروبولوجيا الوظيفية **Functional Anthropology** الى الاعتقاد بأن مهمة الأنثروبولوجى الاجتماعى هى دراسة النظم الاجتماعية كأجزاء متعاونة متساندة فى النسق الاجتماعى ، وهذا لا يتوافر الا فى المجتمعات البدائية التى تمتاز بدرجة عالية من بساطة البناء واتساق الثقافة بحيث يمكن ملاحظتها مباشرة ككل متميز ، وذلك قبل أن يقدم الباحث على دراسة المجتمعات الحديثة المعقدة التى يتعسر دراستها بهذه الطريقة .

٥ — من المؤكد أن الباحث الأجنبى — الغريب عن المجتمع وعن الثقافة التى يدرسها — أكثر حساسية وقدرة على ملاحظة النظم والثقافة والعلاقات الاجتماعية فى الشعوب التى تنتمى الى ثقافات اخرى مغايرة . وبالتالى فان دراسة الأنثروبولوجيين الاجتماعيين الأوروبيين للشعوب البدائية ، يتيح لهم سرعة الوقوف على طريقة الحياة السائدة ، ويساعدهم فى الوصول الى تأويلات موضوعية .

٦ — ان هذه المجتمعات البدائية تتعرض لتغير اجتماعى وثقافى سريع مما يستوجب المبادرة الى دراستها قبل أن يعصف بها التغير (*) .

(*) راجع التفاصيل فى الباب الثالث من هذا الكتاب ، وخاصة الفصل الحادى عشر والمراجع الواردة هناك .

اذ أن الانساق الاجتماعية — التى تتعرض للتغير — تعتبر نماذج بنائية فريدة ، ولا شك أن دراستها ستسهم بهذه الكيفية فى فهم طبيعة المجتمع الانسانى . والمهم فى الدراسة المقارنة للنظم الاجتماعية هو مدى تنوع هذه المجتمعات واختلافها ، وليس عددها .

٧ — تنطوى حياة المجتمعات البدائية على جوانب طريفة ، تتمثل فى معرفة طريقة الحياة ، ونوع القيم والمعتقدات السائدة ، وكيف تسير حياة شعوبها وفقا لها .

والخلاصة اذن أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية تدرس كل المجتمعات الانسانية وليس المجتمعات البدائية فقط ، حتى ولو عند الشعوب الأكثر بساطة . والواقع أنه لا يمكن قيام علم مستقل ومتميز يقصر جهوده تماما على هذه المجتمعات البسيطة . ومن ناحية أخرى ، فان الأنثروبولوجى الاجتماعى قد يدرس النظم اللغوية والقانونية والسياسية والدينية والاقتصادية وغيرها فى المجتمعات البدائية ، وبالتالى فهو يهتم بما يهتم به زميله الذى يدرس نفس الموضوعات فى الحضارات الكبرى والمجتمعات الحديثة فى العالم . أضف الى ذلك أنه حينما يلاحظ ظاهرة فى المجتمع البدائى ، فانه يستحضر صورة مجتمعه الأصلى نصب عينيه دائما ، مما يوسع من نطاق المقارنة ، ويثرى المعرفة العلمية .

واذا كنا نقول بأن الأنثروبولوجيا الاجتماعية تدرس كل المجتمعات الانسانية — البسيطة والمركبة — فأى شىء يدرسه هذا العلم فى تلك المجتمعات ؟ الواقع أن البناء الاجتماعى **Social Structure** ، والعلاقات الاجتماعية **Social Relationships** هما الموضوع الأساسى الذى تدرسه الأنثروبولوجيا الاجتماعية فى المجتمع الانسانى . وعندما نحاول تعريف موضوع الدراسة ، نجد اختلافا بين علماء الأنثروبولوجيا حول تعريفهم لهذا الموضوع . وهذا ما سنوضحه فى الفقرات التالية :

اولا — المقصود بالبناء الاجتماعى :

يذهب وينيك **Winck** فى قاموسه لعلم الانثروبولوجيا الى أن (البناء الاجتماعى نسيج يتكون من العلاقات التى تربط بين أعضاء مجتمع ما ، وفى رأى آخر يتكون ذلك النسيج من العلاقات التى تربط بين الجماعات الأساسية فى مجتمع ما) (٢) . أما كيسينج **Keesing** فهو يرى أن البناء الاجتماعى يمثل (النظم الاجتماعية التى عن طريقها تصل مجموعة من السكان الى حالة التكامل والترابط وهى الحالة اللازمة لتكوين المجتمع) (٣) . على حين يقصد ايفانز بريتشارد بالبناء الاجتماعى الجماعات الاجتماعية المستمرة فى الوجود لوقت كاف بحيث تستطيع الاحتفاظ بكيانها كجماعات ، رغم التغيرات التى تحدث للأفراد الذين يكونون تلك الجماعات) . وفى ضوء هذه التعريفات يتضح أن كيسينج يحدد مجال البناء الاجتماعى بالنظم الاجتماعية فى المجتمع ، على حين يركز بريتشارد على الجانب المورفولوجى للمجتمع ، حيث عرف البناء الاجتماعى بالجماعات التى يضمها المجتمع وما يسود بينها من علاقات اجتماعية . وفى النهاية نلاحظ أن تعريف وينيك فى قاموس الانثروبولوجيا قد تضمن التعريفين السابقين .

ويحاول ايفانز بريتشارد شرح ما يعنيه بكلمة (البناء) فيقول : (من الواضح انه لابد من وجود درجة معينة من الاطراد والاتساق فى الحياة الاجتماعية ، وتوفر نوع ما من التنسيق فى المجتمع والا استحال على أعضائه العيش معا ، فالناس لا يستطيعون الانصراف الى شئونهم الا لأنهم يعرفون نوع السلوك الذى يرتضيه الآخرون منهم ، وكذلك نوع التصرفات التى يتوقعونها هم أنفسهم من الآخرين فى مختلف مواقع الحياة الاجتماعية . كما

---

(٢) د. عاطف وصفى ، مرجع سابق ، ص ٨٢ .

(٣) Roger Keesing, op - Cit., pp - 32 - 33

انهم ينظمون نشاطهم تبعا لقواعد مرسومة ، وحسب قيم معينة متعارف عليها . فهم يستطيعون التنبؤ والتكهن بالأحداث ، وبذلك يمكنهم ترتيب حياتهم بما يتفق ويتماشى مع حياة الآخرين . ولكل مجتمع صورة او نمط معين يسمح لنا بأن نتكلم عنه على انه نسق أو بناء يعيش فيه افراده وينزلون على مستلزماته . واستخدام كلمة بناء — بهذا المعنى — يتضمن وجود نوع من التماسك والتوافق بين اجزائه الى الحد الذى يمكن معه تجنب التناقض الصارخ او الصراع المكشوف ، وانه يتمتع بدرجة من الديمومة والبقاء اكبر مما تحظى به معظم الاشياء العابرة السريعة فى الحياة الانسانية) (٤) . وقد لا يفطن افراد المجتمع نفسه الى ادراك هذا البناء المتميز لمجتمعهم ، او قد يكون لديهم شعور مبهم تجاهه . اما الانثروبولوجى الاجتماعى فمهمته الاساسية هى الكشف عن هذا البناء .

والجدير بالذكر ان البناء الاجتماعى الكلى العام — لأى مجتمع — يتضمن عددا من الأبنية او الأنساق الفرعية **Sub - Systems** الداخلة فى تكوينه . وبذلك يمكن أن نتكلم عن النسق القرابى **Kinship System** او النسق الاقتصادى **Economic System** او النسق السياسى **Political System** فى هذا البناء الكلى . ويتخذ السلوك والتصرفات الاجتماعية داخل نطاق هذا النسق شكل النظم الاجتماعية كالزواج والعائلة والأسواق والرياسة ... الخ . وحينما نتكلم عن وظائف هذه النظم ، فاننا نقصد الدور الذى تؤديه فى صيانة البناء والمحافظة عليه .

اما راد كليف براون . **Radcliff-Brawn** فقد ناقش مصطلح البناء الاجتماعى ، وحاول تعريفه من خلال النظر الى هذا البناء باعتبار أنه يتضمن ثلاث مجموعات من الظواهر الاجتماعية وهى :

---

(٤) ايفانز بريتشارد ، مصدر سابق ، ص‌ص ٤٢ — ٤٣ .

وهى ما يعرف بالاشكال المورفولوجية للمجتمع الانسانى وهى أشكال

١ — الجماعات الاجتماعية المستمرة فى الوجود لفترة كافيـــة من الزمن . يتجمع الانسان فيها ويتكتل فى وحدات اجتمـــاعية تختلف فى الحجم والوظيفـــة .

٢ — كل العلاقات الاجتماعية بين فرد وفرد من أعضاء مجتمع معين . فمثلا يتكون نظام القرابة — لأى مجتمع — من عدد من العلاقات الثنـــائية بين الأب والابن ، وبين الأم والابنة وبين الزوج والزوجة وبين الابن والخال ... الخ .

ويعد نظام القرابة أهم النظم الاجتماعية فى المجتمعات البسيطة . وبالتالى يقوم البناء الاجتماعى كله على أســـاس شـــبكة العلاقات القرابية التى تحدد كل العلاقات الاجتماعية فى المجتمع . وبالتـــالى يؤكـــد براون على أن النظم الاجتماعية هى المجموعة الثـــانية من الظواهر الاجتماعية المكونة للبناء الاجتماعى .

٣ — ظواهر التباين والتنوع بين الأفراد والجماعات فى المجتمع . وتحدد هذه الظواهر الأدوار الاجتماعية Social Roles التى يقوم بهـــا هؤلاء الأفراد والجماعات . وكل مجموعة من الادوار تنتمى الى مراكز اجتماعية Social Statuses يحددها المجتمع ويشغلها الأفراد والجماعات حسب شروط محددة كالنوع مثلا (مراكز للرجال وأخـــرى للنساء) والسن (مراكز للأطفال واخرى للشباب وثالثة للمسنين) .

* * *

ثانيا — اهم خصائص البناء الاجتماعى :

١ — **يتكون البناء الاجتماعى من انماط العلاقات الاجتماعية :** ولذلك حينما نحاول دراسة البنـــاء الاجتمـــاعى لمجتمع ما ، فلابـــد من ملاحظة العلاقات الاجتماعية فى صورتها الواقعية المحسوســـة والتى ترتبط بحدود وبمكان معين وبزمان معين أيضا . وتوجد هذه العلاقات بين شخصين على الأقل — وبين جماعة اشخاص فى الغالب — حينمـــا

يوجد بعض التوافق بين مصالح الأشخاص أو يوجد تعارض بشأنها ، أو عندما توجد محاولات للحد من الصراع الناجم عن تعارض المصالح . وقد حدد رادكليف براون المقصود من (المصلحة) هنا بأنها (كل سلوك هادف) . وفي هذه الحالة ينبغي على الأنثروبولوجي الاجتماعي أن يلاحظ عدداً ضخماً من العلاقات الاجتماعية المجسدة في مجتمع صغير الحجم ، ومن خلال الاقامة الدائمة مدة طويلة في مجتمع الدراسة ، ومعرفة اللغة المحلية التي يتفاهم بها أبناؤه ، يستطيع تسجيل هذه العلاقات العديدة ، وتنظيمها وتصنيفها في مجموعات أو فئات متشابهة في الموضوع والوظيفة والشكل . ومثال ذلك آداب التحية واستقبال الأصدقاء لبعضهم بعد طول غياب حيث يتضح الموضوع في عنصر التلاقي بعد الانقطاع حينا من الدهر ، وتتمثل الوظيفة في اظهار وتقوية درجة التماسك الاجتماعي بين أعضاء المجتمع . على حين يتجسد الشكل في أسلوب التعبير عن فرحة اللقاء والتقبيل والأحضان والعناق وترديد عبارات التحية بشكل متكرر وسريع ... الخ . وفي هذه الحالات يقوم الأنثروبولوجي الاجتماعي باطلاق اصطلاح انماط على تلك المجموعات المتشابهة من العلاقات الاجتماعية القائمة تمييزا لها عن صورها الواقعية . اذن من تلك الأنماط يتكون البناء الاجتماعي ، ويتصدر الأنثروبولوجي للكشف عنها .

٢ — **البناء الاجتماعي هو كل ((أونسيج)) متشابك الأجزاء** : يتكون البناء الاجتماعي — كما أشرنا — من أنماط العلاقات الاجتماعية ، التي توجد على ثلاثة أقسام وهي التجمعات أو الجماعات التي يتكون منها المجتمع ، والنظم الاجتماعية التي تمثل الجهاز الذي يحافظ على استمرارية البناء ، والمراكز الاجتماعية التي يشغلها الأشخاص والجماعات ، والأدوار الاجتماعية التي يقومون بها من خلال المراكز

الاجتماعية . والواقع أن الانثروبولوجى الاجتماعى يضطلع بدراسة هذه الاقسام وما تتضمنه من موضوعات فرعية باستخدام المنهج الكلى Holistic Method الذى يغطى كل أجزاء البناء الاجتماعى. ولعل هذا المنهج الكلى هو الذى يميز دراسات الأنثروبولوجيا الاجتماعية عن غيرها من العلوم الاجتماعية ، كما أنه يتسق مع طبيعة الواقع الاجتماعى الذى تتفاعل أجزاؤه وعناصره وتنصهر فى بوتقة هذا الكل . ويمثل الكشف عن العلاقات المباشرة وغير المباشرة بين اجزاء البناء الاجتماعى ، أصعب المهام التى يضطلع بها الأنثروبولوجى الاجتماعى .

ومن الأمثلة على ذلك نقول ان النظام الدينى جزء من البناء الاجتماعى وبالتالى تزداد العلاقات قوة بين الدين وبين عناصر البناء الاجتماعى . اذ يحدد الدين نظم الزواج والطلاق والميراث وتربية الأبناء وعلاقة الزوج بالزوجة . كذلك تستمد القيم والفضائل — التى تحكم سلوكنا وتصرفاتنا — من الدين . ويؤثر الدين فى حياتنا الاقتصادية وفى المأكل (الحلال والحرام) ، والمعاملات المالية . .. الخ والخلاصة أن الانثروبولوجى الاجتماعى ينظر للبناء الاجتماعى باعتباره شبكة من العلاقات ، وعليه ضرورة الكشف عن التأثير المتبادل بين عناصر هذه الشبكة (البناء) .

٣ — **البناء الاجتماعى مستقر ولكنه ليس جامدا :** لا يمكن لأى بناء اجتماعى أن يقوم بوظيفته فى الحفاظ على تماسك المجتمع ، الا اذا ظل هذا المجتمع قائما لفترة طويلة من الزمن تكفى لظهور هذا البناء اولا ، وتضمن استمراره ثانيا . ولذلك يستمر المجتمع دهورا ، على عكس ما يحدث للأفراد الذين يكونونه . وقد يتعطل نظام من نظم البناء الاجتماعى فى اثناء الحروب أو الكوارث مثلا ، ولكن سرعان ما يستعيد هذا البناء استقراره وبقاءه . والواقع أن الاستقرار والبقاء لا يعنيان

وضعا جامدا ، وانما يعنيان الحركة والدينامية مثل استمرار البناء العضوى لجسم الانسان ، حيث تتجدد خلاياه باستمرار . ويحدث نفس التجديد للبناء الاجتماعى أيضا حينما يدخله أعضاء جدد (بالولادة أو بالهجرة) وحينما يغادره آخرون أيضا (بالوفاة والهجرة) . ومن ناحية أخرى يتعرض البناء الاجتماعى للتغير ، فتتغير العلاقات الاجتماعية ويتغير المجتمع بحكم العوامل الاجتماعية المختلفة كالتعليم والفروق الجيلية والفروق الريفية الحضرية والطبقة الاجتماعية والانفتاح على العالم الخارجى وأساليب الاتصال ... الخ (٥) .

* * *

ثالثا — تعريف الانثروبولوجيا الاجتماعية :

نحاول فى نهاية هذا الفصل تعريف الانثروبولوجيا الاجتماعية ، بعد أن تناولنا موضوعها فى الفصل السابق . والواقع أن هذا التعريف تحصيل حاصل ، لأننا تكلمنا بالتفصيل عنه فى الفقرات السابقة عندما شرحنا موضوع الدراسة فى هذا العلم .

وتعرف الانثروبولوجيا الاجتماعية عموما بأنها (الدراسة التكاملية المقارنة القائمة على ملاحظة السلوك الانسانى فى مضمونة الاجتماعى) (٦) . فهى دراسة تكاملية لأنها تتبنى المنهج الكلى **Holistic Metbod** الذى يسعى لادراك الاطار الاجتماعى العام الذى توجد فيه الظاهرة ، والاحاطة بالعوامل التى تؤثر فيها وتتأثر بها . وهى دراسة مقارنة **Comparative** بمعنى أنها تدرس النظام القرابى أو الاقتصادى فى مجتمع معين ، ثم تقارن بين هذا النظام ونظيره فى مجتمع آخر ، بقصد الوقوف على مظاهر التشابه

---

(٥) على المكاوى ، (المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعى مع دراسة ميدانية على قرية سيف الدين بمحافظة دمياط) ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٢ ، صص ٣٥٨ — ٣٦١ .

(٦) د. نبيل صبحى ، مصدر سابق ، ص ٣٠ .

وجوانب التباين ، وبالتالى الوصول الى المبادىء العامة أو القوانين التى تحكم هذه الظاهرة . وتتم المقارنة — فى هذا الصدد — بين مستويات مختلفة من المجتمعات البسيطة والبدائية والريفية والحضرية المعقدة . كما أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية دراسة تعتمد على الملاحظة **Observation** لأن الباحث يستمد مادته من الواقع الذى يدرسه بنفسه ويعايشه ويستخدم اللغة السائدة مع ابنائه فى التخاطب . فاذا كان يجهلها فانه يتعلمها مثلما فعل مالينوفسكى **Bronislao Malinowski** فى جزر التروبرياند من عام ١٩١٤ الى ١٩١٨م .

* * *

رابعا — نماذج من دراسات الأنثروبولوجيا الاجتماعية :

نحاول فى هذه الفقرة السريعة تقديم موجز لأهم الموضوعات التى اهتم بها علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، ليلقى الضوء على مجال الدراسة في هذا العلم . وسنلاحظ أن هذه الدراسات قد أجريت على مجتمعات مختلفة من العالم ، وفى موضوعات تنصب على البناء الاجتماعى — كما ذكرنا من قبل — مما يؤكد مرة أخرى على أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية ليست علما مقصورا على دراسة المجتمعات البدائية فحسب . ومن هذه الدراسات ما يلى (٧) :

— مركز الرؤساء فى النسق السياسى الحديث عند الأشانتى **Ashanti** (غرب أفريقيا) .

— تأثير التغيرات الاجتماعية المعاصرة على النظم التقليدية فى مجتمع الأشانتى .

---

(٧) قدم بريتشارد هذه القائمة من خلال ابراز الدراسات التى أجازتها جامعة أوكسفورد فقط فى العقدين الرابع والخامس من هذا القرن . أنظر التفاصيل فى كتابه سابق الاشارة اليه ، ص ٣٣ .

— الوظيفة الاجتماعية للدين فى أحد المجتمعات فى جنوب الهند (مجتمع الكورج Kooyrgs) .

— التنظيم السياسى عند الناندى Nandi (شرق أفريقيا) .

— البناء الاجتماعى فى جاميكا ، مع الاشارة بصفة خاصة الى مشكلة التفرقة العنصرية .

— وظيفة المهر عند بعض المجتمعات الأفريقية .

— دراسة النواحى الرمزية فى السلطة السياسية فى أفريقيا .

— دراسة مقارنة لأشكال الرق .

— التنظيم الاجتماعى عند قبائل ياو Yao فى نياسالاند الجنوبية (أفريقيا الوسطى) .

— نظم ملكية الأرض عند شعوب البانتو Banto فى أفريقيا .

— منزلة المرأة عند البانتو الجنوبيين (جنوب أفريقيا) .

— دراسة نقدية للجزاءات الاجتماعية عند قبائل ناجا Nagas الواقعة على الحدود الفاصلة بين الهند وبورما .

— النسق السياسى عند المورلا Murle (شرق أفريقيا) .

— التنظيم السياسى عند هنود السهول (أمريكا الشمالية) .

— دراسة حالات النزاع التى تنشب على الحدود الفاصلة بين مختلف الممالك عند الاشانتى (غرب أفريقيا) .

— مظاهر المركز الاجتماعى فى ميلانيزيا (فى المحيط الهادى) .

— التنظيم الاجتماعى فى وسط وشرق الاسكيمو .

— الذنوب والخطايا فى القانون البدائى (أندونسيا وأفريقيا) .

وعندما نتأمل هذه الموضوعات نلاحظ ما يلى :

١ — انها لا تتناول موضوعات مثيرة ولا تبحث عن الغرائب أو الأشياء الصارخة الجذابة .

٢ — لا تجنح الى الموضوعات الاثرية او الخيالية ، وانما هى دراسات وبحوث عادية عن البناء الاجتماعى العام ونظمه .

٣ — أن هذه الدراسات تغطى مجتمعات مختلفة تاريخيا وجغرافيا وثقافيا وحضاريا .

٤ — تستوعب الانثروبولوجيا الاجتماعية عددا من الدراسات والموضوعات المتباينة ، كما تستوعب المجتمعات المختلفة على مستوى العالم — كما سبق ورأينا — سواء فى دراسات النظم السياسية والدينية ، أو عن الفوارق الطبقية القائمة على تباين اللون أو الجنس أو المركز وعن النظم الاقتصادية والقانونية والزواجية والتكيف الاجتماعى والتنظيم الاجتماعى أو البناء الاجتماعى كله .

* * *

الفصل الثالث

تاريخ الأنثروبولوجيا الاجتماعية

الفصل الثالث

تاريخ الانثروبولوجيا الاجتماعية

مقدمة :

يمكننا أن نجد قدرا من الاهتمام بدراسة الانسان وثقافاته فى جميع المجتمعات البشرية تقريبا ، ماضيها وحاضرها ، بغض النظر عن مستواها الثقافى . وتعبر الأساطير والحكايات الدينية — خاصة عند الشعوب الأمية — عن هذا الاهتمام ، حيث تصف قصة خلق الانسان ، وتتناول فى بعض الأحيان مغامراته بحثا عن الاستقرار . كذلك قد تصف الاسطورة بعض الانجازات الثقافية البارزة مثل اكتشاف النار ، واختراع أو صناعة بعض الأدوات والفنون المفيدة ، أو البدايات الأولى للتقنيات المختلفة المستخدمة فى إنتاج الطعام (١) .

كذلك خلفت لنا شعوب العالم القديم المتعلمة تراثا شعبيا مشابها لهذا النمط . ومن هذا ما تتضمنه القصص الاغريقية عن أصل النار واصل الزراعة . الا أن الاغريق تجاوزوا القصص والأساطير ، وانجبوا مفكرين خلفوا لنا دراسات وصفية متميزة تشخص ثقافة بعض الشعوب المجاورة وتحدد نظمهم الاجتماعية . ويأتى هيرودوت **Herodotus** على رأس هؤلاء المفكرين فهو أبو التاريخ من ناحية ، ورائد من رواد عصره — فى القرن الخامس قبل الميلاد — من ناحية اخرى (٢) . فقد وصف هيرودوت وسجل لنا ما شاهده أو سمعه عن شعوب عديدة تعيش على شواطىء البحر المتوسط . وسجل كثيرا من الملاحظات التى لاحظها على الشعب المصرى القديم وغيره من الشعوب ، ومحاولته المقارنة بين الشعوب

---

(١) د. محمد الجوهرى ، مرجع سابق ، ص ٤١ .

(٢) لوسى مير ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ، ترجمة الدكتوره علياء شكرى وحسن الخولى ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٨ ، ص ٢٩ .

المختلفة فى بنائها الاجتماعى وفى ثقافتها (٣). كذلك تساءل عن أسباب هذه الاختلافات بين الناس، وتساءل أيضا عن طبيعة البناءات الاجتمـــاعية المختلفة. وعندما رأى دولة غازية تنهزم وتتقهقر أمام دولة أخرى استبسلت ودافعت عن نفسها ودحرت الغزاة، تساءل هيرودوت عن نوعية البنـــاء والتنظيم الاجتماعى فى كل من المجتمعين (الغازى المهزوم والصامد المنتصر) ليفسر أسباب الهزيمة والنصر فى ضوء هذا البناء وذاك التنظيم. ومن ناحية أخرى قدم هيرودوت بعض الفروض عن اللغة الأصلية للانسان. وهكذا تمثل أعماله وأعمال غيره من المفكرين المحاولات الأولية على طريق تأسيس علم الأنثروبولوجيا.

وظل الحال كذلك حتى جاء القرن الخامس عشر الميلادى تقريبـــا، فبدأت تتراكم المعلومات الانثروبولوجية التى جمعهـــا وســـجلها الرحالة والمبشرون والجنود والتجـــار والمكتشفون الجغرافيون وغـــيرهم. وقـــد تضخمت هذه المعلومات الى حد كبير، وامتزج فيها الوصف الدقيق بالتراث الشعبى (الحكايات والأساطير)، كما تعرض جانب كبير منها للتشويه، بسبب ميل الملاحظين — جامعى المادة الانثروبولوجية — الى التعصب فى نظرتهم للشعوب التى يستمدون منها المعلومات، كما غلبت عليهم النظـــرة الذاتية فى الحكم على الشعوب والثقافات الأجنبية. ومع كل هذه التجاوزات فقد ساعدت هذه المادة التى جمعوها على تأسيس علم الأنثروبولوجيا.

* * *

أولا — البدايات الأولى للأنثروبولوجيا الاجتماعية :

يبدأ نسب علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية وأصله فى فرنسا على أيدى مونتسكيو Montesquieu (١٦٨٩ — ١٧٥٥) فى كتابه الشهير روح القوانـــين L'Esprit des Lois الذى وضعه فى عام ١٧٤٨. ويجمـــع الكتاب بين الفلسفة والسياسة والاجتماع. وقد أثار الكتـــاب موضوعات

(٣) د. على المكاوى، المعتقدات الشعبية، مرجع سابق، ص ص ١٨٠ — ١٨١.

هامة آنئذ حول تأثير المناخ فى أخلاق الشعوب والفصل بين السلطات فى الحكومة . والذى يهمنا من هذا كله — بتعبير بريتشارد نفسه (٤) — هو أن مونتسكيو كان يعتقد أن كل شىء فى المجتمع ذاته ، وما يحيط به يرتبط بكل شىء آخر ارتباطا وظيفيا . فلا يمكن فهم القانون الدولى أو الدستورى أو الجنائى أو المدنى لشعب من الشعوب ، الا اذا درست العلاقات بين كل هذه الأنواع المختلفة من القانون ، ثم علاقتها كلها بالبيئة الطبيعية والحياة الاقتصادية وعدد السكان ومعتقداتهم والعرف والأخلاق والأمزجة ... الخ . وبالتالى يتحتم اختبار كل هذه العلاقات المتبادلة التى تؤلف فيما بينها ، ما يسمى بروح القوانين .

وقد ميز مونتسكيو بين البناء الاجتماعى للمجتمع ، ونظام القيم فى هذا البناء . أما البناء الاجتماعى فقد اطلق عليه اصطلاح (طبيعة المجتمع) ويقصد به البناء الخاص المتميز بالمجتمع ، ويسمى المفهوم الثانى — نظام القيم — (مبدأ المجتمع) ويعرفه بأنه الرغبات والأهداف الانسانية التى تدفع البناء الإجتماعى للعمل (٥) .

ثم انتقلت الأنثروبولوجيا الاجتماعية — بعد مونتسكيو — الى مفكرين آخرين أمثال دالمبير D'Alembert وكوندرسيه Condorcet وتيرجو Turgot وعلماء الموسوعات وجماعة الفيزيوقراط ، حتى وصلت الى سان سيمون Saint - Simon (١٧٦٠ — ١٨٢٥) الذى كان أول من طرح فكرة انشاء علم للمجتمع (٦) . وكان سيمون يؤمن بالعلم والتقدم ، حيث كان سليل احدى العائلات الشهيرة فى فرنسا ، وابنا حقيقيا لعصر التنوير . وفوق كل ذلك آمن بضرورة انشاء علم وضعى للعلاقات الاجتماعية التى تماثل — فى نظره — العلاقات العضوية فى الفسيولوجيا .

---

(٤) أنظر التفاصيل فى كتابه سابق الذكر ، ص ٤٥ .

(٥) د. عاطف وصفى ، مصدر سابق ، ص ٢٣ .

(٦) لوسى مير ، مرجع سابق ، ص ٣١ .

وجاء أوجست كونت Auguste Comte (١٧٩٨ — ١٨٥٧) الـذى أطلق اسم علم الاجتماع على العلم الجديد وقتئذ الذى يدرس المجتمـــع . واستمر تيار الفلسفة العقلية يتدفق من فرنسا عن طريق كتابات دوركايم DurKheim وتلاميذه وكتابات ليفى بريل Lévy - Bruhl ، مما كان له أثر قوى على الانثروبولوجيا فى بريطانيا .

أما بدايات الأنثروبولوجيا الاجتماعية فى بريطانيا فترجع الى فلاسفة القرن الثامن عشر الأخلاقيين أمثال دافيد هيوم David Hume (١٧١١ — ١٧٧٦) ، وآدم سميث Adam Smith (١٧٢٣ — ١٧٩٠) . وقد نظر هؤلاء الفلاسفة الى المجتمع على أنه نسق طبيعى Natural System أى ينشأ من الطبيعة البشرية ذاتها وليس من العقد الاجتماعى . ولـذلك انتشرت فى هذه الآونة مفاهيم (الأخلاق الطبيعية) و (الدين الطبيعى) و (الفقه الطبيعى) ... الخ . وســادت الدعوة الى اســتخدام المنهج التجريبى الاستقرائى والتخلى عن المناهج الفلسفية الديكارتية . وكـان الفلاسفة البريطانيون يشبهون الفلاسفة الفرنسيين فى ايمانهم الكامل بتقدم المجتمعات الانسانية ، ولهذا استخدموا المنهج المقارن Comparative Method للوصول الى هذه القوانين .

وقد ظهرت فى هذه الفترة بوادر الاهتمام بالمجتمع البـدائى ، الا أن مصدر المعلومات المتاح لم يتعد العهد القديم والكتابات القـديمة الظنيـة وبعض رحلات الرحالة والكشوف الجغرافية فى القرن الســادس عشر . واتجهت دراسات الأنثروبولوجيا الاجتماعية فى هذا الوقت نحو تصـــوير الانسان البدائى على أنه متوحش وهمجى ، ووضعته على طرفى نقيض مع الانسان المتقدم أو الغربى المتمدن . ولكن الملاحظ على هذه الدراســات أنها تخلو تماما من المناهج الاستقرائية التى نادى بها فلاسفة القرن الثامن عشر ، وتعتمد أساســا على التخمين — أو ما اســماه دوجالد ستيوارت Dugald Stewart بالتاريخ الظنى Conjectural History

أو التاريخ النظرى Theoretical History — وعلى التحليلات الصورية ايضــا .

* * *

ثانيا — نشأة الأنثروبولوجيا الاجتماعية :

بدأ عدد من الباحثين الاوروبيين اجراء دراسات فى الأنثروبولوجيــا — خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر — حول أدوات اشعال النار (عن طريق الاحتكاك) والبقايا العظمية فى أوروبا ، وذلك بالاستفادة من تقدم الدراسـات الجيولوجية وعلم الحفريات القديمة . وكان بوشيه دى بــيرت Boucher de Perthes العالم الفرنسى أول من قرر وجــود الانسان فى أوروبا خلال العصر الجليدى . وقــد عثر فى عام ١٨٣٠ على أدوات حجرية فى وادى سوم Somme ونشر دراساته خلال الفترة مــن ١٨٤٧ الى ١٨٦٤ .

والواقــع أن الفترة التى تمتد من عام ١٨٦١ الى عام ١٨٧١ تمثل فترة نشأة الأنثروبولوجيا الاجتماعية بالفعل ، حيث ظهرت الدراســات المنهجية للنظم الاجتماعية . والتى أجراها باحثون من أنجلترا وفرنســا وسويسرا وأمريكا . وتمثل تلك الدراسات المعالم الرئيسية لهذا العلم ، وســوف تتضح لنا جديتهــا ومنهجيتها حينمــا نتصفح الموضوعات التى تعالجهــا .

ففى انجلترا قدم هنرى مين Henry Maine كتابه عن (القانون القديم) Ancient Law فى عام ١٨٦١ ويعالج فيه النظام القانونى ، وقدم أيضا دراســة أخرى فى عام ١٨٧١ عن (المجتمعــات القروية فى الشرق والغرب) Village - Communities in the East and west

وفى نفس الفترة قدم ادوارد تايلور E. B. Tylor دراسته الرائدة عن (الثقافية البدائية) Primitive Culture فى عام ١٨٧١ (٧) . ومن قبله قدم كتابه

---

(٧) د. أحمد أبو زيد ، تايلور ، سلسلة نوابغ الفكر الغربى ، العدد التاسع ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٣١ — ٣٦ .

(أبحاث فى التاريخ القديم للجنس البشرى) Researches into the Early History of Mankind وفى سنة ١٨٦٥، كذلك ظهر كتاب ماكلينان Maclenan عن (الزواج البدائى) Primitive Marriage فى عام ١٨٦٥ .

ومن العلماء الفرنسيين الذين أسهموا فى نشأة علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية فى هذه الفترة فوستيل دى كولانج Fustel de Coulanges عن (المدينة العتيقة) La Cité Antique فى عام ١٨٦٤ . ومن سويسرا أسهم باخوفن Bachofen بدراسة له عام ١٨٦١ عن (حق الأم) Das Mutterrecht وهى تدخل ضمن دراسة النظام العائلى والزواجى. وقد أسهم بعض العلماء الأمريكيين ايضا فى تأسيس علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية ومنهم لويس مورجان Lewis Morgan على سبيل المثال الذى قدم دراسة عن (أنساق روابط الدم والمصاهرة فى العائلة الانسانية) Systems of consanguinty & Affinity of the Human Family. وذلك فى عام ١٨٧١ ، ويتضح من عنوانه أنه يدور حول النظام القرابى عموما .

والملاحظ أن هذه الدراسات تبنت وجهة نظر اجتماعية خالصة ، وان لم تصدر عن متخصصين فى الأنثروبولوجيا أو الاجتماع . اذ من الواضح أن مورجان وباخوفن وماكلنان ومين كانوا يعملون بالمحاماه . على حين كان فوستيل دى كولانج مؤرخا للعصور الكلاسيكية والوسطى ، بينما كان تايلور متخصصا فى دارسة اللغات (٨) . ومن ناحية أخرى نظر معظمهم الى دراسة المجتمعات البدائية كموضوع جاد يمكن قصر جهودهم واهتماماتهم عليه . كما جمعوا المعلومات العديدة عن هذه المجتمعات من الكتابات المختلفة وأبرزوها كلها فى صورة منهجية منظمة ، وبذلك فقد وضعوا أسس

---

٨) ايفانز بريتشارد ، مرجع سابق ، ص ص ٥٦ — ٥٧ .

الانثروبولوجيا الاجتماعية ، علاوة على أنهم حاولوا تخليص دراسة النظم الاجتماعية من التفكير النظرى ، والاعتماد أساسا على المنهج التجـريبى والمقـــارنة .

واذا نظرنا الى دراسات الانثروبولوجيا الاجتماعية فى مرحلة النشأة خلال القرن التاسع عشر ، وجدنا أنها تتميز باتجاهات جديدة ، أهمهـــا دراسة النظم الاجتماعية من زاوية اجتماعية بحتة اى فى حدود البنـــاء الاجتماعى ذاته ، وليس فى حدود علم النفس الفردى أو المسلمات الفلسفية. ومعنى ذلك أن عالم الانثروبولوجيا الاجتماعية حينما يفسر نظاما من النظم الاجتماعية التى يدرسها ، فانه يفسره بنظام اجتماعى آخر فى داخل البنـــاء الاجتماعى . وعلى سبيل المثال عندما درس ماكلينان نظام الزواج الخارجى Exogamy ، فانه رفض رد تحريم الزواج الداخلى Indogamy أو زواج المحارم الى العوامل والأسباب البيولوجية أو النفسية وانما حاول تفسيره بالرجوع الى ظواهر اجتمـــاعية قائمـــة مثل عادة (واد البنات) وبعض العقائد الطوطمية . وفى نفس الوقت ، حينما فسر طريقة الزواج التى تتمثل فى عمليـــة اختطـــاف العروس ، لم يلجـــأ الى النظريات النفســـية والفلسفية ، وانما أرجعها الى بعض قواعد الزواج (الاكسوجامى) والى عادات متوارثة من ممارسة السبى والاغتصاب فى الماضى . ومن هذا يتضح أن ماكلينان يتبنى نظرية التساند الوظيفى بين النظم الاجتماعية واعتمـــاد بعضها على البعض الآخر . وكان هنرى مين ايضا من انصار هذا الاتجـــاه فى الانثروبولوجيا الاجتماعية حينما اهتم بالترابط بين النظم الاجتماعية . وقد اتخذ من علاقة القانون بالدين والأخلاق ، والآثار الاجتماعية المترتبـــة على التشريعات القانونية فى مختلف العصور نموذجا دالا على هذا الترابط.

ومع كل ذلك ، فان علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية فى القرن التاسع عشر ، لم يعتمدوا على أنفسهم فى جمع المعلومات الاثنوجرافية عن المجتمعات التى يدرسونها ، وبالتالى فلم يستخدموا منهج الدراسة الميدانية ، وانمـــا

اعتمدوا فى بحوثهم وكتاباتهم على أقوال الرحالة ورواد الكشوف الجغرافية ورجال الادارة الاستعمارية الأوروبيين ، ولم يحدث أن ذهب احدهم الى احدالمجتمعات ليجرى فيه دراسة ميدانية بنفسه ويعايش الواقع ويلاحظ الظواهر والعلاقات ويستخرج منها ما يسمى بالأنماط . ونظرا الى أن الدراسة الميدانية هى أساس علم الانثروبولوجيا الاجتماعية فلا يمكن اعتبار القرن التاسع عشر فترة ازدهار أو نضوج هذا العلم . ولعل ابلغ دليل على ذلك أن ايفانز بريتشارد يطلق على علماء هذه الفترة اسم (علماء المقاعد الوثيرة) Armchair Anthropologists ويقصد بذلك أنهم لم يخبروا الواقع ولم يدرسوه عن قرب .

وقد شهدت هذه الفترة مدرستين أو اتجاهين متداخلين وهما المدرسة التطورية Evolutionary School والاتجاه النشوئى Genetic Approach . ولعل سبب التداخل بينهما يرجع الى نوع من الارتباط التقليدى . فاذا كان الباحث مهتما بوضع قانون يفسر به تطور النظام الاجتماعى على مر العصور ، فانه يضطر الى تحديد نشأة هذا النظام نفسه . ولهذا السبب نقول ان دراسات علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية للمجتمعات البدائية خلال القرن التاسع عشر كانت تسعى لاستخدام هذه المجتمعات فى اقامة نماذج افتراضية تمثل التاريخ المبكر للجنس البشرى عامة ، وتمثل نشأة وتطور النظم الاجتماعية على وجه الخصوص . ولم يقتصر هذا السعى على دراسات الانثروبولوجيا الاجتماعية فحسب ، وانما امتد فى كثير من العلوم والمعارف الأخرى كالقانون والاقتصاد والفلسفة واللا هوت ... الخ .

والملاحظ أن انصار (المدرسة النشوئية التطورية) قد ركزوا على نظامين اجتماعيين وهما النظام الأسرى والنظام الدينى . فاذا نظرنا للنظام الأسرى وجدنا هنرى مين يرى أن الأسرة الأبوية الكبيرة Patriarchal Family هى الصورة الأولية للحياة الاجتماعية بصفة عامة ، ولنظام الأسرة بصفة

خاصة . كذلك ذهب الى أن السلطة المطلقة التى كان (رئيس الاسرة الأبوية) يتمتع بها ، هى السبب فى ظهور قاعدة (القرابة عن طريق الأب) Patrilineality — أى الانتساب الى اقارب الأب فقط — فى كل المجتمعات فى مرحلة معينة من تطورها .

أما باخوفن فقد ذهب مذهبا مخالفا — لما رآه مين — حيث اعتبر أن الاباحية أو الشيوعية الجنسية pro-iscuity كانت منتشرة أصلا فى كل مكان ، ثم أعقبها نظام عائلى يقوم على أساس الانتساب الى الأم Matrilineality والخضوع لسلطانها ، ولم يظهر الانتساب الى الأب الا فى مرحلة متأخرة من تاريخ الانسان (٩) .

وجاء لويس مرجان برأى يشابه رأى باخوفن — فى هذا الصدد — حيث حدد حوالى خمس عشرة مرحلة لتطور الأسرة تبدأ بمرحلة الاباحية الجنسية ، وتنتهى بالزواج الأحادى Monogamy اى زواج رجل واحد بامرأة واحدة (١٠) .

وهناك صورة ثالثة لنشأة وتطور النظام الأسرى رسمها ماكلينان باسهاب وخلاصتها ان الانسان الأول كان يعيش حرا طليقا فى جماعات صغيرة تقوم على اساس القرابة الدموية Consanguinity ، ويسودها نظام الزواج الخارجى Exogamy نتيجة لعادات وأد البنات — التى اضطر الرجال حيالها الى الزواج من الجماعات الاخرى — ثم لم تلبث هذه الجماعات أن انتقلت الى نظام تعدد الأزواج للمرأة الواحدة polyandry ثم ظهر الانتساب الى الأم ، فالانتساب الى الأب وبعد ذلك نظام الأسرة الصغيرة — القائمة على الزواج الأحادى — فى الظهور بالتدريج ، حتى

---

(٩) Roger Pearson, Introduction to Anthropology, op. cit., p. 200,

(١٠) Roger Keesing, Culturalnt Ahropology, Op. cit., pp - 219 - 222.

تكونت العشيرة أولا ، اعقبتها الأسرة الكبيرة ثانيـا ، ثم تلتهـا الأسرة الصغيرة فى النهـاية .

لا شك أن هذه الآراء والصور الثلاث متعارضة ، ومتناقضة ، وذلك لأنها لم تقم على أساس واقعى ولا دراسة ميدانية — كما قلنا — لمجتمع فعلى . وبالتالى فهى مجرد تخمينات أو استنتاجات ، قامت على أساس ظواهر اجتماعية من نـوع ما ، أسـماها تايلور (رواسـب أو بقـايا) **Survivals** واطلق عليها ماكلينان (الرموز) **Symbols** والمعنـى المقصود فى الحالتين هو أن هذه الظواهر أو العادات القائمـة فى النظم الاجتماعية الحالية تتميز بأنها لا تؤدى وظيفة **Function** على الاطلاق ، أو تؤدى وظيفة ثانوية . ومن ثم فهى رواسب متخلفة من العصور السابقة، ولذلك فهى تساعد على معرفة نشأة النظم الاجتماعية وتطورها (١١) .

والنظام الثانى الذى دارت حوله اهتمامات علمـاء الأنثروبولوجيـا الاجتماعية فى القرن التاسع عشر ، هو النظام الدينى . وهنـا نقف على نظرية تايلور التى تذهب الى أن الانسان القديم قد لفتت بعض الظواهـر انتباهه مثل الأحلام والرؤى واليقظة والمرض والنوم والموت . واخـذ هذا الانسان يتأملها ويفكر فيها ، واستطاع أن يتوصـل الى مجموعة من العقائد التى تفسرها له ، والى عدة طقوس مترتبة على العقائد . وبالتالى كانت تلك العقـائد والطقوس — تمثل عنـد تايلور — الصـورة الأولى للأديان .

---

(١١) من ذلك مثلا ما يذهب اليه ماكلينان ووليم سميث **W. R. Smith** بشأن الزواج الليفراتى **Levirate Marriage** — أى زواج الرجل بأرملة اخيه — حيث يعتبران أن هذا النظام يدل على وجود نظام الزواج التعددى للمرأة — أى تعـدد الازواج للمـرأة الواحدة فى العصور القديمة للانسانية . أنظر التفاصيل فى :

Roger pearsen. op. Cit . p. 197.

وحول هذا النظام الدينى ايضا تدور نظـرية جيمس فريزر Sir James Frazer (١٨٥٤ — ١٩١٤) ، التى ترى أن المجتمع الانسانى يتطور خلال ثلاث مراحل . المرحلة الاولى هى مرحلة سيطرة السحر على المجتمع ، وفى المرحلة الثانية يسيطر الدين ، أما الثالثة فان التفكير العلمى هو الذى يسيطر على المجتمع اثناءها . وقد قدم فريزر اسهامات عديدة فى مجال الانثروبولوجيا الاجتماعية فى كتابه الموسوعى (الغصـــن الذهبى) The Golden Bough ، حيث ناقش فيـــه الطوطمـيـــة Totemism ومشكلات التابو Taboo ، واصول نظم القرابة ، والزواج فى المجتمعات البدائية ، والمفاهيم البدائية للروح والحياة الأخـــرى . والواقع أن فريزر صاحب الفضل فى تعريف الناس بالانثروبولوجيا بصفة عامة من خـــلال هذا الكتاب ، كما انه حاول الربط بين النظام الدينى وبين باقى نظم البنـــاء الاجتمـــاعى .

* * *

ثالثا — نضج الأنثروبولوجيا الاجتماعية :

تشهد نهـــاية القرن التاســـع عشر مرحلة اســـتكمال مقومات علم الانثروبولوجيا الاجتماعية ، عندما قام بعض الباحثين بتصنيف المجتمعات الانسانية على اساس بناءاتها الاجتماعية بدلا من حضارتها وثقافتها . وكان هذا الاتجاه يفرق بين البناء الاجتماعى ، والثقافة والحضارة ، مما ساعد على التمييز بين الأنثروبولوجيا الاجتماعية وبين الفروع الأنثروبولوجيـــة الأخرى وخاصـــة الاثنوجرافيا والاثنولوجيا . وهنـــا تحـــدد موضـــوع الانثروبولوجيا الاجتماعية بوضوح فى البناء الاجتماعى والعلاقات الاجتماعية، بعيدا عن الثقافة بجميع عناصرها الاجتماعية والمادية والفكرية .

وعلاوة على تحديد موضوع العلم ، فقد تحدد ايضا المنهج الرئيسى فى الانثروبولوجيا الاجتماعية وهو الدراسة الحقلية أو الميدانية Field Study . وكان هادون Haddon أول من طبق هذا المنهج بدقة حينمـــا

رأس بعثة جامعة كمبردج — التى تضم بعض العلماء — لدراسة مضايق توريس Torres Straits فى المحيط الهادى على مدى عامين من ١٨٩٨ الى عام ١٩٠٠ (١٢) . ويعتبر ايفانز بريتشارد هذه الرحلة تمثل نقطة تحول هامة فى تاريخ الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، نظرا لما ترتب عليها من نتائج . وأولى هذه النتائج النظر الى الأنثروبولوجيا الاجتماعية كعلم يحتاج الى التخصص والتفرغ الكاملين . وثانيتها اعتبار الدراسة الميدانية أساسا حيويا لتمرين الدارسين وتكوين العلم ذاته . وثالثة النتائج أن هادون استطاع أن يجذب اليه علماء من تخصصات أخرى ليصبحوا متخصصين فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، ومن هؤلاء ريفرز W. Rivers الذى كان متخصصا فى علم النفس ، وسليجمان Seligman الذى كان متخصصا فى علم الأمراض ، بل أن هادون نفسه قد ترك تخصصه (دراسة الحيوانات البحرية) وتخصص فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية .

والحقيقة أن بعثة هادون لم تكن أول دراسة ميدانية فى مجال الأنثروبولوجيا . فقد كان لويس مورجان أول من قام بدراسة ميدانية على بعض قبائل الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية (١٨٥١) ولكنها لم تترك بصمات بارزة . كذلك سبقت الدراسة الميدانية التى قام بها فرانز بواس Franz Boas بعثة هادون بقليل ، حيث درس بواس بعض قبائل الاسكيمو وبعض قبائل الهنود الحمر (١٩٠١) وان كانت هذه الدراسة تدخل ضمن مجال الأنثروبولوجيا الثقافية أساسا .

* * *

رابعا — التخصص والتوسع فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية :

وتبدأ هذه المرحلة فى تاريخ الأنثروبولوجيا الاجتماعية مع بداية القرن العشرين وحتى نهاية الربع الأول منه تقريبا (١٩٠٠ — ١٩٢٤) . ففى

---

(١٢) روبرت ريدفيلد ، المجتمع القروى وثقافته ، ترجمة الدكتور فاروق العادلى ، الهيئة المصرية للكتاب ، الاسكندرية ، ١٩٧٣ ، المقدمة التحليلية للمترجم ، ص ٨ .

هذه المرحلة حدث التمييز بين الأنثروبولوجيا الاجتماعية وبين الاثنولوجيا والاثنوجرافيا من ناحية أخرى (١٣) . وساد الاتفاق على مفاهيم محددة حول هذه الفروع ، حيث اختصت الاثنوجرافيا بالدراسات الوصفية لثقافة مجتمع ما ، واهتمت الاثنولوجيا أساسا بدراسة ثقافات المجتمعات القديمة، واعادة تركيبها والمقارنة بينها ، على حين تحدد موضوع الانثروبولوجيا الاجتماعية بدراسة البناء الاجتماعي وكما سبق أن أوضحنا .

وقد بدأت ملامح التخصص الدقيق والتوسع في مجال الانثروبولوجيا الاجتماعية مع رادكليف براون Radcliff - B own الذي أجرى دراسته الرائدة على سكان جزر الأندامان The Andaman Islanders بجنوب بورما وتتبع الهند — وقضى في اجرائها عامين من ١٩٠٦ الى ١٩٠٨ . والواقع أن هذه الدراسة الميدانية تصدرت الدراسات الانثروبولوجية الاجتماعية باعتبار أنها محاولة يقوم بها متخصص لفحص النظريات الاجتماعية بالرجوع الى مجتمع بدائي معين ، على خلاف علماء القرن التاسع عشر (١٤) . كذلك فهي تصف الحياة الاجتماعية في مجتمع الأندامان

---

(١٣) الاثنولوجيا هي دراسة الانسان ككائن ثقافي ، وهي الدراسة المقارنة للثقافات بمعنى أنها تقارن بين الدراسات الاثنوجرافية لاعادة بناء ثقافة المجتمعات القديمة . وبالتالي تمثل الثقافة محورا هاما فيها ، وتستهدف الوصول الى معرفة ثقافة الانسان وفهمها . أما الاثنوجرافيا فهي تعنى بالدراسة الوصفية لثقافة مجتمع معين . أي ملاحظة وتسجيل المادة الثقافية من الواقع الحي وعن طريق المنهج الاثنولوجي المعروف . كما تهتم الاثنوجرافيا كذلك بوصف النشاط الثقافي كما يبدو من خلال الوثائق التاريخية . ويلاحظ من ناحية أخرى أن مصطلح اثنوجرافيا تستخدم أحيانا كبديل لمصطلح الاثنولوجيا .

أنظر التفاصيل في :

— هو لتكرانس ، قاموس الفولكلور ، مرجع سابق ، ص ص ١٥ — ٢٢ .

— ايفانز بريتشارد ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ، مصدر سبقت الاشارة اليه : ص ص ٢٠ — ٢٢ .

(١٤) روبرت ريدفيلد ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٩ — ١١ .

بطريقة تبرز مجالات الاتفاق مع النظريات الاجتماعية ، علاوة على أنهـا كانت تتبنى وجهة النظر الاجتماعية البحتة ، على عكس الدراســة التى أجرتها بعثــة هادون على مضــايق توريس وركزت فيهــا على الجوانب النفســـية .

وازدادت ملامح التخصص وتعمقت فى الأنثروبولوجيا الاجتمــاعية على أيــدى برونيز لاو مالينوفسكى B. Malinowski الذى أجــرى دراسة ميدانية على سكان جزر التروبرياند Trobriand بالمحيط الهادى قضى فى اعدادها أربع سنوات من ١٩١٤ الى ١٩١٨ . ويمثل هذا البحث أطول مدة لدراسة مدانية ، وأول دراسة يستخدم صاحبها فيها لغة الأهالى أنفسهم ويخاطبهم بها ويجمع مادته العلمية منهم مباشرة . وبالتالى استطاع أن يبدع فى هذه الدراسة ، فحلل النظم الاجتماعية ، وفهم الحياة الاجتماعية ، وأخرج حولها عديدا من الدراســات المنشــورة التى ســاعدت على نشر الانثروبولوجيا الاجتماعية (١٥) . واستقلالهــا فى الجامعــات الأوروبية والى الآن .

* * *

خامسا — ازدهار الأنثروبولوجيا الاجتماعية :

بدأ ازدهار الأنثروبولوجيا الاجتماعية منذ بداية الربع الثانى تقريبــا من القرن العشرين (١٩٢٤ — ١٩٥٠) وعلى مــداه . ففى هــذه الفترة تميزت الانثروبولوجيا الاجتمــاعية بتطبيق المنهج الأنثروبولوجى واجــراء

---

(١٥) B. Malinowski, Argonauts of the Western Pacific, London. 1622,
- Crime and custom in savage Society, London, 1926.
- Sex and Repression in Savage Society. London. 1927.
- The Sexual life of Savage, London. 1627,
- Coral Gardens and their Magic, London, 1935.

الدراسات الميدانية المتعمقة . ومع بداية عام ١٩٢٤ — رسخت تعاليم مالينوفسكى من ناحية ، كما بدأ هو نفسه تدريب مجموعة من الباحثين على الدراسة الميدانية وفهم قضايا النظرية الوظيفية التى تبلورت معالمها فى دراسته لجزر التروبرياند . وفى عام ١٩٣٧ طور رادكليف براون مناهج معهد الأنثروبولوجيا الاجتماعية بجامعة اكسفورد . وهكذا أسهم العالمان بجهودهما وجهود تلاميذهما فى الدراسات الميدانية على منطقة وسط وجنوب أفريقيا .

الا ان هذه الدراسات الميدانية قد تركزت فى أول الأمر فى جزر ميلانيزيا وبولينزيا (بالمحيط الهادى) ، ثم اتجهت الدراسات بعد ذلك الى بعض قبائل استراليا الأصليين ، والتركيز على دراسة نظم القرابة والطقوس **Rituals** فى المجتمعات العشائرية الصغيرة ، وان أهملت النظام السياسى . ولكن فى عام ١٩٠٩ و ١٩١٠ زار سليجمان السودان ولكنه لم يجر دراسة اجتماعية مركزة . ومع حلول عام ١٩٢٧م ، أجرى ايفانز بريتشارد اول دراسة مركزة على العرافة والشعوذة والسحر بين الأزاندى بالسودان . ومنذ ذلك الحين بدأ الاهتمام بدراسة النظام السياسى للمجتمعات الأفريقية يظهر بوضوح فى دراسات شابيرا **Schapera** فى منطقة بشوانا **Bechana** وفورتيس **Fortes** لبعض قبائل ساحل الذهب ، ونادل **Nadel** لقبائل نوبى **Nupe** بنيجيريا .

ولقد لقيت البحوث والدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية تشجيعا من الحكومة البريطانية وبعض المؤسسات الثقافية الأمريكية فيما قبل الحرب العالمية الثانية ، فازدهرت هذه البحوث وخاصة فى أفريقيا ، حتى ظهرت بشكل مسحى متكامل عن المجتمع الأفريقى . وسميت مجموعة البحوث تلك بالمسح الاثنوجرافى لأفريقيا **Ethnographic Survey of Africa** ويشرف على نشرها المعهد الدولى الأفريقى **International African Institute .**

ولا تزال الانثروبولوجيا الاجتماعية تواصل ازدهارها فى العالم الغربى عامة وفى العالم الثالث على نحو خاص ، بعد أن صارت تخصصا اكاديميا راسخا فى معظم الجامعات ، ومنها الجامعات المصرية على سبيل المثال (*) .

* * *

(*) لا يقتصر تدريس هذا العلم على طلاب اقسام الاجتماع ، وانما يدرسه طلاب قسم علم النفس ، وطالبات المعهد العالى للتمريض بجامعة القاهرة فى مرحلتى البكالوريوس والدراسات العليا على سبيل المثال ، وهذا ما يضطلع به المؤلف منذ عام ١٩٨٧ وحتى الآن

الفصل الرابع

علاقة الأنثروبولوجيا الاجتماعية
بالعلوم الأخرى

الفصل الرابع

علاقة الأنثروبولوجيا الاجتماعية بالعلوم الأخرى

مقدمة :

تعتبر الأنثروبولوجيا العامة علما اجتماعيا تربطه علاقة وثيقة بالعلوم الاجتماعية الأخرى مثل علم الاجتماع وعلم النفس والاقتصاد والسياسة والقانون والتاريخ والجغرافيا . ومع ذلك فليست الأنثروبولوجيا منفصلة أو منعزلة عن العلوم الطبيعية والعلوم الأدبية والفنون . والواقع أن علم الأنثروبولوجيا العامة هو العلم البارز الذى يمثل حلقة الوصل بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية ، كما رأينا ذلك واضحا فى علم الانثروبولوجيا البيولوجية (أو الفيزيقية) ذى الصلة الوثيقة بعلم التشريح وعلم وظائف الأعضاء وعلم الأجنة وعلم الوراثة . فالأنثروبولوجى البيولوجى يعتبر الى حد كبير عالما بيولوجيا يركز اهتمامه على الانسان (1) .

وعلى نفس القدر من الاهمية ، هناك صلة واضحة بين الأنثروبولوجيا من ناحية ، وبعض الدراسات الانسانية من ناحية آخرى كعلم التاريخ ودراسة الأدب ودراسة الفنون ودراسة الموسيقى . فهذه العلوم الانسانية تهتم بفهم وتذوق الثقافات الانسانية المختلفة ، شأنها فى ذلك شأن علوم الاثنولوجيا والأركيولوجيا واللغويات . وبالتالى يمكن القول بأن الأنثروبولوجيا لم تكن لتصل الى ما وصلت اليه من تقدم ، الا بعد أن حققت تلك العلوم الأخرى — الاجتماعية والطبيعية — درجة معينة من النضج والتقدم . وعلى سبيل المثال لم تستطيع الأنثروبولوجيا تكوين فكرة حقيقية عن عمر الانسان وثقافته ، الا بعد أن أمدتنا الجيولوجيا بتقويم زمنى يمكن به قياس عمر الانسان بدقة . وهكذا فان الأنثروبولوجيا تستفيد من تقدم العلوم الأخرى.

---

(1) د. محمد الجوهرى ، مرجع سابق ، ص ٤٥ .

ان تطور العلوم فى مجتمعنا المعاصر يوضح اعتماد الفروع العلمية المختلفة على بعضها ، بحيث أن التقدم العلمى الذى يحدث فى علم من العلوم يمكن أن يفيد منه علم آخر . ولعل الواقع يؤكد لنا هذه الحقيقة ، اذ أن تشابك الظواهر الاجتماعية والطبيعية والثقافية ، وتعقد الحياة وتعدد العوامل المؤثرة فى الظاهرة موضوع الدراسة ، يؤكد أهمية العلاقة بين العلوم المختلفة وضرورتها . وتعتبر الأنثروبولوجيا الاجتماعية نموذجا يجسد وجهة نظرنا . فهى — كفرع علمى متفرع من الأنثروبولوجيا العامة — استفادت من التقدم الذى أحرزته الدراسات الأنثروبولوجية (٢) ، علاوة على أن التغير السريع فى الظروف والأوضاع الاجتماعية فى العالم المعاصر ، تحتم ضرورة التعاون بين الأنثروبولوجيا الاجتماعية والفروع الأخرى من علم الأنثروبولوجيا العامة من ناحية ، وبينها عموما وبين العلوم الاجتماعية التى تشترك معها فى دراسة الانسان من ناحية أخرى (٣) .

* * *

اولا — علاقة الأنثروبولوجيا الاجتماعية بعلم الاجتماع :

كان السير جيمس فريزر من أوائل العلماء الذين ميزوا بين علم الاجتماع باعتباره دراسة المجتمعات الانسانية بواسع معانى الكلمة ، وبين الأنثروبولوجيا الاجتماعية باعتبار انها تدرس الأشكال الأولية البسيطة للمجتمعات الانسانية ، وفى المراحل البدائية من تطورها . وقد أجرى فريزر هذا التمييز فى عام ١٩٠٨ . الا أن الواقع يؤكد من جديد على أن العلمين — الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية — يشتركان معا فى الكثير من مجالات الدراسة ، ولذلك تتزايد بينهما فرص المشاركة فى الوقت الراهن ، لدرجة قد تدعو الى تعيين حدود كل علم منهما والمنهج المستخدم فى دراسة مجال

---

(٢) د. نبيل صبحى ، مرجع سابق ، ص ٥٥ .

(٣) د. على المكاوى ، الانثروبولوجيا الطبية : دراسات نظرية وبحوث ميدانية ، الفصل الاول ، تحت الطبع .

كل علم . ان فحص عالم الاجتماع للمادة التاريخية عن المجتمعات البسيطة وتحليله لها ، قد اثار عدة مشكلات امام علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية تدفعهم لاجراء المزيد من الدراسات والبحوث على النظم الاجتماعية فى المجتمعات البسيطة والمعقدة على السواء . وعلى سبيل المثال فقد تناول ماكس فيبر Max Weber دراسة العلاقة بين النظام الدينى وبين النظام الاقتصادى الراسمالى . واستخدم المادة التاريخية التى قدمها علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلماء التاريخ على السواء ، وقام بتحليلها وتفسيرها وخرج منها بنظريته عن العلاقة بين الدين والاقتصاد (٤) ، وأثار عدة مشكلات اهتم بتناولها علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية معا فى المجتمعات المعاصرة .



والواقع أن علم الاجتماع كان — ولا يزال — ذا تأثير واضح فى توجيه الأنثروبولوجيين الاجتماعيين الى التحليل الوظيفى Functional Analysis . ويتمثل ذلك فى اسهامات هربرت سبنسر H- Spencer واميل دوركايم التى اثرت على مجرى الأنثروبولوجيا الاجتماعية . فكان سبنسر (١٨٢٠ — ١٩٠٣) يسعى لتأسيس علم شامل للمجتمع والثقافة أسماه (بما فوق العضوى) Super Organic حيث كان يشبه المجتمع بالكائن العضوى حتى ساعدت هذه المماثلة — فى علم الاجتماع — على ترويج استخدام مفهوم البناء Struture والوظيفة Function فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية (٥) . وعلى هذا الأساس كان يؤكد فى كل المواقف على ضرورة وجود التساند الوظيفى والاعتماد المتبادل بين النظم الاجتماعية فى كل مرحلة من مراحل التطور الاجتماعى .

---

(٤) د. كمال التابعى ، الاتجاهات المعاصرة فى دراسة القيم والتنمية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، الفصل الثالث والمراجع الواردة فيه .

(٥) ايفانز بريتشارد ، مرجع سابق الذكر ، ص ٨٤ .

أما اميل دوركايم (١٨٥٨ — ١٩١٧) فقد أثرت كتاباته هو الآخر بشكل مباشر فى الأنثروبولوجيا الاجتماعيية ، وخاصة فى تاريخ تطور العلم ، وصياغة النظرية الاجتماعية العامة ، وتطبيق هــذه النظريات بمهــارة واستبصار على دراسة المجتمعات البدائية (٦) . ويظهر ذلك من خــلال كتاباته عن تقسيم العمل الاجتمــاعى ، وقواعد المنهج فى علم الاجتمــاع ، والأشكال الأولية للحياة الدينية ، والانتحار ... الخ . وكان دوركايم يؤكد دائما على تفسير الحقائق الاجتماعية ، بحقائق اجتماعية مماثلة ومن نفس النوع أى كجزء من نسق اجتماعى ، وفى حدود دورها ووظائفها فى المحافظة على النســق الاجتمــاعى نفسه . وهكذا أثر دوركايم فى رائدين من رواد الأنثروبولوجيا الاجتماعية هما رادكليف براون ومالينوفسكى . وبالتــالى ترك بصماته على هذا العلم منذئذ وحتى الآن .

ولهذا وجدنا علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية يتأثرون بعلماء الاجتماع الفرنسيين والبريطانيين — كما ذكرنا — وصاروا يهتمون بالمجتمعات المعاصرة ويوجهون اليها بحوثهم ودراساتهم ، تاركين دراسة الآثار والأنثروبولوجيا الطبيعية (البيولوجية) التى كانت فى ذلك الوقت جزءا من الأنثروبولوجيــا الاجتماعية (٧) . وقــد وســع علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية من دائرة اهتمامهم ونطاق دراساتهم ، فتطرقوا الى موضوعات جديدة ، وقارنوا بين مجتمعات حالية غير صناعية وبين مجتمعات قديمة .

ومن ناحية أخرى فان علاقة الأنثروبولوجيا الاجتماعية بفروع عــلم الاجتماع المختلفة ، هى علاقة تعاون واستفادة متبادلة . فاذا ضربنا مثــلا عن النظام القرابى وكيف تظهر من خلاله علاقات التعاون بين الأنثروبولوجى

---

(٦) لوسى مير ، الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص ص ٤٠ — ٤٣ .

(٧) Roger Pearson, Introduction to Antrhopology. op. Cit, pp. 128 - 132 .

الاجتماعى وبين عالم الاجتماع ، وجدنا أن عالم الاجتماع العائلى يهتم بأنماط الأسر فى المجتمع ، وتأثير انماط الاقتصاد وأنماط المعيشة على أنماط الأسر ومشكلاتها ، وتأثير المجتمع الكبير على التغيرات التى تحدث فى الأسرة ، وكل ذلك على نطاق المجتمع الكبير (٨) . أما عالم الأنثروبولوجيا الاجتماعية فيهتم بالدراسة المتعمقة لطابع العلاقات القرابية السائدة داخل كل نمط من الأنماط ، وارتباط ذلك بالجوانب الاقتصادية والسياسية فى المجتمعات المحلية . وفى المجتمع الصناعى اذا اهتم عالم الاجتماع العائلى بتأثير الصناعة على الأسرة ، فان الأنثروبولوجى الاجتماعى بمنهجه المتميز يمكن أن يركز على فكرة محدودة مثل تغير أدوار الزوجين ، أو نوعية المشكلات الأسرية فى مجتمع محلى تأثر بالصناعة . وبالتالى فان مجموعة الدراسات التى يجريها الأنثروبولوجيون على نطاق الجماعات الصغيرة ، والمجتمعات المحلية يمكن أن تكون ذات أهمية فى توضيح جذور المشكلات والمسائل المتعلقة بموضوعات يهتم بها عالم الاجتماع (٩) .

* * *

ثانيا — علاقة الأنثروبولوجيا الاجتماعية بعلم الاقتصاد :

الواقع أن عالم الاقتصاد يدرس النظام الاقتصادى أساسا ، بما يضمه من مجموعة النظم الفرعية كالانتاج Production والاستهلاك Consumption والتوزيع Distribution والتبادل Exchange . ولذلك فهو يركز على رؤية المشكلات الاقتصادية كجزء من نسق فكرى وسلوكى معزول . وفى نفس الوقت نجد عالم الأنثروبولوجيا الاجتماعية يدرس النظام الاقتصادى فى المجتمعات البسيطة — وفى المجتمعات الحديثة فى الوقت الحالى — باعتباره جزءا من النسق الاجتماعى العام للمجتمع ،

---

(٨) د. نبيل صبحى ، مصدر سابق ، ص ٦٠ .

(٩) **انظر تفاصيل** هذا الموضوع عند كيسنج ، مرجع سابق ، ص ص ٤٦٧ — ٤٧٠ وكذلك هيرسكوفتز ، مرجع سالف الذكر ، ص ص ٥٣٨ — ٥٤٠ .

علاوة على أنه يركز على النظام الاقتصادى ومجموعة النظم الفرعية التي يحتويها ، ويلقى الضوء على علاقتها ببقية النظم الأخرى كالنظام السياسى والنظام الدينى ونظام الضبط الاجتماعى والنظام القرابى ... الخ . ولذلك صرنا نجد فرعا من الأنثروبولوجيا يهتم بهذه الزاوية الاقتصادية ، ويسمى بالأنثروبولوجيا الاقتصادية (١٠). اذن من الممكن أن نجد علاقة بين أى تخصص علمى وتخصص آخر . ولا سيما اذا كانت التخصصات قريبة من بعضها أو على الأقل تشترك فى دراسة الانسان مثلا ، ولكن من زوايا مختلفة . وفى ضوء هذه الفكرة نقول بأن الأنثروبولوجيا الاجتماعية تنطوى على علاقة وثيقة بعلم الاقتصاد ، وهذا ما سنوضحه حالا .

من الملاحظ أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية لم تكن تهتم فى بداية نشأتها بدراسة النظام الاقتصادى . الا أنها فى السنوات الأخيرة — فترة الازدهار والتوسع فى الربع الثانى من القرن العشرين (*) — بدأت تهتم بالدراسات الاقتصادية وبالتالى توثقت العلاقة بينها وبين علم الاقتصاد ، ونمت نموا ملحوظا . وتجدر الاشارة الى أن توثق هذه العلاقة لم يأت من فراغ ، وانما جاء نتيجة طبيعية لاستكمال حلقة فى سلسلة دراسة الأنثروبولوجيا للنظم الاجتماعية عامة ، وللنظام الاقتصادى بنحو خاص . ذلك أن علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية كانوا يدرسون المجتمعات البدائية والبسيطة فى بداية الأمر — كما سبق وشرحنا — ولكن مع حدوث التغيرات الاجتماعية والثقافية فى هذه المجتمعات ، شعروا بأن اطارهم التصورى لم يعد ملائما ، وبالتالى فلا بد من البحث عن اطار جديد أوسع ، وأشمل وأكثر احاطة بالظروف الاجتماعية والثقافية الجديدة . ولهذا رأوا الاستفادة من الاطار الذى يقدمه علم الاقتصاد ، فاستعانوا به مما دعم العلاقة بين العلمين من هذه الناحية .

---

(١٠) أنظر Roger keesing, op, cit., pp, 178 - 204.

(*) راجع الفقرة (خامسا) فى الفصل السابق .

ومن ناحية أخرى لم تقتصر الفائدة على علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية فقط ، بل عمت الفائدة أيضا علم الاقتصاد . ذلك أن علماء الاقتصاد بدأوا يعتمدون على دراسات الأنثروبولوجيين الاجتماعيين حول النظم الاجتماعية والقيم والمعتقدات والأفكار ... الخ ، ويستمدون منها الأساس الفكرى فى تفسير مشكلات النمو الاقتصادى ، ومشروعات التنمية المختلفة وفشل الخطط والبرامج الموجهة للنهوض بمجتمعات أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية . لقد افادت دراسات النظم الاجتماعية — وما يرتبط بها من علاقات وأدوار ومراكز — علماء الاقتصاد فى فهم الأبعاد المؤثرة فى النواحى الاقتصادية فى المجتمعات التى يدرسونها ، ويقدمون لها برامج ومشروعات التنمية الاقتصادية . كذلك اسفرت هذه العلاقات الوثيقة بين الأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلم الاقتصاد ، والتعاون بينهما فى فهم الواقع الاجتماعى والاقتصادى وتفسيره ، اسفرت عن مجالات يشترك العلمان فى تناولها ، بل أدت الى ظهور علم الأنثروبولوجيا الاقتصادية . ولعل دراسة مالينوفسكى عن نظام الكولا Kula فى جزر التروبرياند تمثل أولى المحاولات العلمية التى تدرس النظام الاقتصادى كظاهرة اجتماعية . كما أن الاقتصاد فى المجتمعات البسيطة جزء من العلاقات الدينية والسياسية والقرابية ، ولذلك لا يمكن دراسته بمعزل عن هذه النظم الاجتماعية ، وهذا ما تسعى الأنثروبولوجيا الاجتماعية — والأنثروبولوجيا الاقتصادية — الى تأكيده .

* * *

ثالثا — علاقة الأنثروبولوجيا الاجتماعية بعلم السياسة :

لم يبد علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية فى البداية اهتماما واضحا بالنظام السياسى ولا الموضوعات السياسية البحتة . كما كان تناولهم لها فى البداية سريعا ، وباعتبار أن النظام السياسى جزء من البناء الاجتماعى للمجتمع . الا أن شدة موجات التغير الاجتماعى والثقافى فى هذه المجتمعات جعلتهم يوجهون مزيدا من الاهتمام بدراسة النظام السياسى ، ومزيدا من

الاستفادة بمناهيم ونظريات علم السياسة ، وهكذا تدعمت الصلة والعلاقة العلمية بين العلمين .

والحقيقة أن هـذه العلاقة لم تقم من طرف واحـد فقط ، بمعنى ان الأنثروبولوجيا الاجتماعية لم تكن تعتمد على علم السياسـة ، وتسـتفيد بمفاهيمه ونظرياته وقضاياه دون أن يعتمد عليها هذا العلم . بل سـعى علماء السياسة للحصول على المعلومات الأنثروبولوجية التى جمعهـا الأنثروبولوجيون من المجتمعات البسيطة ، حول نظم الحكم والنسق السياسى عموما ، والعلاقات بين النظام الايكولوجى (البيئى) والنظام السياسى . وكذلك سعى علماء السياسة للتعرف على نظم المجتمعات البسيطة وقيمها ومعتقداتها وتصوراتها حول الحكام وأشكال الحكم الذاتى . وبالتالى لـم يكن أمامهم سـوى المزيد من الاعتمـاد على الدراسـات الأنثروبولوجية الاجتماعية ، ولا شك فى أن هذا الواقع وذاك الطلب المتزايد والمتبـادل ، بين علمى السياسة والأنثروبولوجيا الاجتماعية ، قد ساعد على تـدعيم العلاقة بينهما كما رأينا .

والجدير بالذكر أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية تهتم بدراسة البنـاء الاجتماعى ، وبالتالى فهى تولى النظام الايكولوجى للمجتمع مزيداً من الاهتمام. وفى هذا الصدد تتبع بعض علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية طبيعة العلاقة بين هذا النظام الايكولوجى وبين النظام السياسى . ولعل دراسة ايفـانز بريتشارد عن النوير فى عام ١٩٤٠ (١١) ، مثال على الدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية التقليدية التى يستقى منها علماء السياسة بعض معلوماتهم ، وفهمهم للمجتمعات البسيطة . فالنوير شعب من رعاة الماشية شبه الرحل ، يعيشـون فى السـودان الجنوبى فى اقليم تغطيـه حشـائش السافانا

---

(١١) The Neur,A Disciption of the Meth ds of Livelhood and Political Institutions of a Nilotic People.

انظر التفاصيل فى كتابه الانثروبولوجيا الاجتماعية سابق الذكر ، ص ص ١٥١ — ١٥٢ .

والمستنقعات . ويتألف مجتمع النوير من عدد من القبائل التى لا يجمعها معا أى شكل من الرياسة او اى نظـام قانونى . ولذلك كان البحث عن التكامل القبلى والسياسى مسألة تشغل بال بريتشارد ، فوصـل الى أن بساطة الثقافة المادية جعلت النوير يعتمدون على بيئتهم كلية ، وان الرعى يمثل نظام حياتهم ، ومن ثم تستلزم تلك الظروف القاسية نوعا من التنظيم السياسى الواسع ، حتى يمكنهم الاحتفاظ بأسلوب حياتهم . ويقوم هـذا النظام السياسى على نفس بناء القبيلة . وقد اسـفر التعـاون بين علم السياسة وعلم الأنثروبولوجيا الاجتماعية عموما عن ظهور فرع جـديد يسمى بالأنثروبولوجيا السياسية .

* * *

رابعا — علاقة الأنثروبولوجيا الاجتماعية بالقانون :

تدرس الأنثروبولوجيا الاجتمـاعية مجموعة النظم الاجتمـاعية التى تشكل معا البناء الاجتماعى . ويأتى نظام الضبط الاجتماعى Social Control من بين هـذه النظم الذى يهتم بدراسـته الأنثروبولوجيون الاجتماعيون فى المجتمعات البسيطة والتقليدية . والواقع ان الدراسات التى أجـراها هؤلاء الأنثروبولوجيون على انساق القانون ووسائل الضبط الاجتمـاعى ومقارنتها مع النظم القضائية فى المجتمعات الحديثة الأوروبية والأمريكية ؛ قد اسهمت بشكل مباشر فى مجال الدراسات القانونية المقـارنة . ولذلك صار علماء القانون يهتمون بما تقدمه لهم دراسات الأنثروبولوجيا الاجتماعية حول القانون والضبط الاجتماعى ، وصاروا أكثر ميلا لدراسة القـانون وعلاقته بالعمليات الأخرى للضبط الاجتماعى ، سواء فى الهيئات القضائية الرسمية ، أو فى الواقع الاجتماعى .

والملاحظ أن ميل علماء القانون للاستفادة من حصيلة دراسـات الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، لم يكن وليد الصدفة ، وانما كان رد فعل طبيعيا للاستجابة للواقع الاجتماعى وفهمه . ولذلك استعان هؤلاء العلماء بهـذه

الدراسة الانثروبولوجية . والطريف أن تاريخ الانثروبولوجيا الاجتماعية يحفل باسهامات عديدة فى مرحلة النشأة ، قدمها علماء قانون يهتمون بالانثروبولوجيا الاجتماعية ودراسة المجتمعات البسيطة ، ومنهم هنرى مين Maire المحامى الإسكتلندى مؤسس علم الفقه المقارن فى انجلترا ، وماكلينان Mclennan المحامى الاسكتلندى ايضا ، ولويس مورجان Morgan المحامى الأمريكى ، وغيرهم . وهكذا يمكن القول بأن هؤلاء العلماء يؤكدون فى دراساتهم على الطابع النسقى للقانون بمعنى أن القانون نظام من النظم التى يتكون منها البناء الاجتماعى ، وبالتالى فهو يتفاعل مع هذه النظم فى ضوء علاقة الاعتماد المتبادل والتساند الوظيفى .

ولعل هنرى مين اكثر هؤلاء العلماء القدامى اهتماما بالقانون والمسائل الاجتماعية . فقد اهتم بعلاقة القانون بالدين والأخلاق ، ودرس الآثار الاجتماعية المترتبة على التشريعات القانونية فى مختلف الأحوال التاريخية، وناقش أثر ظهور ونمو روما — كامبراطورية عسكرية — على السلطة القانونية التى كان الأب فى العائلة الرومانية يتمتع بها . كذلك أولى هنرى مين اهتماما خاصا بالعلاقة بين سلطة الأب المطلقة ونظام العصبة ، وانتقال المجتمعات التقدمية من القانون الذى يرتكز على المكانة الاجتماعية الى القانون الذى يقوم على العقد (١٢) .

---

(١٢) يضرب هنرى مين مثالا على الفارق بين المجتمعات البسيطة والحديثة فى مسألة القانون . فالواضح أن الفرد فى المجتمع البسيط يعتبر عضوا أو جزءا فى جماعة قرابية أو سياسية ... الخ ، على حين يتمتع الفرد فى المجتمع الحديث بالفردية على حساب القرابة خصوصا . والمثال يدور حول المسئولية الجماعية فى المجتمع البسيط والمسئولية الفردية فى المجتمع المعقد . فالقاتل تعتبر جريمته فى المجتمع البسيط جريمة موجهة الى الوحدة الاجتماعية التى ينتمى اليها القتيل (عشيرة — قبيلة — عائلة كبيرة) . وهنا يصبح أفرادها جميعا ملزمين بالثأر له . كما أن هذا الثأر قد يؤخذ من أى فرد فى جماعة القاتل وليس من القاتل نفسه .

انظر التفاصيل عند بريتشارد ٥ ص ٥٥ .

خامسا — علاقة الأنثروبولوجيا الاجتماعية بعلم النفس :

تشترك الأنثروبولوجيا الاجتماعية مع علم النفس عموما فى دراســـة مشكلات السلوك البشرى . ومع ذلك فاننا نلاحظ أن علم النفس قـــد ظل لفترة طويلة من تاريخه يقصر اهتمامه على مشكلات السلوك الفردى فى المقام الاول . على حين كان علماء الأنثروبولوجيا يميلون نحو وضع تعميمات عامة وجماعية على الجماعات الانسانية فى ضوء الأسس الثقافية .

والواقع أن العلاقات بين الأنثروبولوجيا وعلم النفس لم تصـــل الى درجة التوثق والعمق ، الا حينما بدأ علماء الأنثروبولوجيا يوجهون اهتمامهم للعلاقة بين الثقافة Culture والفرد (١٣) . حقيقة كانت هناك محاولات الأنثروبولوجيين — خلال بداية القرن الحالى — للاستفادة من علم النفس بطرق شتى ، على اساس اقتناعهم بأن هذا العلم كفيل بتزويدهم بحلـــول مقنعة لكثير من مشكلاتهم دون الالتجاء الى التاريخ الفـــرضى أو الظنى . ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل ، لأنها لم تقم على اســـاس ســـليم . اذ لا يمكن تأسيس علم للأنثروبولوجيا الاجتماعية يدرس العلاقات والنظم الاجتماعية بالاعتماد على علم النفس الفردى . على حين نلاحظ أن علمـــاء الأنثروبولوجيا — والنظرية الأنثروبولوجية عموما — كانوا يخفون تيـــارا من الافتراضات والدعاوى السيكولوجية على مدى القرنين الثـــامن عشر والتاسع عشر على حد تعبير ايفانز بريتشارد . ومع ذلك لم يزعم أحدهم بأنه يمكن فهم العادات والنظم بالاشارة الى المشاعر والدوافع الفردية .

والجدير بالذكر أن علم النفس التجريبى Expermental Psychology لم يكن له وجود فى ذلك الوقت ، حتى أن تايلور Tylor وفريزر Frazer حينما أرادا الاستعانة بعلم النفس فى دراساتهم اتجهوا الى علم النفس الترابطى ، فلما خبا بريق هذا الاتجاه فى علم النفس ، هجروه الى التأويلات

---

(١٣) د. محمد الجوهرى ، مرجع سالف الذكر ، ص ٤٩ .

العقلية الباطلة المستمدة من النظريات الافتراضية عن الطبيعة البشرية .
كذلك تراجع أنثروبولوجيون اجتماعيون كثيرون عن تلك النظريات والتأويلات الباطلة — كما تراجع آخرون من الذين كانوا يعتمدون على علم النفس الاستبطانى Introspective Psychology — ومن هؤلاء ماريت Marett ومالينوفسكى Malcinowski وغيرهما فى انجلترا ، ولوى Lowie ورادين Radin فى أمريكا . وقد تناول بعضهم موضوعات معينة كالدين والسحر M gic والتابو Ta! co والشعوذة Witchcraft (١٤) .

وحاولوا تفسير السلوك الاجتماعى المتعلق بالمقدس Sacred فى ضوء المشاعر أو الحالات الانفعالية مثل الكراهية والجشع والحب والخوف والرهبة والدهشة والاحساس بوجود عالم الغيب والقوى الخارقة للعادة والعجب واسقاط الارادة وما اليها ، ويظهر هذا السلوك فى المواقف التى تتميز بالاجهاد الانفعالى أو التوتر ، ويهدف الى التطهير أو التعويض أو الاستثارة.

وخلاصة القول اذن أن تفسير الحقائق الاجتماعية فى ضوء علم النفس الفردى ليس تفسيرا مقبولا ولا منطقيا لأن علم النفس والأنثروبولوجيا الاجتماعية يدرسان نوعين مختلفين من الظواهر . فالأول يدرس الحياة الفردية أو يمكن تسميته بالأنساق النفسية Psychologic:l Systems والأنثروبولوجيا الاجتماعية تدرس الحياة الاجتماعية أو الأنساق الاجتماعية Social Syst:ms .

* * *

---

(١٤) عن الشعوذة فى الدراسات الانثروبولوجية وكيفية تفسيرها ودراستها فى ضوء البناء الاجتماعى والثقافى ، انظر :

— على المكاوى ، الشعوذة ، الكتاب السنوى لعلم الاجتماع ، العدد الاول ؛ أكتوبر ١٩٨٠ ، دار المعارف ، القاهرة ، ص‌ص ٣٥٧ — ٣٦١ .

— على المكاوى ، المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعى ، مرجع سابق الذكر ، خاصة الباب الاول ، الفصل الثالث ، ص‌ص ١٧٣ — ٢٣٢ . وكذلك المراجع الواردة هناك .

وقد ظهر الاهتمام بمشكلات الافراد فى الانثروبولوجيا فى الوقت الذى كان علماء النفس يركزون فيه على مشكلات السلوك الحيوانى . ونتيجة لهذا ، أخذ الانثروبولوجيون يوجهون اهتمامهم الى المتخصصين فى التحليل النفسى Psychological Analysis والطب النفسى Psychiatry ويستمدون منهم مفاهيمهم النفسية . وما زال هذا الاتجاه واضحا فى الدراسات الانثروبولوجية . ومع انتعاش الاهتمام — من جديد — بمشكلات علم النفس البشرى فى السنوات الأخيرة ، نتوقع مزيدا من التفاهم والتفاعل بين العلمين .

ولعل ثمار هذا التفاهم والتفاعل تتجلى فى اثراء معرفتنا بالنظم الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية من خلال الدراسات التى تقدمها الانثروبولوجيا الاجتماعية عن نظم العائلة والضبط الاجتماعى والقرابة والزواج ... الخ ، فى المجتمعات المختلفة . وانعكس هذا الثراء المعرفى على علم النفس ، حيث تمكن علماء النفس من تصحيح بعض المفاهيم النفسية ، ومراجعة بعض النظريات التى كانت راسخة فى تراث هذا العلم . فنظرية (الغرائز) — التى كانت شائعة قديما فى علم النفس — قوضتها دراسات الانثروبولوجيين والسيكولوجيين الذين تأثروا بهذه الدراسات . ويأتى ستروديبك Strodtbeck فى مقدمة الذين هدموا نظرية الغرائز ، واوضحوا مدى ضحالتها ومبالغتها فى هذه الناحية (١٥) . كذلك دحضت دورثى ايجان D. Eggan مركب اوديب Odiepus Complex من خلال الدراسة الانثروبولوجية الهامة التى أجرتها وقدمتها عن قبائل الهوبى Hobbi فى شمال اريزونا . وهناك — بالاضافة الى ذلك — دراسة مرجريت ميد Margaret Mead عن المراهقة Adolescence فى ساموا

---

(١٥) د. مصطفى سويف ، مقدمة لعلم النفس الاجتماعى ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ص ٦٢ — ٦٤ .

Samoa حيث أبطلت المزاعم المرتبطة بهذه المرحلة فى المجتمعات الحديثة (١٦) . ثم أكدت على أن مشكلات المراهقة — وبخاصة عند الفتيات — التى تعتبر ظاهرة عامة وأساسية فى الحياة الأمريكية ، لا توجد فى مجتمع ساموا ، وأن ظهورها يلازم نوعا معينا من البيئة الاجتماعية . اى انها لا تنشأ عن الطبيعة ، وانما تنشأ عن القيود التى تفرضها الحضارة الحديثة (١٧) . وهنا تدرس ميد الاختلافات القائمة بين الظروف التى تصاحب مراهقة الفتاة فى ساموا وفى أمريكا ، وتتكلم عن الوضع الاجتماعى وطريقة التنشئة ، ونوع الطفولة التى تمر بها والمكانة التى تشغلها فى حياة الأسرة والقرية والمجتمع المحلى الكبير والعلاقات الجنسية ... الخ . ونخلص من كل هذه المقارنات الى أن الفوارق لا تكمن فى عملية المراهقة ذاتها ، بقدر ما تكمن فى كيفية الاستجابة لها .

أضف الى ذلك ، أن دراسة روث بندكت Ruth Benedict على ظاهرة الحرب عند قبائل الاسكيمو ، أبطلت المزاعم النفسية التى كانت تعتبر أن الحرب من الغرائز الفطرية (١٨) . وقد تتبعت بندكت ظاهرة الحرب بالفحص والتحليل ووصلت الى أن الاسكيمو لم يسمع من قبل عن الحرب — كلفظة لغوية — ولم يدركوا معناها أو المقصود منها .

* * *

---

(١٦) د. عاطف وصفى ، الثقافة والشخصية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ص ٤٨ — ٤٩ ، وص ١٥٥ .

(١٧) ايفانز بريتشارد ، مرجع سابق ، ص ١٤٤ .

(١٨) انظر : Margaret Mead, Cultural Patterns and Technical Change, The New American Library, New York, 1955, p.,218. p. 255.

الباب الثانى

(موضوع الأنثروبولوجيا الاجتماعية)

الفصل الخامس : نظام الزواج .

الفصل السادس : النظام الأسرى .

الفصل السابع : النظام القرابى .

الفصل الثامن : النظام السياسى .

الفصل التاسع : النظام الاقتصادى .

* * *

الفصل الخامس

نظـــــــام الزواج

الفصل الخامس

نظام الزواج

مقدمة :

الزواج ظاهرة اجتماعية تلازم أى مجتمع بشرى ، ولا خلاف على وجوده فى كل المجتمعات القديمة والحديثة ، الفقيرة والغنية ، المتخلفة والمتقدمة . إلا أن الخلاف الأساسى يكمن فى كثير من الأمور المرتبطة بالزواج مثل طريقته ، وعدد الزوجات والمراسم والطقوس المتبعة فى إجرائه ، والسن القانونية للزوجين ، والتكافؤ بينهما ... الخ .

والواقع أن الزواج يمثل المقدمة الأساسية لتكوين الأسرة ، وبالتالى فالعلاقة وثيقة بينهما إلى حد كبير . فكلاهما مكمل للآخر ولا تقوم له قائمة بدونه . ومع ذلك الترابط الوثيق ينبغى أن نميز بين كلا النظامين . فالأسرة جماعة اجتماعية تتميز بسكن مشترك ، وتعاون اقتصادى بين أعضائها ، وتكاثر بين الزوجين . اما الزواج فهو مجموعة من العادات تحدد صور العلاقات بين شخصين بالغين يباح الاتصال الجنسى بينهما ، ويدخلان فى الأسرة ، ولا تتكون بدونهما (١) .

وفى المجتمعات البسيطة يتخذ الزواج شكلا معينا يتمثل فى عقد بين جماعة قرابية وأخرى كأن تكون أسرة أو قبيلة كما فى المجتمع البدوى العربى — على سبيل المثال — حيث يتم الاتفاق بين مشايخ القبائل حول الزواج وإجراءاته وموعده وشروطه ... الخ (٢) . وفى ضوء ذلك يمكن الإشارة فيما يلى إلى أهم معايير تصنيف نظم الزواج فى المجتمعات البسيطة ، من خلال دراسات علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية :

---

(١) د. عاطف وصفى ، مرجع سابق ، ص ١٢٥ .

(٢) د. على المكاوى ، الجوانب الاجتماعية والثقافية للخدمة الصحية ، مصدر سابق الذكر ، ص ٢٣٦ .

أولا : عدد المشتركين فى علاقة الزواج .

ثانيا : نظم السكن بعد الزواج .

ثالثا : نظم اختيار شريك الحياة الزوجية .

رابعا : من يختار شريكة الزواج .

خامسا : طرق الزواج .

سادسا : مدى قوة علاقة الزواج .

* * *

أولا — عدد المشتركين فى علاقة الزواج :

أكدت دراسات علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية على وجود اختلافات بين المجتمعات البسيطة التى درسوها فيما يتعلق بالزواج ، وعدد المشتركين فيه . وعلى هذا الأساس اجروا تصنيفا للنظم المختلفة المتبعة فيه ، كما يلى :

١ — نظام الزواج الاحادى Mongamy :

وخلاصته أن يتزوج رجل واحد بامراة واحدة . ومعنى ذلك وجود نظام وحدانية الزوج ووحدانية الزوجة ، وان علاقة الزواج هى علاقة تجمع بنهما فقط . ويتميز هذا النظام بانه منتشر فى جميع انحاء العالم ، وفى مختلف المجتمعات البشرية البسيطة والمركبة على حد سواء .

٢ — نظام الزواج التعددى Polygymous :

وهو نظام يتضمن علاقة زواجية بين رجل واحد واكثر من زوجة ، ويتضمن كذلك علاقة زواجية بين امراة واحدة واكثر من زوج (*) .

والواقع أن النظام الأول اى تعدد الزوجات — أو النظام التعددى

(*) نظرا لندرة هذا النظام من الزواج ، حاولنا استبعاده ، وركزنا فقط على نظام الزواج التعددى للزوجات (تعدد الزوجات) Polygymy .

الزوجات — هو النظام الأوسع انتشارا فى المجتمعات البشرية . على حين يتضاءل وجود النظام الثانى أو يندر كما سبق أن أوضحنا .

* * *

ثانيا — نظم السكن بعد الزواج :

لا يقتصر الاختلاف بين المجتمعات البشرية على عدد المشتركين فى علاقة الزواج فحسب ، بل يمتد ليشمل نظم السكن (مكان الإقامة) بعد الزواج . والملاحظ ان الدراسات الأنثروبولوجية تستفيض فى وصف وتصنيف هذه النظم المختلفة للسكن ، وسوف نشير إلى معظمها عند الحديث عن الأسرة الممتدة فى الفصل القادم . ولكننا سنحاول الآن تقديم نبذة سريعة عن أهم هذه النظم فى الفقرات التالية :

١ — نظام السكن مع أسرة الزوج Virilocal وفى هذا النظام تنتقل الزوجة للإقامة مع أسرة الزوج بعد إجراء طقوس ومراسيم الزواج . ويحظى هذا النظام بالانتشار فى معظم المجتمعات البشرية (٣) .

٢ — نظام السكن مع أسرة الزوجة Uxorilocal وفى ضوء هذا النظام ينتقل الزوج للإقامة مع أسرة زوجته بعد إتمام اجراءات الزواج . ولكن لا يتمتع هذا النظام بالانتشار الذى يتميز به النظام السابق . ويحاول بعض علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية إرجاع هذا النظام إلى المجتمع الأمومى الذى ينتسب فيه المرء لأمه (٤) . ولكننا لا نميل إلى هذا الرأى .

٣ — نظام حرية اختيار السكنى مع أسرة الزوج أو مع أسرة الزوجة Bilocal ومعنى ذلك أنه لا إلزام على الزواج أو على الزوجة

---

(٣) انظر Roger Pearson, op. Cit., p. 191.

(٤) ايفانز بريتشارد ، مرجع سابق ، ص ١٠٦ .

بالإقامة عند أسرة أى منهما ، وإنما يترك أمر تحديد مـكان الإقامة لظروفهما الخاصة ولقرارهما .

٤ — نظام السكنى مع أسرة خال الزوج **Avunculocal** وهو نظام نادر الوجود فى المجتمعات . وقد حدد ميردوك نسبة انتشار هـذا النظام بين عينة المجتمعات المائتين والخمسين التى درسها ، بحوالى ٧ر١ ٪ ، ويرى أن أبناء الأخت يتركون بيتهم ويلجأون إلى بيت خالهم ويتزوجون إحدى بناته ، وبالتالى يقيمون مع أسرة الخال (٥) . والواقـع أن بعض الأنثروبولوجيين يحاولون إلصاق هذا النظام بانتشـار الأسرة الأمومية ، وسير النسب فى خط الإناث ولكنه — كما قلنا فى موضـع سابق — رأى مبالغ فيه ولا توجد شواهد دالة عليه .

٥ — نظام عدم التقيد بمكان معين ، **Neolocal** للسكنى بعد الزواج . والواقع أن هذا النظام يقترب إلى حد كبير من نظام حرية اختيـار السكنى مع أسرة الزوج أو مع أسرة الزوجة (٦) . ولكن الفارق هو أن حرية الاختيار ضيقة وتقتصر على بديل واحد ، إما الإقامة مـع أسرة الزوج ، وإما الإقامة مع أسرة الزوجة . على حين أن النظام الحالى — عدم التقيد بمكان معين — بحوى حرية كاملة للزوجين فى اختيار مكان الإقامة ودون التقيد بأسرتيهما الأصليتين .

* * *

ثالثـا — نظم اختيار شريك الزواج :

وضع المجتمع عديدا من النظم الاجتماعية التى تقدم حلولا جاهـزة لأعضائه ، وتحدد لهم ما ينبغى فعله وما ينبغى هجره . والملاحظ أن هـذه النظم تسعى لتدعيم بقاء المجتمع واستمراره فى الوجود ، كما تحافظ على

---

(٥) د. عاطف وصفى ، مصدر سبقت الاشارة اليه ، ص ١٠٤ .

(٦) Roger Pearson, op - Cit., pp 192 - 193.

تحقيق التكامل والضبط الاجتماعيين . ومن اهم النظم التى وضعها المجتمع لاختيار شريك الزواج ما يلى :

١ — نظام المحارم Incest Taboos : وهو النظام الذى يحظر عملية الزواج من أشخاص أو فئات أو مجتمعات معينة بسبب بعض الاعتبارات الدينية أو القرابية ... الخ . والجدير بالذكر ان هناك اختلافا واضحا بين المجتمعات البشرية حول نطاق المحارم الذى تفرضه . ولعل اضيق نطاق هذه المحارم هو تحريم الزواج بين الشخص واصوله (والديه) ، وفروعه (اطفاله) وإخوته . وهو نظام عالمى تطبقه كل المجتمعات البشرية ، البسيطة منها والمعقدة على حد سواء . والواقع ان الأديان السماوية جميعها هى التى وضعت هذا النظام ودعمته (٧) ، كما ان المذاهب الدينية الوضعية فى المجتمعات البسيطة هى الاخرى صارت تأخذ بهذا النظام . ولذلك يسود الزواج من خارج دائرة القرابة بعيدا عن الأصول والفروع ، ويسمى بالزواج الخارجى فى هذه الحالة Exogamy (٨) .

٢ — اختلاف الطبقة او الدين او المركز الاجتماعى :

تحدد القواعد والمعايير الاجتماعية فى كل المجتمعات البشرية ضرورة زواج الشخص من داخل فئة معينة Endogamy . ولكن موضع الاختلاف بين هذه المجتمعات يكمن فى تحديد الفئة المعينة والوزن النسبى الذى تحتله كل فئة من فئات المجتمع . وقد تكون هذه الفئة هى العائلة الممتدة (الكبيرة) مثل زواج ابناء العمومة وابناء الخئولة . كما قد تكون القبيلة التى ينتمى

---

(٧) د. عبد السلام الترمانينى ، الزواج عند العرب فى الجاهلية والاسلام ، عالم المعرفة ، العدد ٨٠ ، المجلس الوطنى للثقافة ، الكويت ، اغسطس ١٩٨٤ ، ص ص ١٠١ — ١١٦ .

(٨) Roger Keesing, Cultural Anthropology, op. Cit., pp. 262 - 263.

اليها الشخص هى الفئة المطلوبة ، ولذلك يسود هنا الزواج من داخل القبيلة او فى حدود القبيلة (٩) .

كذلك قد تكون الجماعة الدينية او المجتمع القومى (الأمة) او الطبقة الاجتماعية هى هذه الفئة التى يحض المجتمع ابناءه على الزواج منهـا . أضف إلى ذلك أن هناك بعض المجتمعات لاتحبذ الزواج من الأوروبيين ومنها مثلا المجتمع المصري والمجتمعات البسيطة والبدائية فى افريقيـا . كذلك نلاحظ مثلا تفضيل بعض ابناء السودان للزواج من مصر .

وتجدر الإشارة إلى أن العرف والعادات والتقاليد المصرية تؤكـد على ضرورة زواج الإنسان من نفس طبقته الاجتماعية ومن نفس بنى ديانته وعقيدته . ولذلك تذهب الأمثال الشعبية إلى ضرورة مراعاة هذه القواعد والمعايير الاجتماعية حرصا على نجاح الزواج واستمراريته . فبالنسـبة للزواج من نفس بنى الديانة والعقيدة يقول المثل (إللى يجوز (يتزوج) من غير ملته ، يموت بعلة (بمرض) غير علته) أى أن الشخص الذى يتزوج بامرأة لا تنتمى إلى نفس ديانته ، فإن هذا الزواج يصيبه بأمراض وازمات لا يمكن أن تصيب زميله الذى تزوج بامرأة من نفس ديانته .

* * *

رابعا — من يختار شريكة الزواج :

مثلما اختلفت المجتمعات البشرية حول نظم السكن بعـد الزواج ، واختيار شريك الزواج ، وعدد المشتركين فى علاقة الزواج ، فإنها تختلف أيضا فى تحديد الشخص او الأشخاص الذين يختارون الزوجة المسـتقبلية لفرد ما فى الجماعة . ولذلك تواجهنا مجموعة من النظم ، التى تحدد أطراف الإختيار ، توصل إليها علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية من واقع دراساتهم

---

(٩) د. على المكاوى ، الجوانب الاجتماعية والثقافية للخـدمة الصحية مرجـع سـابق ص ص ٢٣٥ — ٢٣٦ .

الميدانية للمجتمعات البسيطة والبدائية فى مناطق عديدة من العالم . وتتمثل أهم النظم فيما يلى (١٠) :

١ — **الوالدان والأقارب** : يتولى الوالدان والاقارب عموما عملية اختيار شريكة حياة الإبن ، ولا تتاح الفرصة له ليقوم هو بالاختيار . ويسود هذا النظام فى المجتمعات البسيطة على السواء حيث يشترك الأبوان مع الاقارب من الاعمام والأخوال أو العمات والخالات أو الأجداد والجدات ... الخ ، فى اختيار زوجة للإبن . ومرد ذلك إلى أن هذا الإبن يعيش مع الأسرة الممتدة الكبيرة ، فعليه أن يعمل ، عليها أن تتكفل بالإنفاق عليه وعلى زواجه وعلى زوجته وأبنائه من بعد .

أما فى المجتمعات الريفية ، يقوم الوالدان أو احدهما باختيار زوجة لإبنها الذى يعمل غالبا بالزراعة ولم يتعلم ، على حين لا يسود هذا النظام فى المجتمعات الحضرية الصناعية الحديثة ، لأن الإبن يتعلم ويعمل ويستقل اقتصاديا ومعيشيا إلى حد كبير ، وبالتالى يكون الاختيار راجعا إليه هو .

٢ — **العلاقات القرابية المحددة** : يحتم المجتمع على الشباب فى بعض الأحيان الزواج من إبنة الخال (زواج ابناء الخئولة) ، بينما يحتم فى مجتمعات اخرى — زواج ابناء العمومة ، حيث يتزوج الشاب إبنة عمه . والملاحظ على المجتمعات الريفية — فى مصر على سبيل المثال — أن زواج الاقارب بشقيه (العمولة والخئولة) كان منتشرا إلى حد كبير قديما ، ثم انخفض معدله فى الوقت الراهن . كذلك كان ريف صعيد مصر يحتم زواج ابناء العمومة . فإذا تقدم شخص من خارج الجماعة القرابية وطلب الزواج من بنات الأسرة ، فإن اباها لا يوافق الا إذا سأل إبن عمها . فإن تنازل ابن العم عن الزواج من ابنة عمه

---

(١٠) د. عاطف وصفى ، مرجع سابق ، ص ١٢٠ .

قبلت الأسرة زواجها من الغريب . وإن تمسك إبن العم ، رفضت الأسرة زواج الإبنة من الغريب . إلا أن هذه العادات الزواجية قد تغيرت فى الوقت الحالى . أما فى المجتمع البدوى المصرى فإن الزواج قرابى من نفس القبيلة . ويرجع ذلك إلى اختيار شيوخ القبائل لزوجات أبناء القبيلة . وغالبا ما يكون الإتفاق على الزواج — وشروطه وتكاليفه وجزاءات طلب الطلاق ... الخ — بين هؤلاء الشيوخ وليس بين الشاب والفتاة . ويسمى هذا الزواج (بزواج الاقصولة) أو (الأصلة) حسب اللهجة المحلية فى بدو مركز الصف مثلا (١١) ، ومعناها الزواج القائم على (كلمة الشرف) بين شيوخ القبائل .

والواقع أن هذا النظام يسود أيضا بين القبائل البدوية فى شبه الجزيرة العربية ، حيث يلعب العامل القرابى دوره فى اختيار زوجة الإبن . ولذلك نجد فى المجتمع السعودى مثلا أن والدة الشاب تختار له الفتاة التى يتزوجها من بين الأقارب أو غيرهم ، وتذهب إلى أسرتها لتتفق معها ثم تخبر الشاب ووالده بنتيجة الزيارة والاختيار ، لتذهب كوكبة بعد ذلك من رجال الأسرة — الأعمام والأخوال والإخوة الكبار ... الخ — إلى أسرة الفتاة للإتفاق على الزواج (١٢) .

٣ — **الخاطب أو الخاطبة** : وهو نظام يسود فى كثير من المجتمعات الريفية حيث تقوم امرأة — معروفة للمجتمع المحلى — بتعريف الفتى طالب الزواج بعدد من الفتيات ليختار منهن عروسا له . وفى بعض الأحيان

---

(١١) د. على المكاوى ، الجوانب الاجتماعية ... ، مرجع سابق ، ص ٢٢٦ .

(١٢) د. على المكاوى ، (الثبات والتغير فى العادات والتقاليد والمعارف الشعبية مع الاشارة الى مجتمع الخليج) ، بحث مقدم الى ندوة (التخطيط لجمع ودراسة العادات والتقاليد والمعارف الشعبية) المنعقدة بمركز التراث الشعبى لدول الخليج من ١٣ — ١٧ يناير ١٩٨٥ ، الدوحة : ص ص ١٩ — ٢٥ .

يقوم رجل بهذه الوساطة للتوفيق بين شباب وفتاة بالزواج . وغالبا ما يكون هذا الرجل زعيما للجماعة أو رجل الدين فيها ، أو يمارس مهنة يطلع من خلالها على خبايا البيوت كالحلاق مثلا فى المجتمعات الريفية .

٤ — الشخص الراغب فى الزواج : ويسود هذا النظام فى المجتمعات المتقدمة ، حيث يتولى الشاب الراغب فى الزواج ، إختيار شريكة حياته بنفسه . وقد يتفق معها على الزواج بعد مناقشتها فى كل التفاصيل ، وبعد ذلك تخبر أسرتها ، وتحدد موعدا له للزيارة والإتفاق مع الأب والأم على الزواج . فإن قبلت الأسرة دعا الفتى أسرته للإتفاق مع أسرة العروس وإتمام الإجراءات والطقوس المتبعة. والواقع أن نظام المبادرة الشخصية للزواج يزداد انتشاره فى المجتمعات الريفية والبدوية فى الوقت الراهن ، وذلك بسبب زيادة معدلات تعليم البنات واشتغالهن ، وزيادة فرص الاحتكاك بينهن وبين زملائهن الشباب فى مجال التعليم والعمل . وقد أدى ذلك كله إلى انفراد الشباب راغب الزواج بقرار الاختيار (ذكرانا وإناثا) ، حتى وصل الأمر فى بعض الأحيان إلى إتمام زيجات رغما عن الأهل .

* * *

خامسا — طرق الزواج :

هناك مجموعة من النظم التى تحدد الطريقة التى يتم بها الزواج ، وهى طرق تختلف بالقطع من مجتمع بسيط إلى مجتمع مركب ، ومن مجتمع متقدم إلى مجتمع متخلف . وقد جذبت هذه الطرق اهتمام الباحثين فى علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية فى المجتمعات البدائية ، إبان القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين . ولذلك اجروا المزيد من الدراسات الميدانية على هذه المجتمعات ولا سيما المجتمعات الأفريقية — وقدموا لنا عدة تصنيفات لطرق الزواج ، بعضها منتشر فى معظم انحاء العالم ، والبعض

الآخر يغلب على منطقة معينة ، والبعض الثالث يندر وجوده أو يوجد في مجتمع بدائى واحد فقط ... الخ . غير أن هذه التصنيفات ليست جميعها محل تسليم ، وإنما لعب الخيال ببعض أصحابها فهاموا في تفسيراتهم لطرق الزواج ، وفى تعميم هذه الطرق ، وذهبوا فى التأكيد على واقعيتها مذاهب شتى . وعلى أية حال ، فقد قدم هؤلاء الباحثون التصنيف التالى لطـرق الزواج (١٣) :

١ — **طريقة تقديم مهر العروس وأهلها Bride - Price** : وهى طريقة تعنى تقديم المهر لأسرة العروس . وتنتشر هذه الطريقة عنـد معظم المجتمعات البسيطة فى أفريقيا كما أوضحنا من قبل . إلا أن هـذا لا يمنع وجود بعض التباين بين المجتمعات الأفريقية نفسها فى صورة تقديم المهر وحجمه وأسلوب تقديمه ... الخ . ويرى بعض علمـاء الأنثروبولوجيا الاجتماعية أن هذا النظام ينتشر فى ٧٠٪ من هـذه المجتمعات . وقد فهم الأوربيون والمبشرون فى المجتمعات الأفريقية أن المهر نوع من الشراء ، وأن الفتاة تباع مقابل رؤوس الماشـية التى يتكون منها المهر (١٤) . وسمى المبشرون وبعض البـاحثين المهـر Bride - Price أو Bride - Wealth خطيئة شراء الزوجات Sin of Bying Wives . غير أن معظم الدراسات الأنثروبولوجية الميدانية على هذه المجتمعات ، كشفت النقاب عن أهمية المهر والقته

---

(١٣) د. عاطف وصفى ، مرجع سابق ص ص ١٢٩ — ١٣٢ .

(١٤) تمثل الماشية أفضل مهر يقدم للعروس . وتقاس قيمة المهر بعدد رؤوس الأبقـار المقدمة . وعند مناقشة هذا الموضوع مع طالبة من قبائل الشيلوك بأعالى النيل بالسـودان تدرس بجامعة أم درمان ، أكدت على أن بعض الشباب يقدم مهره مالا ، فـلا يقبل منـه ، ويضطر الى شراء الابقار لتقبلها أسرة العروس وقد تكون القيمة النقدية للمهر أعلى بكثير من الابقار . انظـر :

د. على المكاوى ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ١١٤ .

الضوء على الوظيفة الحيوية التى يضطلع بها فى استقرار الحياة الاجتماعية واستمرارها (١٥) . حيث اوضحت أن المهر لا يختلف عن (الدوطة) — وهى مبلغ من المال تقدمه أسرة العروس للعريس — فى المجتمعات الأوروبية ، وبالتالى لا يتضمن المهر شراء للزوجة ، ولا إنتقاصا من امرها ، ولاانتها كا لآدميتها . فالمهر يضمن جدية العلاقة الزواجية فى الحياة الاجتماعية ، ويؤكد استمرارها ، واستقرار الأسرة نتيجة لذلك . والواقع ان حكومات المستعمرات حرمت هذا النظام ، فتفككت روابط الزواج ، وتصدعت العلاقات العائلية ، وانحرفت النساء — وهو الأمر الذى كان التحريم يقصد منع وقوعه — وهنا تراجعت الحكومات فى قرارها بعد ان أوضح الأنثروبولوجيون اهمية وظيفة المهر فى حياة المجتمع (١٦) .

والواقع ان الزواج فى المجتمعات البسيطة لا يعد من شأن العروسين بقدر ما يخص اهلهما . فأهل العريس يقومون متعاونين بجمع المهر ، وتقديمه لأهل العروس . ولا ريب أنه يختلف فى قيمته بالقطع تبعا لاختلاف المركز الاجتماعى لأهل العروس فى المجتمع . اما موضوع الاختلاف الأكبر بين المهر فى المجتمعات البسيطة والمجتمعات المتقدمة او المركبة ، هو ان المهر يوزع على عدد كبير من اقارب العروس ، على حين يعود المهر والدوطة فى المجتمعات المتقدمة على العروسين نفسهما فى صورة تجهيز عش الزوجية الجديد . وهكذا يلعب المهر والدوطة فى تلك المجتمعات دورا اقتصاديا واضحا .

٢ — **طريقة العمل عند أهل العروس** : وفى ضوء هذه الطريقة يقوم الشاب

---

(١٥) ايفانز بريتشارد ، مرجع سابق ص ١٧١ .

(١٦) Lucy Mair, An Introduction to Social Anthropology, Oxford Univ. Press, Oxford, 1968, pp. 254 - 255.

الراغب فى الزواج بالعمل عند اسرة عروس المستقبل ، لفترة من الزمن حسب الاتفاق بين الطرفين . وقد اوضح ميردوك ان هذا النظام يوجد فى ١٢٪ من المجتمعات التى تدخل ضمن عينة دراسته (٢٥٠ مجتمعا) . ويمكن ان تكون هذه الطريقة الوسيلة الوحيدة — فى بعض المجتمعات — للزواج ، وفى بعضها الآخر يستخدم هذا النظام عندما لا يملك العريس قيمة المهر ، فيعمل لدى اسرة العروس بما يساوى قيمة المهر (١٧) .

٣ — **طريقة خطف العروس :** وهى طريقة نادرة الحدوث فى المجتمعات البسيطة ولها سياق خاص وردود انفعال خاصة أيضا . وقد اعتبر أحد علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية — ماكلينان — هذه الطريقة بمثابة الصورة الأولى للزواج فى المجتمعات البدائية ، والأصل الذى تطورت منه النظم الاخرى . ولكن هذا الرأى غير واقعى ويمثل نوعا من الشطط . وإن كان أصحابه استخلصوه من نتاج ما يرونه من عنف فى طقوس الزواج عند بعض المجتمعات البدائية . والواقع أن الزواج فى بعض مجتمعات صعيد مصر يتضمن طقوسا ترمز لعملية الخطف حيث ينقسم الجمهور الى جماعتين تقوم بينهما معركة صورية يمثلونها، وتنتهى بأن يخطف العريس عروسه على ظهر حصانه أو بعيره ويهرب بها من وسطهم . وقد تكون هذه الدراما الشعبية رمزا لمظاهر العداء القديم الذى كان يسود قديما بين العشائر والقبائل عادة . ومن ناحية أخرى كانت هناك صورة مماثلة بين القبائل العربية فى العصر الجاهلى — على سبيل المثال ولكنها وعموما واقعية — حيث تشتد أوار الحرب بين قبيلتين ، فتسبى رجال القبيلة المنتصرة نساء القبيلة المغلوبة ويتزوجونهن . وليست الصورة السابقة قاعدة أو نمطا من انماط أو طرق الزواج ، ولكنها كانت تمثل حالات فردية .

---

(١٧) د. عاطف وصفى ، مرجع سابق ، ص ١٣٠ .

٤ — **طريقة الميراث** : وهى طريقة من طرق الزواج كانت تسود المجتمعات البسيطة ، وتحتم ان يرث الرجل زوجة أبيه او زوجة اخيه المتوفى . ويسمى هذا النظام بالزواج الليفراتى Leviratic Marriage (١٨) ويوجد فى المجتمعات البسيطة [illegible] ولا يزال يوجد فى كثير من المجتمعات الزراعية ، حيث يتزوج الأخ أرملة أخيه حفاظا على الأبناء وتربيتهم مع العم ، وضمانا لاستمرار الأرملة مع الأسرة ، بزواجها من [illegible] زوجها . وتمثل هذه الطريقة نوعا من التكامل الاجتماعى ، ويزداد معدل انتشارها فى أثناء الحروب والكوارث .

٥ — **طريقة الهرب** : وهى تعنى إنسحاب الفتى والفتاة — اللذين يرغبان فى الزواج ضد من المجتمع الذى ترفض تقاليده زواجهما ويهربان إلى مجتمع آخر ، حيث يتزوجان بلا معارضة من أحد أو خضوع لتقاليد يصعب تغييرها . ويندر هذا النظام فى المجتمعات البسيطة ولكنه ينتشر — بل يتزايد — فى المجتمعات المتقدمة والحديثة ، حيث تهرب البنت مع الشاب ويتزوجان رغما عن التقاليد بعيدا عن الأهل وبدون موافقتهما . والواقع أنه نظام سلبى ويسىء للقيم والعادات والتقاليد . والأجدى من الهرب ، هو أن نواجه الواقع ونتحاور معه ، بعقل يفكر ويد تعمل ، وليس بمنطق المراهقة والرومانسية الحالمة .

* * *

---

(١٨) ينسب هذا الاسم الى كلمة **Levirat** التى تعنى الخلافة ، وهى تشير الى اعتبار الزوجة من جملة المال الموروث . والزواج الليفراتى فى مجتمعاتنا العربية الاسلامية لا يحمل هذا المعنى الحرفى ، وانما يشير الى مدى قوة العلاقات القرابية اصلا فى نطاق الاسرة . انظر :

د. عبد السلام الترمانينى ، الزواج عند العرب فى الجاهلية والاسلام ، مرجع سابق ، ص ص ٣٢ ، ٣٣ .

سادسا — مدى قوة علاقة الزواج :

لا شك فى ان مدى قوة علاقة الزواج تختلف من مجتمع إلى آخـــر . فالمجتمعات البدائية التى لا تعطى اهمية كبيرة للعلاقات العاطفية بين الشاب والفتاة قبل الزواج ، لا تنظـــر للزواج على انه عـــلاقة أبدية بين الزوج والزوجة . وعلى هذا تبيح غالبية هذه المجتمعات البدائية الطلاق . ويرجع هذا الراى للدراسة المقارنة التى اجراها هو بهوس Hobhouse على ٢٧١ قبيلة من القبائل البدائية ، حيث وجد ان ٤٪ فقط منها تمنع الطلاق ، وتجعل الزواج علاقة وثيقة وابدية تستمر مدى الحياة . أما الغالبية العظمى من هذه القبائل ، فهى تبيح الطلاق وفق شروط معينة (١٩) .

ومن ناحية اخرى تؤكد نفس الدراسة المقارنة — وغيرها من الدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية — على أن هذه المجتمعات البدائية والبسيطة ، تختلف فيما بينها حول إعطاء حق الطلاق للزوج أو للزوجة . والواقع اننـــا يمكن أن نتصور — للوهلة الأولى — أن حق الطلاق يكون فى يـــد الزوج . إلا أن واقع بعض هذه المجتمعات يشير إلى اعطاء هذا الحق للزوجة وليس للزوج . ويسود هذا النظام فى المجتمعات التى تطبق (السكنى مع اهـــل الزوجة) (٢٠) ، حيث تتمتع المرأة بسلطة واسعة ، وتستطيع أن تطلـــق زوجها بسهولة . وتدلل دراسات الأنثروبولوجيا الاجتمـــاعية على هـــذا الواقع الذى يسود فى قبائل الزونى Zuni والهوبى Hopi . ولـــذلك يؤكد هوبل Hoebel على أن الزوجة فى هذه المجتمعات تطلق زوجهـــا بإجراء بسيط ، يتمثل فى وضع حاجياته خارج الكوخ ، فإذا عاد من عمله ،

---

(١٩) د. عاطف وصفى ، المرجع السابق ، ص ١٣٢ .

(٢٠) راجع التفاصيل فى الفصل السادس ، والفقرة (ثانيا) فى هذا الفصل ، والمراجع الواردة فى الموضعين . وانظر كذلك :

د. عبد السلام الترمانينى ، الزواج عند العرب ، مرجع سابق ، ص ص ٢١٣ — ٢٢٥ .

ووجد الأمر كذلك ، فهم انه قد طلقته زوجته ، وما عليه إلا أن يحمل أمتعته وحاجياته ويعود إلى مسكن أمـــه .

وإذا رجعنا إلى مجتمعنا العربى فى العصر الجاهلى وجدنا ما يناظـــر هذه الظاهرة تقريبا . فقد كانت مكانة بعض النســاء فى الجاهلية مرتفعــة إلى حد كبير ، حتى أن بعضهن كن يطلقن أزواجهن . وكان للطلاق رمـــوز يعرفها المجتمع ويتفق علي مدلولها . ومن بين هذه الرموز أن بيت المـــرأة إذا كان من الشعر (صوف المغنم) ، وارادت أن تطلق زوجهـــا ، حولت الخباء ، فإن كان بابه قبل المشرق حولته قبل المغرب . وإن كان بابه قبل اليمن حولته قبل الشام . فإذا رأى الرجل ذلك ، علم أنها قـــد طلقتـــه ، فلم يأتهـــا (٢١) .

ولعل ذلك راجع الى أن الخباء عند الساميين ، كان ملكا للمرأة وهو عند أهل المدر كالبيت عند أهل الحضر . ومعنى ذلك أن ملكيته مقصـــورة عليها ، وأن الرجل هو الذى يدخل عليها . فإذا دخل ووجدها قد حولت باب الخباء ، عرف أنها قد أعرضت عنه وطلقته .

أما المرأة الحضرية فى هذا العصر فكانت تتزوج أحيانا وتشترط أن يكون الأمر بيدها . وتكون علامة ارتضائها للزوج أن تعالج له طعاما إذا أصبح (٢٢) . ومن هؤلاء عمرة بنت سعد ، وعاتكة بنت مـــرة السلمية ، وفاطمة بنت الخرشب ، وسلمى أم عبد المطلب بن هاشم .

والواقع أن هذا النظام — أو ما يشبهه — يوجد فى بعض المجتمعات الحديثة الحضرية والريفية . حيث يتزوج الرجل بامرأة أعلى منه مكانة ،

---

(٢١) د. أحمد محمد الحوفى ، الحياة العربية من الشعر الجاهلى ، الطبعة الخامسة ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ص ٢٢١ — ٢٢٣ .

(٢٢) د. أحمد عبد الجبار ، عادات وتقاليد الزواج بالمنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية ، دراسة ميدانية أنثروبولوجية حديثة ، تهامة للنشر والمكتبات ، جدة ، ١٩٨٣ ، ص ١١١ .

أو أعرق منه فى الأصول الاجتماعية ، وقد تستمر الحياة الزوجية بينهما فترة من الزمن ولكنها سرعان ما تنتهى بأن تطلقه الزوجة ، بمعنى انها لا تبقى على معيشته معها ، وتطرده من البيت بالقوة أو بالهدوء . وفى أحيان أخرى توجد صورة من هذا النظام ، فى ظل الأزمات الإسكانية والاقتصادية ، حيث ينتشر خلالها زواج المصلحة أو الزواج النفعى . وفيه يسعى الشاب — أو الرجل عموما — الى الزواج بامرأة ثرية أو لديها المسكن الملائم للزواج ، ويتزوج بها ويكون المسكن ملكا خاصا لها ، أو أنها هى صاحبة حق الانتفاع به . وهنا لا يستمر الزواج طويلا فتطرده ولا يكون له الحق — فى هذه الحالة — فى العودة للمسكن أو الانتفاع به . وهناك حالات مستحدثة فى المجتمعات العربية المعاصرة ، حيث تشترط الزوجة على الزوج — عند الزواج — أن تكون (العصمة) فى يدها ، وبالتالى يكون لها حق تطليق زوجها وقتما تشاء . وهذه الحالات القليلة — وان لم تصل الى مستوى الظاهرة فى مجتمعاتنا العربية — الا أنها مؤشر دال على ان اعطاء حق الطلاق للزوج أو للزوجة ، يختلف أيضا باختلاف المجتمعات والثقافات. فإذا كنا نقول إن هذه الحالات ، التى تطلق فيها الزوجة الزوج ، ضئيلة فى مجتمعاتنا ، فإنها ظاهرة فى مجتمعات أخرى .

أما عن أسباب الطلاق فهى الأخرى تختلف باختلاف المجتمعات البشرية . ففى المجتمعات البدائية يعتبر الزواج قضية لا تخص الزوج والزوجة بقدر ما تخص القبيلة أو العشيرة . وبالتالى تذوب شخصية كلا الزوجين فى الجماعة ، ويخضعان لما تفرضه عليهما من زواج أو طلاق ... الخ . فقد يحتد الخلاف بين عائلتى الزوج والزوجة فيتم الطلاق . وكذلك عندما يعتدى أحد أفراد عائلة الزوجة على الزوج بالضرب ، أو السب فلابد أن يقع الطلاق . ومن ناحية أخرى تلعب ظاهرة التطير (التشاؤم) دورا هاما فى حدوث الطلاق بين الزوجين عندما تقع حادثة ما ، يعتبرها المجتمع نذير شؤم . أما فى المجتمعات الحديثة ، فإن الملاحظ ان أسباب

الطلاق تختلف اختلافا واضحا عن المجتمعات البدائية والبسيطة . ففي هذه المجتمعات الحديثة يحدث الطلاق غالبا نتيجة لعوامل اقتصادية أو عاطفية ويندر أن يقع نتيجة لحادث مصدر شؤم ، أو لخلافات بين أسرتي الزوج والزوجة كما يسود في المجتمعات البدائية مثلا . إلا أن القاسم المشترك بين هذه المجتمعات المختلفة — الحديثة والبسيطة — هو إباحة الطلاق في حالات عقم الزوجة ، حيث يعتبر الإنجاب قيمة جوهرية في حياة المجتمع (٢٣) . وكذلك يحدث الطلاق في حالات العجز الجنسي .

* * *

(٢٣) د. على المكاوى ، التراث الشعبى والمشكلة السكانية فى مصر ؛ دراسة نقدية منشورة فى مجلة المأثورات الشعبية ، مركز التراث الشعبى لدول الخليج ، العدد الثانى ، ابريل ١٩٨٦م ، الدوحة ، ص ص ١٤١ — ١٤٥ م

الفصل السادس

النظـــام الأســـرى

الفصل السادس

النظام الأسرى

سبقت الإشارة الى ان الأنثروبولوجيا الاجتماعية تدرس البناء الاجتماعى ، وبهذا سنحاول إلقاء الضوء على مجموعة النظم التى تشكل معا هذا البناء الاجتماعى (*) ، وبالتالى نتناول النظام الأسرى فى هذا الفصل ، من واقع الدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية للمجتمعات البسيطة .

تعتبر الأسرة شكلا مورفولوجيا اساسيا فى تكوين المجتمع . والشكل المورفولوجى هو نمط من الوحدات الاجتماعية التى يتألف منها المجتمع . ولذلك نلاحظ سيادة هذا الشكل المورفولوجى على مستوى مجتمعات العالم ككل ، سواء كانت بدائية بسيطة او ريفية تقليدية او حضرية صناعية . فالإنسان عموما ينتمى الى وحدتين على الأقل من الوحدات الاجتماعية ، أولهما هى الأسرة التى تمثل اول جماعة يعرفها الطفل ، والوحدة الثانية منهما هى المجتمع المحلى Community ، ويمثل مستوى أعلى من الأسرة ، حيث يتكون من مجموعة الأشخاص — كبيرة العدد نسبيا — ويعيشون معا ويتفاعلون معا فى ضوء علاقة الوجه للوجه Fece of Face Relation

وينص تعريف الأسرة التقليدى عند ميردوك على أنها (جماعة اجتماعية تتميز بمكان إقامة مشترك ، وتعاون إقتصادى ، ووظيفة تكاثرية،

(*) آثرنا تخصيص هذا الفصل وسائر فصول الباب الثانى لاستعراض الدراسات التى أجراها علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية على البناء الاجتماعى للمجتمعات البسيطة ، وهو ما يمثل الاهتمامات التقليدية فى هذا العلم . أما الاهتمامات الحديثة فسوف نخصص لها الفصول الاخيرة من هذا الكتاب .

ويوجد بين اثنين من أعضائها على الأقل علاقة جنسية يعترف بها المجتمع . وتتكون الأسرة على الأقل من ذكر بالغ وأنثى بالغة ، وطفل سـواء كان من نسلهما أو عن طريق التبنى) (١) .

والواقع أننا نستبعد فكرة (التبنى) من التعريف السابق التقليدى ، كما نستبعد أيضا مسألة أطراف العلاقات الجنسية التى حددها ميردوك فى تعريفه ، ونرى أن الأسرة — فى مجتمعنا المصرى عموما — عبارة عن « وحدة اجتماعية يقترن فيها رجل بامرأة فى علاقة مشروعة يقرها العرف والدين ، تسفر عن إنجاب أبناء ، وتجمعهم جميعا معيشة مشتركة فى مكان محدد » . إذن فالأسرة بهذا الشكل تمثل وحدة اجتماعية تقوم على عـلاقة مشروعة بين رجل وامرأة ، وتضم أبناءهم المباشرين ويعيش الجميع فى منزل واحد وفى معيشة مشتركة . والواقع أن هذا التعريف ينصب على الأسرة الصغيرة دون غيرها من الأسر الكبيرة (الممتدة) أو التعددية .

وتنقسم الأسرة إلى عدة أنواع مختلفة . وقد حاول ميردوك إجـراء مقارنات بين الأسر فى ٢٥٠ مجتمعا إنسانيا ، وخلص منها إلى سيادة ثلاثة أشكال أو أنواع من الأسر هى :

١ — **الأسرة النووية : Nuclear Family** وهى وحدة اجتمـاعية صغيرة الحجم تضم الزوج والزوجة وأبناءهما المباشرين فقط ، وتعتمد هذه الأسرة على وحدانية الزوج ووحدانية الزوجة . وهذا ما يسمى الزواج الأحادى Monogamy ، أى زواج رجل واحـد بامـرأة واحـدة (٢) . والملاحظ أن هذه التسمية للأسرة النووية — راجعة

---

(١) د. عاطف وصفى ، مرجع سابق ، ص ٩١ . وانظر أيضا :
Roger Keesing, op - cit., p 252.

(٢) انظر : Roger Pearson, op - cit p - 191.

أساسا إلى أنها تعتبر النواة أو الخلية الأولى والأساسية للمجتمع الإنسـانى . وفى أحيـان أخرى تسـمى « بالأسرة الزواجيـة » Ccn ugal Family . ويحاول البعض تسميتها بالأسرة الصغيرة، تمييزا لها عن الأنواع الأخرى من الأسر الكبيرة .

٢ — الأسرة التعـددية : (للأزواج Polyandro s أو للزوجـات Polygynous) وهى تلك النمط الذى يجمع بين عائلتين صغيرتين أو أكثر بشرط أن يكون الزوج أو الزوجة مشتركة فى أكثر من أسرة صغيرة واحدة (٣) . والواقع أننا لا نتفق مع ميردوك فى رأيه حـول سيادة الأسرة التعددية للأزواج ، ولا حتى فى وجود حالات كثيرة تدل عليهـا . ويؤيـد بريتشـارد هـذا الرأى حيث يـرى أن ماكلينان — الذى درس الأسرة ووضع بعض النظريات عنها — اعتبر أن هذا الزواج التعددى للأزواج هو أوسع أشكال الزواج إنتشارا ، لكن الواقع يؤكد أنه محدود للغاية . ولعل سبب هذا الخطأ — راجع إلى اعتماده على الكتاب الهواة والرحالة .

٣ — الأسرة الممتـدة : Extended Family وهى أسرة تتكون من جيلين فأكثر حيث يعتبر الجيل الثانى إمتدادا للجيل الأول ، وتعنى الأسرة الممتدة كذلك وجود عائلتين صغيرتين على الأقل تعيشان معا فى مكان واحد فى معيشة مشتركة ، وتضم الآباء والأبناء والأحفاد ، كما تـد تضم الأعمام والأخوال أو بنات وأبناء العمومة والخئولة .

وسنحاول إلقاء الضوء على هـذه الأنواع من الأسر ، فنشيـر إلى خصائص كل نوع منها ، والوظائف التى تضطلع بها الأسرة عموما فى داخل البناء الاجتماعى للمجتمع ، وذلك خلال بعض الدراسات الأنثروبولوجيـة الاجتماعية التقليدية التى أجريت على الأسرة فى المجتمعات البسيطة .

***

---

(٣) انظـر : Ibid p. 194 .

اولا — خصائص الأسرة النووية (الصغيرة) :

تتسم الأسرة النووية بعدة خصائص متميزة فى شتى انواع المجتمعات الانسانية — البسيطة والمركبة — باعتبارها النواة والأساس الركين لأى مجتمع . وفيما يلى هذه الخصائص التى تتسم بها تلك الأسرة النووية :

١ — تعتبر الأسرة النووية ظاهرة اجتماعية عالمية فهى لا يخلو منها مجتمع ولا تقوم له بدونها قائمة . وقد توجد هذه الأسرة فى صورة متفـــردة بمعنى انها تسود المجتمع كشكل صغير ومستقل ومتميز ، وقد توجد فى صورة مركبة بحيث تكون بمثابة الوحدة الرئيســـية فى أى مركب اجتماعى أكبر حجما ، ولكنها فى هذه الحالة تنتمى إلى انواع اخـــرى من الأسر الممتدة على سبيل المثال .

٢ — تنطوى الأسرة النووية على خاصية مزدوجة تتمثل فى ان كلا من الزوج والزوجة ينتمى إلى أسرتين فى نفس الوقت . فالزوجة مثـــلا تعتبر عضوا اساسيا فى أسرتها النووية ، وإبنة فى اسرتها الأصلية قبـــل الزواج وبعده . والزوج إبن فى أسرته الأصلية ، وزوج فى اسرتـــه النووية . وهكذا تتسع دائرة العلاقات القرابية من خلال انتشـــار الأسر النووية ، كما تتنوع المكانة الاجتماعية والدور الاجتماعى من خلال هذه الخاصية المزدوجة . فالإبن يشغل مكانة الإبن فى اسرته الأصـــلية ويقـــوم فيهـــا بدور الإبن ، وفى اسرته النووية المســـتقلة يلعب دور الزوج ويشغل مكانة الزوج .

٣ — الأسرة النووية وحدة اجتماعية لا تستمر لفترات طويلة ، إذ لابد أن تختفى فى غضون قرن من الزمان فى الغالب (٤) . وذلك بسبب وفاة أعضائها الأساسيين، وزوال هذه الأسرة وتكوين الابناء لاسر نوويةجديدة تنطبق عليها نفس الخاصية . اضف إلى هذا القيد الزمنى — أى عدم استمرارية الأسرة النووية لأكثر من قرن زمنى فى الغالب — قيدا

---

(٤) د. عاطف وصفى ، مصدر سابق الذكر ، ص ٩٦ .

آخر يتمثل فى ندرة عدد الاعضاء الذين يستطيعون التناسل فى هذه الأسرة حيث لا يزيد هذا العدد عن إثنين — مهما كان المجتمع — هما الزوج الواحد والزوجة الواحدة .

ومن ناحية أخرى تقف المحارم الدينية حول زواج الاصول (الآبـاء والأمهات) من الفروع (الأبناء) ، وحول الزواج بين الفروع (الأخوات والإخوة) ، فى سبيل استمرارية الأسرة النووية ، كما تساعد هـذه القواعد الدينية — السائدة فى معظم مجتمعات العالم — على انتشار الزواج الخارجى . وهكذا تنهار الأسرة الصغيرة بوفاة الزوجين ، وزواج الأبنـاء .

٤ — يعيش أعضاء الأسرة النووية فى مكان واحد مستقل ، ولا يمكن أن تتم مراسم وطقوس الزواج فى اى مجتمع بشرى إلا بعد تدبير مكان إقامة الزوجين (عش الزوجية) . وقد يكون هذا المكان حجرة فى منزل الأسرة الكبيرة ، أو شقة فى بيت كبير ، أو كوخا بسيطا ومستقلا ... الخ .

وقد اختلفت المجتمعات البشرية حول تحديد مـكان هـذا البيت « أو العش » . ففى بعض المجتمعات البسيطة يسود نظام (الإقامة أو السكنى مع أسرة الزوج) Virilocal (حيث أن Vir كلمـة لاتينية تعنى الذكر و Locus تعنى المكان) أو كما يسمى بمصطلح آخر وهو Patrilocal . وقد كان هذا النظام سائدا فى المجتمعات البسيطة والمركبة على السواء حيث يعيش الزوجان فى مسكن اهل الزوج أو فى مسكن قريب منه . إلا ان بعض المجتمعات الاخرى يسودها نظام (السكنى مع اسرة الزوجة) ، ويسمى بمصطلح Uxorilocal (حيث تعنى Uxori زوجة فى اللغة اللاتينية ، و Locus ومعنـاها مكان) ، أو كما يعبر عنه مصطلح آخر فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية وهو Matrilocal . وفى ضوء هذا النظام يعيش الزوج فى مسكن أسرة الزوجة أو بالقرب منه . والواقع أن الظروف الاجتمـاعية

والاقتصادية الحالية فى المجتمعات الفقيرة ، والأزمات الإسكانية التى تعانى منها ، تعمل جميعها على انتشار هذا النظام من السكنى على حساب النظام الآخر (السكنى مع أسرة الزوج) (*) . وبالتـــالى يسمى هذا النظام Neolocal ويعنى أن الزوجين قـــد يســـكنان فى مسكن مع أهل أحدهما ، نظرا لظروف عمل الزوجة أو الزوج أو لظروفهما الاقتصادية التى أشرنا إليها . ويسود هذا النظـــام حاليـــا فى المجتمعات الحضرية والصناعية ، كما أصبح الآن يتخذ طـــريق انتشاره فى المجتمعات الريفية .

ه — تعتمـــد الأسرة النووية على نظـــام الزواج الأحادى Monogamy والملاحظ أن بعض علماء الأنثروبولوجيا فى القرن التاســـع عشر ، حاولوا الربط بين هذا النظام الزواجى ، وبين مرحلة التقدم الحضارى، أى قصر هذا النوع من الزواج الأحادى على المجتمعات الحديثـــة . ولكن الدراسات الأنثروبولوجية المقارنة التى أجراها كل من ميردوك Murdock وهوبل Hoebel أثبتت خطأ هذا الرأى . فقد أكـــد هوبل أن ٢٥ ٪ تقريبا من المجتمعات البشرية لا توجد بها الأسرة النووية وحدها ، وإنما توجد بجانبها أشكال وأنواع أخرى من الأسر كالأسرة الممتدة مثلا . وتوصل ميردوك إلى نتيجة مشابهة تماما ، حينما قارن بين ١٩٢ مجتمعا إنسانيا من المجتمعات البسيطة وخرج من المقـــارنة بأن ٢٥ ٪ من هذه المجتمعات (٤٧ مجتمعا) تأخذ بنظام الأسرة النووية

(*) تجدر الاشارة الى أن هذه الظاهرة صارت تعم المجتمعات البسيطة والمركبة على السواء ، طالما انها تعانى من تلك الازمات الاقتصادية والاســكانية والمعيشية ... الخ . ومعنا فى مجتمعنا المصرى — على سبيل المثال — صرنا نشهد ظاهرة جديدة وهى اقامة الزوج فى بيت زوجته (مع أسرة الزوجة) . كذلك نلاحظ حرص الآباء على اعداد مسكن فى بيتهم لبناتهم بعد زواجهن حتى لا يعانين فى الحصول على مسكن خاص . وفى المجتمع السودانى تقتطـــع الاسرة جزءا من بيتها الواسع (والحوش الممتد) ليتزوج فيه الابن أو البنت ، مع اعداد مدخل خاص به لتصبح الاسرة النووية الجديدة ، مستقلة الى حد ما فى المكان والمعيشة .

فقط ، وان ٤٨٪ منها (٩٢ مجتمعا) تجمع بين نظامى الأسرة النووية، والأسرة الممتدة ، و ٢٧٪ من هذه المجتمعات (٥٣ مجتمعا) يأخـذ بنظام الزواج التعددى ، مع وجود نظام الزواج الإحادى (الأسرة النووية) أيضـــا .

* * *

ثانيا — خصائص الأسرة التعـــددية :

الواقع أن الدراسات الأنثروبولوجية التقليدية حول الأسرة التعددية، تستفيض فى الإشارة إلى إنتشار الأسر التعددية فى المجتمعات البشرية . كما تنفصل هـــذا النمط التعددى إلى نوعين من الأسر اولهمـــا هو الأسرة متعددة الزوجات Polygnous Family ، وثانيهما هو الأسرة متعددة الأزواج polyandrous Family . (٥) ونظـــرا لمبالغـــــــة هـــؤلاء الأنثروبولوجيين حول نظام الأسرة متعددة الأزواج للزوجة الواحدة ، ولعدم اعتمادهم على دراسات مكثفة حول هذا النظام ، ولضآلة وجوده إلى حـــد كبير ، فسوف نقتصر هنا على تناول النوع الثانى وهو نظام الأسرة متعددة الزوجـــات Polygnous .

وفيما يلى نقدم عرضا سريعا لخصائص هذه الأسرة متعددة الزوجات:

١ — تتكون من عدة أسر نووية تعيش معا فى وحدة اجتماعية ومســـــكن مشترك وفى معيشة مشتركة . ويعتمد هذا النظام الأسرى على وجود زوج مشترك بين أكثر من زوجة ، وينتشر هـــذا النظـــام فى معظم

---

(٥) أنظر دراسات ماكلينان وهويل وميردوك على سبيل المثال — حول الاسرة والزواج ، ومدى تركيزهم على هذا النظام التعددى بشكل مبالغ فيه الى حد كبير . وللمزيد من التفاصيل راجـــع :

— ايفانز بريتشارد ، سابق الذكر ، صرص ١٠٦ — ١٠٧ .

— د. عاطفة وصفى ، مصدر سابق ، ص ٩٩ .

المجتمعات البشرية إلى جانب نظام الأسرة النووية . وقد لاحظ ميردوك أن ١٩٣ مجتمعا انسانيا من بين ٢٣٨ مجتمعا تجمع بين نظام الأسرة متعددة الزوجات والأسرة النووية .

٢ — تنتشر الأسرة متعددة الزوجات فى معظم المجتمعات البشرية ، ولكنها توجد إلى جانب الأسرة النووية فى الغالب . ويتكون هذا النظـــام الأسرى من زوج واحد وأكثر من زوجة واحدة — بالإضافة إلى الأطفال — ويكون الزواج معلنا أى يتفق عليه المجتمع ويقره العرف والدين السائد ، كما يتضمن هذا النظام ضرورة الجمع بين أكثر من زوجـــة فى وقت واحد . وبالتالى فإذا ترمل الرجل أو طلق زوجته وتزوج بأخرى فلا تنتمى هذه الحالة إلى الزواج التعددى أو الأسرة متعددة الزوجات ، لأن الزوجتين لم تجتمعا معا وفى نفس الوقت على ذمته . ومن ثم تسمى الأسرة فى هذا الموقف بالأسرة النووية أو الزواجية .

٣ — تنجم عن طبيعة تكوين الأسرة متعددة الزوجات عدة مشكلات وخلافات بينهن . وتسمى لوسى مير Lucy Mair هذه المشكلات بمركب أو عقدة الضرائر Co - Wives Complex بسبب ما ينشأ بين الزوجات من الغيرة وتوزيع الأعمال والاستئثار بالمكانة العـــالية فى الأسرة ، وبالحظوة لدى الزوج (٦) . بينما لا توجد مثل هذه المشكلات فى الأسرة النووية ، لأن الزوجة واحدة لا تنافسها (ضرة) . والواقع أن المجتمع يضع بعض الضوابط التى تساعد على حل مشكلات الأسرة متعددة الزوجات — وإلى حد ما — مثل إشتراط أن تعيش كل زوجة فى مسكن خاص ومستقل عن شريكتها فى الزوج ، وفى أحيـــان أخـــرى يضفى المجتمع على الزوجة الأولى مكانة عالية لتحترمها الزوجات الأخريات، وفى أحيان ثالثة ينظم العرف العلاقات الجنســـية بشـــكل عادل بين الزوجات كأن يخصص الزوج لكل زوجة أسبوعا أو يوما ... الخ .

---

(٦) د. على المكاوى ، الشعوذة ، مرجع سابق ، ص ص ٣٥٧ — ٣٦٢ .

ثالثا — خصائص الأسرة الممتدة :

تمثل هذه الأسرة النمط الثالث من انماط الأسر فى المجتمعات البشرية. وتتعدد المصطلحات الدالة عليها فى بعض الأحيان . فتارة يطلق عليهـــا مصطلح الأسرة الممتدة ، وتارة اخرى توصف بمصطلح الأسرة المشـــتركة Joint Family ، وتسمى بالأسرة المركبة ذات تسلسل قرابى واحـــد تارة ثالثة . ولكن المصطلح الأول — (الأسرة الممتدة) — هو الأكثر انتشارا فى الكتابات الأنثروبولوجية ، وفى تراث الأنثروبولوجيا الاجتماعية .

والواقع أن الأسرة الممتدة نظام أسرى منتشر فى معظم أنحاء العالم ، وبصرف النظر عن مدى تقدم المجتمع البشرى أو تخلفه ، ومدى بســـاطته أو تعقيده . ولعلك — عزيزى القارىء — تدرك مدى انتشار هـــذا النمط فى مجتمعنا المصرى والسودانى والسعودى والعراقى والمغربى ... الخ . ويزداد انتشاره إذن فى المجتمع العربى ككل . وقد لاحظنا من قبل (٧) مدى انتشاره فى المجتمعات ذات الطابع البدوى ، وان كان يتقلص بمرور الوقت فى المجتمعات الريفية والحضرية ، ويحل محله نظام جديد فرضتـــه الظروف الاجتماعية والاقتصادية ويسمى (بالأسرة الممتدة المعدلة) التى تمثل حالة وسطا بين الأسرة النووية والأسرة الممتدة .

وقد سبقت الإشارة — فى الفقرة أولا — إلى أن الظروف الاقتصادية والأزمات الاجتماعية والتغير الاجتمـــاعى السريع ... الخ كل ذلك مـــن العوامل (*) ، قد ساعدت على أن تقتطع الأسرة جزءا من بيتها ليتزوج فيه

---

(٧) د. على المكاوى ، الجوانب الاجتماعية والثقافية للخدمة الصحية ، مرجع سابق ، ص ص ٢٢٣ — ٢٣٨ .

(*) لا شك فى أن انتشار التعليم ، وتعليم الفتاة بالتحديد ، وزيادة الانفتاح على العالم الخارجى ، وارتفاع مستوى الدخل ، والهجرة الى الدول العربية البترولية ، والانتشـــار

الإبن ويعيش مع أسرته النووية الجديدة مستقلا عن أسرته الأصـــلية . ولكن المكان يجمع الجميع إلى حد ما ، ورابطة الدم الوثيقة أيضا تجمعهم ، إلا أن الشرط الوحيد الذى يجعل هذه الأسرة ممتدة معدلة هو الاستقلال المعيشى فقط .

وسنحاول فيما يلى استعراض خصائص الأسرة الممتدة مثلما استعرضنا خصائص الأسرة النووية والأسرة التعددية (متعددة الزوجات) :

١ — تضم الأسرة الممتدة أسرتين نوويتين أو أكثر تجمعهم رابطة القـــرابة الدموية العاصبة Consanguinity ويشتركون معا فى مســـكن واحد يضمهم جميعا ، ويعيشون فى معيشة مشتركة ، ويسود بينهم التعاون الاقتصـــادى .

ومن أمثلة الأسرة الممتدة — بهذا الشكل — الأب (الزوج) والأم (الزوجة) ، وأبناؤهم الذكور وزوجاتهم وأبنائهم (الأحفاد) والبنات وأزواجهن وأبناؤهن فى بعض الأحيان . وهكذا تضم الأسرة الممتدة الأجداد والأبناء والأحفاد ، وربما أجيالا أكثر من ذلك .

٢ — قد تتكون الأسرة الممتدة من عائلات متعـــددة الزوجات أو من الأسر النووية التابعة لها — نسلها من البنين والبنات — أو تتكون منهمـــا معا . وتستمر الأسرة الممتدة أجيالا وتضم أبناء وأحفادا يصـــبح عددهم جميعا فى بعض الأحيان مائة عضو .

= المعيشية الجديدة المترتبة عليه ... الخ قد دفع الفتاة لئلا تتزوج فى أسرة ممتدة . كما غرس الانفتاح على العالم الخارجى ، ومستوى الطموح المرتفع ، فى الفتى والفتاة الاستقلال المعيشى والمكانى بعد الزواج ، مما كلف الفتى عناء تدبير الشقة أو المسكن عموما . وقد ترتب على ذلك تعقد عملية الزواج . الا أن بعض الاسر — الريفية والحضرية — تحل هذه المشكلة كما قلنـــا بتخصيص جزء من بيت العائلة ليعيش فيه الابن ويستقل مع زوجته . وهكذا يزداد معدل وجود العائلة الممتدة المعدلة طالما بقيت ظروف البناء الاجتماعى على هذا النحو .

٣ — تستمر الأسرة الممتدة فى الوجود إلى ما لا نهاية وبشكل يختلف عن الأسرة النووية ، والأسرة التعددية (متعددة الزوجات) وذلك بحكم استمرارها واحتوائها على اكثر من جيلين ، ومعيشة الأبناء مع الآباء مع الأحفاد واستمرار تناسل هؤلاء . وهكذا تصبح الأسرة الممتدة مثل الجماعة القرابية Kin Group والمجتمع المحلى (٨) . والواقع أن صفة الاستمرار هذه ليست مطلقة ولكنها رهينة باستمرار عملية التناسل . والسكنى فى وحدة سكنية مشتركة . فإذا تسرق الأبناء بحكم التعليم او العمل أو الهجرة او الحرب او الكوارث ... الخ . ، فإن هذه الأسرة الممتدة ستنهار .

٤ — تلعب قاعدة السكنى Residence — اى مكان إقامة الشاب والفتاة بعد الزواج — دورا بارزا فى بناء الأسرة الممتدة وتركيبها . ففى ضوء هذه القاعدة تفرعت الأسرة الممتدة إلى عدة اشكال فرعية . فهناك (الأسرة الممتدة ذات السكنى مع والد الزوج) Patri — Local Extended Family وهى تضم الأسر التى يكونها ابناء الأب ، حيث تضم الأب وزوجته وأبناءه وعائلاتهم واحفاده وعائلاتهم . وهكذا عندما يتزوج احد ابناء تلك الأسرة ، فعليه أن يحضر زوجته ويعيش مع أسرة والده . وهناك شكل ثان يسمى (بالأسرة الممتدة ذات السكنى مع والدة الزوجة) Matrilocal Extended Family وهكذا تتكون الأسرة من الزوجة وبناتها المتزوجات مع عائلاتهن وحفيداتها ، وعائلاتهن بالإضافة إلى أبنائها وبناتها غير المتزوجين .

٥ — يؤدى الاستمرار اللانهائى للأسرة الممتدة إلى زيادة حجمها من الأعضاء بحيث لا يتوازن مع الموارد الاقتصادية المتاحة . وفى هذه الحالة تهاجر بعض الأسر النووية — من هذه الأسرة الممتدة — إلى اماكن اخرى بحثا عن موارد جديدة تكفى مئونة حياة الفروع المهاجرة . ولكن

---

(٨) د. عاطف وصفى : مصدر سابق ص ١٠٣ .

إذا كانت الموارد الاقتصادية المتاحة تكفى لمعيشة هذا العدد الضخم من الأعضاء ، فإن هذه الأسرة الممتدة تستمر فى النمو وتتحول فى نهاية الأمر إلى عشيرة Clan .

٦ — **تؤلف الأسرة الممتدة وحدة اقتصادية متعاونة ، ويكون مؤسسها رئيسا لها طوال حياته ينظم اقتصادها ويسوس أمورها ، ويحقق العدل بين افرادها . ولذلك يتمتع هذا الأب المؤسس بسلطات واسعة على أبنائه وعلى عائلاتهم ، فهو السيد المطاع وهو صاحب الكلمة الأولى والأخيرة فى كل ما يتعلق بحياة الأسرة من زواج وسكنى ، وعمل وانتاج وبيع وشراء وزراعة المحاصيل ، والتعامل مع الأجهزة الرسمية ... الخ .**

* * *

رابعا — وظائف الأسرة :

إذا كنا نقول بأن الأسرة هى النواة الأساسية للمجتمع ، فإن معنى ذلك بقاء المجتمع واستمراره رهين ببقائها واستمرارها ، وأن هذا البقاء والاستمرار نتاج طبيعى لمجموعة من الوظائف التى تضطلع بها الأسرة وتؤديها . فلولا هذه الوظائف إذن لما استمرت الأسرة ، وبالتالى فلا تقوم للمجتمع العام قائمة بدونها .

والواقع ان وظائف الأسرة — التى سنذكرها هنا — تصدق على الأسرة النووية فى المقام الأول ، كما تصدق أيضا على الأسر متعددة الزوجات والأسر الممتدة بشتى صورها . ومعنى هذا أن تلك الوظائف تمثل قاسما مشتركا إلى حد كبير بين مختلف أنواع الأسر . ولنبدأ بالإشارة إلى أهم هذه الوظائف التى تضطلع بأدائها الأسرة :

١ — الوظيفة الجنسية :

تحقق الأسرة وظيفة الإشباع العاطفى من خلال الزواج . إذ أن الاتصال الجنسى فى معظم الأحوال مرذول خارج نطاق الزواج ، ويرفضه

المجتمع . ويحدث هذا الاتصال بين الزوج والزوجة بعد اتمام مراسم الزواج التى تعلن عن قيام هذه الأسرة . ويلعب الاتصال الجنسى دوره البارز فى تدعيم العلاقات الاجتماعية بين الزوجين ، مما يتيح للأسرة النووية ان تقوم بالوظائف الأخرى .

وتجدر الإشارة إلى أن ثقافة المجتمع ونظمه الاجتماعية لايطلقان العنان لهذا الاتصال الجنسى ، وإنما يضعان له من الضوابط والقيود والوسائل ما يقصره على الحالات التي يبيحها المجتمع ويرتضيها . والهدف من وضع هذه القواعد والقيود هو حفظ كيان الأسرة ، والحفاظ على صحة الزوجين، وعلى الحقوق والواجبات المتبادلة بين الآباء والأبناء كحقوق النسب والميراث والتربية ... الخ . وإذا كان بعض علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية قد استفاضوا فى الحديث حول الاتصال الجنسى بين الذكور والإناث — قبل الزواج وبعده — فى المجتمعات البسيطة ، فإن هذه الآراء التى ذكروها لا تهمنا فى هذا المجال ، وإنما كل ما يهمنا هو التأكيد على أن الأسرة هى المصدر الاجتماعى الأساسى — والمشروع فى نفس الوقت — الذى يزود المجتمع بالأعضاء الجدد من خلال التكاثر والإنجاب ، وهى أيضا النظام الذى يعوض المجتمع عما يفقده من الأعضاء نتيجة الهجرة أو الوفاة أو الأوبئة والكوارث .

٢ — الوظيفة الاقتصادية :

أكدت الدراسات الأنثروبولوجية البيولوجية على وجود عديد من الاختلافات الفسيولوجية بين جسم الرجل وجسم المراة . ولكن هذه الاختلافات جعلت من الزوجين الذكر والأنثى وحدة متكاملة وعلى درجة عالية من الكفاءة . ولذلك تتأكد هذه الحقيقة من خلال دراسات علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية على المجتمعات البسيطة وخاصة نظم تقسيم العمل الاجتماعى ، ومعايير التقسيم المتبعة ، ونوعية الأعمال الموكولة للرجل ، وتلك الملقاة على عاتق المراة . ودور البيئة الاجتماعية والطبيعية

فى هذه المعايير والأدوار ... الخ . فالرجل يتمتع بقوة بدنية تفوق قــوة المراة . ولذلك يستطيع إنجاز الأعمال الشاقة مثل الصيد والتنص وتقطيع الأحجار والأشجار لبناء البيت — فى المجتمعات البدائية — والقيام بالأعمال الزراعية والرعى وجنى المحاصيل ... الخ فى المجتمعات الريفية . وعلى العكس من ذلك نجد المراة ذات طبيعة فسيولوجية تعوقها عن اداء مثــل تلك الأعمال الشاقة نتيجة الحمل والولادة والرضاعة والدورة الشهرية . ومن ثم فهى تتجه نحو إنجاز الأعمال التى تتناسب مع طبيعتها الفسيولوجية كالأعمال المنزلية من طهى وتنظيف وغيرها ، إلى أعمال قريبة من المنزل لجمع الخضروات واحضار الماء وصناعة الثياب البسيطة واصلاحها وصناعــة بعض الأدوات والأوانى اللازمة لتخزين الغلال ، وبناء العشش لتربيــــة الطيور المنزلية ... الخ .

ولا شك فى ان معايير تقسيم العمل بين الرجل والمراة — فى هــذه الحالة — فى ضوء النوع ، قد ساعدت على كفاءة اداء العمل واتقانه (٩) . وهكذا نجد انشطة واعمال الرجل خارج المنزل تكمل اعمال المراة داخــله بصورة تشكل وحدة اقتصادية متعاونة بينهما إلى حد كبير . وهنــا تدعم الوظيفة الجنسية الوظيفة الاقتصادية بين الزوجين ، على حــين يؤدى التعاون الاقتصادى بين الآباء والأبناء والإخوة والأخوات إلى تدعيم العلاقات الاجتماعية بين جميع أعضاء الأسرة .

٣ — وظيفــة التكاثــر :

تعتبر الأسرة المصدر الوحيد لتزويد المجتمع بأعضاء جدد من خــلال وظيفة التكاثر . وهكذا تؤدى الأسرة هذه الوظيفة الحيوية التى تحــافظ على بقاء المجتمع واستمراره فى الوجود . ولذلك لا نجد مجتمعا إنســانيا يخلو من المراسيم والطقوس التى ينظمها ليحتفل بولادة الطفل .

---

(٩) د. عاطف وصفى ، مرجع سابق ، ص ٩٤ .

وهناك العديد من العادات والتقاليد والممارسات الشعبية والمعتقدات، التى تدور حول (سبوع المولود) ، وحول ختانه وحول وقايته من الحسد والمرض (١٠) . ولا يقف الأمر عند حد ما بعد الولادة ، ولكنه يتعداه إلى ما قبلها أى فى المرحلة الجنينية وما تتضمنه من وصفات وممارسات اعتقادية للحفاظ على الجنين (١١) . هذا بالإضافة إلى ما تحويه الثقافة الشعبية من عناصر متعددة ومتنوعة حول القلق من تأخر الحمل وبالتالى الممارسات الشعبية التى تعجل بحدوثه (١٢) ، والمعتقدات التى تكمن خلف هذه الممارسات ، ويؤكد ممارسوها على اهميتها فى علاج العقم (١٣) . وبهذا الشكل يتضح ان الوظيفة التناسلية ورعاية الطفل لا تقوم بها أية وحدة اجتماعية فى المجتمع غير الأسرة .

ومن المؤكد ان المجتمعات تختلف فيما بينها اختلافا واضحا فى تفاصيل الوظيفة التناسلية ووظيفة الرعاية الصحية للطفل مما يترتب عليه نتائج متباينه فى سمات شخصية اعضاء المجتمع الواحد ، واعضاء الأسرة الواحدة . وقد حاولت المجتمعات المتقدمة — فى الوقت الراهن — البحث عن بديل للأسرة للقيام بوظيفة الرعاية الصحية للطفل ، فانشأت دورا للحضانة للإضطلاع بهذه الوظيفة ، ولا سيما للأطفال حديثى الولادة ، الا انها اخفقت فى تحقيق وظيفتها نتيجة العقبات العديدة التى واجهتها .

---

(١٠) للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع يمكن الرجوع الى المصدر التالى :
د. على المكاوى ، السباق الاجتماعى للمعتقد الشعبى ، مقال منشور بالكتاب السنوى لعلم
د. على المكاوى ، السياق الاجتماعى للمعتقد الشعبى ، مقال منشور بالكتاب السنوى لعلم

(١١) د. على المكاوى ، المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعى ، مصدر سابق صص ٢٢٥ — ٢٣٢ .

(١٢) د. على المكاوى ، التراث الشعبى والمشكلة السكانية فى مصر ، مرجع سابق ، صص ١٤١ — ١٤٥ .

(١٣) د. على المكاوى ، الجوانب الاجتماعية والثقافية للخدمة الصحية ، مرجع سبق الذكر ، صص ٣٢١ — ٣٥٤ .

فهذه المؤسسات الخاصة ، التى يوضع فيها الأطفال بعد الولادة مباشرة ، تساعد على إصابتهم بأمراض كثيرة رغم الرعاية الصحية الفائقة الموجهة اليهم . وبالتالى فهناك آثار سيئة للغاية تقع على الأطفال الذين يفصلون عن أمهاتهم بعد الولادة (١٤) . ومن أمثلة المشكلات والأمراض التى يعانون منها التخلف العقلى ، والعجز عن النطق وتعلم الكلام ، والبلادة ، وفقدان الإحساس .. الخ .

٤ — الوظيفة التربوية :

يولد الطفل فى المجتمع ولا يعرف عنه شيئا ، وبالتالى عليه أن يكتسب كمية هائلة من الخبرات والمهارات ، ويستوعب التراث الاجتماعى والثقافى السائد . والواقع أن الأسرة هى الوحدة الاجتماعية الأولى والأساسية . التى تستطيع القيام بالوظيفة التربوية ، بحيث يتواءم الطفل مع الضوابط والقواعد التى وضعها المجتمع وتضمنتها الثقافة السائدة ، ويصبح آنئذ فقط عضوا فى المجتمع . وتسمى هذه العملية بالتنشئة الاجتماعية Socialization أو التنشئة الثقافية Enculturation .

والواقع أن عبء هذه الوظيفة يقع فقط على عاتق الأسرة فى المجتمعات البسيطة ، على حين نجد أن المجتمعات الحديثة والمتقدمة حاولت تقديم بعض المؤسسات الاجتماعية — كالمدارس ودور الحضانة والجامعات — لمشاركة الأسرة فى أداء هذه الوظيفة . ولكن هذا لا يعفى الأسرة من أداء هذه الوظيفة الحيوية ، فالأب يقوم بدور فى هذه التنشئة الاجتماعية والثقافية ولا يقل فى أهميته عن دور الأم . هذا علاوة على دور الإخوة والأخوات فى الأسرة ، وجماعات الرفاق وأصدقاء اللعب وأقارب الطفل من المسنين فى هذه العملية .

وفى النهاية لابد من التأكيد على أن وظائف الأسرة قد تطورت من

---

(١٤) د. عاطف وصفى ، مرجع سابق ، ص ٩٥ .

الإتساع إلى الضيق ، ومن الطابــع الكلى إلى الطابــع الجــزئى . ففى المجتمعات البسيطة والريفيــة ، كانت الأسرة تضــطلع بكل الوظائف التى ذكرناها من تنشئة اجتماعية وتربية وتدبير الحيــاة الاقتصــادية وتقسيم العمل ، وتوزيع القوى بداخلها ، والقيام بشئون الحكم وتزويد الأطفــال بتراث المجتمع ... الخ . إلا أن تطــور المجتمع قلص من تلك الوظائف وسلبها من الأسرة ، وحيث صارت النظم الحديثة (من حضانات إلى مدارس وجامعات) تقوم — مع الأسرة — بالوظيفة التربوية . ومن ثم تقلص دور الأسرة فى هذه الوظيفة إلى حد كبير فى الوقت الراهن . كذلك أدى تطور النظام السياسى والضبط الاجتماعى إلى تخصيص هيئات ومؤسسات مختلفة للإضطلاع بالوظائف السياسية والضبط ... الخ ، وبالإضافة إلى ذلك فإن تطور النظام الاقتصادى فى المجتمع سحب البساط من تحت اقــــدام الأسرة ؛ وبالتالى فهى لم تعد تقوم بهذه الوظيفة بنفس الشكل القديم ؛ وإنما صارت المؤسسات الاقتصادية (للعمل والانتاج والتوزيع والاستهلاك) تتصدر أداء هذه الوظيفة بدلا من الأسرة وهكذا .

* * *

الفصل السابع

النظـــام القـــرابي

الفصل السابع

النظام القرابى

مقدمة :

يعتبر النظام القرابى من أهم النظم التى يتكون منها البناء الاجتماعى. ويتضمن نظام القرابة العلاقات القرابية والقواعد التى تلعب دورا هاما وحيويا بالنسبة لبقية نظم البناء الاجتماعى التى لا يزال علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية يركزون على دراستها فى المجتمعات البسيطة . والنظام القرابى يوجد فى كل مجتمع إنسانى ، وفى كل مستوى حضارى ، وبالتالى يعتبر نظاما عالميا . إذ لا يوجد مجتمع إنسانى يخلو من نظام يحدد العلاقات القرابية بين أفراده .

والقرابة نظام مؤثر فى الحياة الاجتماعية فى أى مجتمع بشرى ، حيث تدور حول هذا النظام مجموعة النظم الاجتماعية الأخرى التى تكون البناء الاجتماعى . ولذلك يمكن القول بأننا إذا أردنا فهم المجتمع البسيط — أو حتى المجتمع المركب — فلا بد من التعرف على النظام القرابى بداخله ، وإدراك خيوط شبكة العلاقات القرابية التى تشكل نسيج هذا النظام (1) . وبالتالى فإن تأثير القرابة لا يختفى فى المجتمع الحديث ، ولا يصعب إدراكه وفهمه فيه ، حيث تتجسد تأثيراته فى مختلف الأنشطة الاجتماعية ، وبصورة تقدم نفسها للباحث فى علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية .

والواقع أننا لا يمكن أن نتعرض للنظام القرابى هنا ، دون أن نتعرض للنظام الأسرى . فالأسرة — كما أوضحنا فى الفصل السادس — هى نواة المجتمع ، وهى محور العلاقات القرابية ، وهى الأساس الذى يبسط شبكة هذه العلاقات ، ويمدها ليتسع نطاقها وتشمل أكبر عدد من الأقارب بالمصاهرة Affinit يضافون إلى الأقارب العاصبين (قرابة الدم

---

(1) د. أحمد أبو زيد ، البناء الاجتماعى : مدخل لدراسة المجتمع ، ج ٢ ، الأنساق ، المكتب الجامعى الحديث ، الاسكندرية ، د. ت ، ص ٢٧٤ ، و ٣١٤ .

Consanguinity) . وعلى الرغم من ذلك ، فإن مصطلح (قرابة) ليس مرادفا لمصطلح (الأسرة) . إذ أنهما مصطلحان مرتبطان ببعضهما ، ولكنهما لا يعبران عن نفس المعنى الواحد .

ومن ناحية اخرى ، ينبغى النظر إلى القرابة على أنها ظاهرة اجتماعية ومفهوم اجتماعى فى نفس الوقت . إذ ان موضوع اهتمام عالم الأنثروبولوجيا الاجتماعية بالقرابة ينصب على الدلالات الاجتماعية التى تتضمنها وليس الدلالات البيولوجية . ويعنى ذلك ضرورة التأكيد مرة اخرى على ان نظام القرابة نظام اجتماعى ولا يمكن فهمه إلا فى علاقته ببقية النظم الأخرى التى تشكل البناء الاجتماعى ، وبهذا نتجنب الوقوع فى تفسيرات خاطئة ، أو الانزلاق فى معان بعيدة كل البعد عن هذا النظام .



ومن الجدير بالذكر ان النظم الاجتماعية تختلف من مجتمع إلى آخر ، ويختلف ايضا ما يرتبط بها من حقوق والتزامات . وقد أدى اختلاف هذه النظم إلى تدخل علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية لتفسيرها وبالتالى أكدوا على أن هناك عوامل اجتماعية تكمن وراء تميز كل نظام قرابى (٢) . فلا يمكن إذن تفسير اختلاف نظم القرابة بإرجاعها إلى التطور ، فنقول بأن كل نظام يمثل مرحلة من التطور ، وإنما ينبغى تفسير هذا الاختلاف فى ضوء العوامل الاجتماعية . وعلى سبيل المثال ، فإن اختلاف انماط الأسرة واشكال الزواج ، لا يمكن ردها الى التطور وانما نردها إلى الظروف الاجتماعية السائدة لدى كل شعب أو كل مجتمع على حدة . وإذا كنا نسلم بذلك ، إلا أنه من الصعب أن نحدد العوامل التى تفسر شيوع نظام معين من القرابة . فقد اكد ميردوك على أهمية عنصر الإقامة ، ولكنه سرعان ما أرجع تأثر هذا العنصر كثيرا بالعوامل الاقتصادية والسياسية والدينية (٣) .

---

(٢) د. نبيل صبحى ، مرجع سابق ، ص ٩٥ .

(٣) بوتومور ، تمهيد فى علم الاجتماع ، ترجمة الدكتور محمد الجوهرى وزملائه ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣م ، صص ٢٧٩ — ٢٨٣ .

ويطلق العلماء إصطلاح الجماعات القرابية Kin Groups على الجماعات الانسانية التي تقوم على أساس الصلات والعلاقات القرابية . وتنقسم تلك الجماعات القرابية إلى قسمين هما (الأسرة الزواجية) Conjugal Family (والجماعة القرابية الدموية) Consanguineal Kin Croup والفارق بينهما أن القسم الأول — الأسرة الزواجية (الصغيرة أو النووية) — يتميز بالسكني معا في مسكن مشترك . ولذلك تسمى « جماعة قرابية سكنية » (٤) . أما الجماعة القرابية الدموية ، فلا تتميز بالمسكن المشترك. ومن ناحية أخرى يتميز القسم الأول بوجود علاقة قرابية أساسها الزواج ، على حين لا توجد تلك العلاقة في القسم الثاني (٥) .

وبناء على ذلك فسوف نتناول الموضوعات التالية :

أولا : اهم ما يدرسه الأنثروبولوجي الاجتماعي في نظام القرابة .

ثانيا : قواعد التسلسل القرابي في الأنثروبولوجيا الإجتماعية .

ثالثا : مبادىء التصنيف القرابي في الأنثروبولوجيا الاجتماعية .

* * *

أولا — اهم ما يدرسه الأنثروبولوجي الاجتماعي في نظام القرابة :

يهتم الأنثروبولوجي الاجتماعي بدراسة عدة موضوعات في النظام القرابي ، تتدرج من تحليل نظم تسلسل الأنساب — وفقا للإهتمامات التقليدية — حتى تصل إلى دراسة أنماط القرابة في المجتمع الصناعي ، حسب الاهتمامات الحديثة في هذا العلم . وفيما يلي نقدم عرضا سريعا لأهم تلك الموضوعات التقليدية والحديثة في الأنثروبولوجيا الاجتماعية :

١ — **تحليل نظم تسلسل الأنساب** ولا سيما في المجتمعات التي تسير فيها القرابة في خط واحد (٦) . وفي هذا المجال يلقى الأنثروبولوجي

---

(٤) انظر : Roger Keesing, op. cit., p - 267.

(٥) د. عاطف وصفي ، مرجع سالف الذكر ، ص ١١٧ .

(٦) انظر : Roger Pearson, op. cit,, p. 200

الاجتماعى الضوء على البنــاء الاجتماعى للأشــــكال المورفولوجية البسيطة كالبدنات والعشائر فى المجتمع الافريقى ، والإشـــارة إلى وظائفها وارتباطها بالنظام العقائدى والطقوس السائدة . ومن ناحية اخرى فإن الانثروبولوجى يبرز قرابة الخط الواحد كالنظام الابــوى الذى يتم الانتساب فيه إلى الأب ، والنظام الأمومى الذى يسود فيه الانتساب إلى الأم . ويرجع الفضـــل إلى باخوفن Bachofen فى توضيح النظام الأمومى من خلال كتابه عن (حق الأم) Mutterrecht أى سيطرة الأم ، الذى صدر فى عام ١٨٦١ (٧) ، وأوضح فيه مدى الاختلاف بين نظام الانتساب للأم ونظام الانتساب للأب . والواقـــع أن كثيرا من جوانب هذا الموضوع كانت معروفة من قبل باخوفن ، حيث نشر لافيتو Lafitau — وهو احد رجال الدين الجــزويت الفرنسيين — فى عام ١٧٢٤ شرحا وافيا لنظم القرابة الأمومية عند قبائل الهيرون — والإيركوا من الهنود الحمر الأمريكيين (٨) .

والجدير بالذكر أن الدراسات الأنثروبولوجية تؤكد على أن العشائر ذات نظام الانتساب للأم تختلف عن العشائر ذات الانتساب للأب . فشكل العشيرتين واحد إلى حد كبير ومتشابه فى البناء وفى الوظيفــة ولا يختلف إلا من حيث الخط القرابى — أى الانتســـاب إلى الأم أو إلى الأب (٩) .

٢ — **دراسة الوحدات الأسرية** : وهنا يهتم الأنثروبولوجى الاجتماعى بنمط الوحدة الأسرية السائدة فى مجتمع الدراسة . فقد تكون الأسرة نووية

---

(٧) د. علياء شكرى ، الاتجاهات المعاصرة فى دراسة الاسرة ، ط ٢ ، دار المعـــارف ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص ٣٤ .

(٨) ايفانز بريتشارد ، مرجع سابق ، ص ٥١ .

(٩) رالف بيلز وهارى هويجر ، مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة ، ج ٢ ، ترجمة الدكتورين محمد الجوهرى والسيد الحسينى ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٤٩٥ .

أو ممتدة أو تعددية ... الخ (*) ، ويكون محور الاهتمام منصبا إذن على تسلسل الأنساب ، وعلى كيفية أداء الفرد لسلسلة الأدوار القرابية . والملاحظ أن بعض دراسات علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية قد تطرقت إلى مجالات حديثة وفى المجتمعات الحديثة ، حيث درس هؤلاء المشكلات الأساسية المتعلقة بالبناء الأسرى ، والتكيف الأسرى فى المجتمعات الصناعية الحديثة (١٠) .

٣ — **دراسة مصطلحات القرابة** : تحظى مصطلحات القرابة والمدلول الاجتماعى للمصطلح ذاته باهتمام علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية . ولذلك فمصطلح (اب) أو (أم) أو (زوجة) أو (زوج) ... الخ ، يحمل معان عديدة ويضع صاحبه فى مكانة معينة ، ويفرض عليه مجموعة من الواجبات ، ويعطيه بعض الحقوق أو الامتيازات . وهكذا تقودنا دراسة مصطلحات القرابة إلى تحديد طابع العلاقة بين الأقارب ، واتجاهات هذه العلاقة بين أعضاء الشبكة القرابيــة .

٤ — يتطرق البحث الأنثروبولوجى الاجتماعى ايضا إلى دراسة بعض الموضوعات الأخرى ذات الأهمية مثل التبنى — وإن كان محرما فى المجتمعات الإسلامية (١١) — وعلاقة القرابة بتوزيع السلطة فى

(*) أنظر التفاصيل فى الفصل السادس من هذا الكتاب .

(١٠) د. نبيل صبحى ، مرجع سبقت الاشارة اليه ، ص ص ٩٦ — ٩٧ .

(١١) أكدت الشريعة الاسلامية على أن التبنى حرام ، لان النسب لا يثبت الا بولادة حقيقية ناشئة عن علاقة مشروعة بين رجل وامرأة . ولذلك حرم الاسلام التبنى تحريما قاطعا ، ونفى أن يكون التبنى سببا لثبوت النسب . ولذلك تقول الآية : (وما جعل ادعياءكم ابناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم) . راجع محمد أبو زهرة ، تنظيم الاسلام للمجتمع ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ١٢٥ .

المجتمع ، والعلاقات بين الجماعات القرابية فى مجتمع معين ، والتدرج الاجتماعى Social Stratification للجماعات القرابية .

... الخ .

ه — بدأ علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية يهتمون بدراسة القرابة فى المجتمعات الحديثة (الصناعية وغير الصناعية) ، وذلك لإبراز الدور الحاسم الذى يلعبه النظام القرابى فى المجتمع . اضف إلى هذا انهم اهتموا بنظام الطائفة — الذى يعتمد اساسا على المهنة وعلى القرابة معا — وبالتالى تناولوا مشكلات القرابة وعلاقتها بالتدرج الاجتماعى على سبيل المثال . كما اهتموا ايضا بدراسة نظم القرابة بين الجماعات السلالية التى تختلف فى بعض الأحيان عن نظيرها فى المجتمع الأكبر . ومن ناحية أخرى فقد حرص علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية الغربيون على دراسة انماط القرابة فى المجتمع الصناعى، من اجل التعرف على أنواع التعاون والمساعدات التى تسود بين الجماعة القرابية فى حالات الأزمات . وقد أثمرت هذه الدراسات فى توجيه السياسة الاجتماعية ، علاوة على أهميتها النظرية .

* * *

ثانيا — قواعد التسلسل القرابى فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية :

تشير قواعد التسلسل القرابى Descent Rules هنا إلى مجموعة القواعد التى تحدد اعضاء الجماعة القرابية الدموية (العاصبة) Consanguinity فى مجتمع ما . والملاحظ أن هذه القواعد تختلف من مجتمع الى آخر ومرد هذا الاختلاف إلى أن المجتمع ذاته هو الذى وضعها وحددها (١٢) . ومن ناحية أخرى فإن هذه القواعد تختلف عن العلاقات السلالية التى يدرسها علم الوراثة ، كما أن المجتمع — فى بعض الأحيان — لا يحترم هذه العلاقات البيولوجية .

---

(١٢) د. عاطف وصفى ، مرجع سالف الذكر ، صص ١١٧ — ١١٩ .

ويمكن الإشارة إلى قواعد التسلسل القرابى باعتبار انها تحدد نطاق الجماعة القرابية الدموية التى ينتمى إليها الفرد ، وتوجد أنواع مختلفة من هذه الجماعات . وفيما يلى نعرض باختصار لاهم هذه القواعد :

١ — **التسلسل القرابى الأبوى : Patrilineal Descent** يضع المجتمع القواعد التى تحدد الاقارب ، وتميزهم عن غير الاقارب . وبالتالى فعندما يولد الطفل فى الأسرة ، فإنه ينتمى إلى الجماعة القرابية الدموية التى ينتمى إليها الوالد — سواء كان الطفل ذكرا او انثى — ويصبح بالضرورة عضوا فيها . أما اهل والدته فلا يعتبرون أقاربه .. والجماعة القرابية لها اهمية كبيرة للأعضاء ، إذ هى الوحدة التعاونية والدفاعية لهم ، وبالتالى يرجع إليها الفرد عند الحاجة ولا سيما عند ازمات المرض او الكوارث ... الخ (١٣) .

٢ — **التسلسل القرابى الأومى : Matrilineal Descent** وتحدد هذه القاعدة اقارب الفرد بأنهم الجماعة القرابية الدموية التى تنتمى إليها أمه ، أما اهل ابيه فليسوا أقاربه . وبذلك يتسلسل خط القرابة عن طريق الإناث وليس الذكور . ويوجد هذا النظام القرابى فى مجتمعات الهيرون والإيروكوا الهندية الحمراء ، وفى مجتمع الباجندا بشرق افريقيا . وفى ضوء هذا التسلسل القرابى نجد أن المرأة فى الإيروكوا تمثل نواة الأسرة ، وهى وحدها المسئولة عن إنتاج المواد الغذائية الأساسية كالفول والقرع (١٥) . وتمثل هذه المواد — وعمليات إنتاجها — مكانة أسمى مما تشغله المواد الغذائية المستمدة من عمليات صيد البحر التى يقوم بها الرجال . وعند شعب الباجندا

---

(١٣) د. على المكاوى ، الخدمة الصحية فى مصر ، مرجع سابق ، الفصل الرابع ، ص ص ٢٢١ — ٢٤١ .

(١٤) د. علياء شكرى ، الاتجاهات المعاصرة ، مرجع سابق ، ص ٤٠ .

بشرق افريقيا تقوم العشائر هناك على أساس الإنتساب إلى الأب ، ومع ذلك تعتبر المرأة هي المسئولة عن توفير المواد الغذائية ، كما تضطلع بعبء جميع الأعمال الزراعية تقريبا .

٣ — **التسلسل القرابى الثنائى الاختيارى Bilateral Descent**

وهى قاعدة تحدد الجماعة القرابية التى ينتمى إليها الطفل ، باعتبارها تتكون من بعض أهل أبيه — وليس كلهم — وكذلك من بعض أهل أمه — وليس كلهم (١٥) . وكل المجتمعات التى تأخذ بذلك النظام ، تصف الجماعة القرابية السالفة بالأقارب القريبين مثل الجد والعم والخال سواء من ناحية الأب او الأم . وتطبق المجتمعات الأوروبية هذا النظام ، مع وجود بعض الاختلافات فى التفاصيل . والغالب عموما هو حرية اختيار الأقارب الذين يتعاون الفرد معهم بصورة قوية ، سواء كانوا من أهل الأب او أهل الأم .

٤ — **التسلسل القرابى الثنائى الإجبارى Double Descent** : وهذه القاعدة القرابية تحدد تكوين الجماعة القرابية التى ينتمى إليها الفرد على أنها تجمع الجماعة القرابية الأبوية لأبيه ، والجماعة القرابية الأمومية لأمه . ولذلك فلابد ان يحوى المجتمع الذى يطبق هذا النظام جماعات قرابية أبوية وجماعات قرابية أمومية (١٦) . وتجدر الإشارة إلى أن هذه القاعدة تملى على الفرد ألا ينتمى إلى الجماعات القرابية الأمومية لأبيه ، ولا إلى الجماعات القرابية الأبوية لأمه . ولعل موطن الخلاف بين هذه القاعدة ، والقاعدة السابقة ، يكمن فى أن الشخص ليس حرا فى اختيار الأقارب الذين يرتبط معهم بصورة قوية .

(١٥) انظر : Cultural Anthropology, op. cit., p. 269.

(١٦) انظر : Roger Pearson, op. cit., p. 201.

ثالثا — مبادىء التصنيف القرابى فى الانثروبولوجيا الاجتماعية :

من المؤكد ان دراسة النظم القرابية لا تكتمل إلا بالتعرض لموضوع المصطلحات القرابية **Kinship Terminology** . إذ ان كل مجتمع إنسانى يميز بين الأقارب ، ويضع لكل واحد او مجموعة منهم مركزا واصطلاحا خاصا . وبالتالى تتمثل أهم وظائف الدراسة الأنثروبولوجية الاجتماعية للنظام القرابى ، فى تحديد المصطلحات القرابية ، وتحديد الدور الاجتماعى لكل مصطلح .

ومن الملاحظ ان كل شعب قد اعتاد على مصطلحات القرابة فى مجتمعه، بحيث اننا كثيرا ما نفترض خطأ ان مصطلحات مثل الأب ، والأم والإبن ، والبنت تعنى دائما نفس المدلول عند جميع الشعوب (١٧) . إن كثيرا من مصطلحات القرابة تشير إلى فئات منها ، كمصطلحات العم والعمة والأخ والأخت أو إبن العم . وفى ضوء ذلك تتباين نظم تصنيف القرابة تباينا هائلا من مجتمع لآخر . والفضل فى الكشف عن هذا التباين ، يرجع إلى تقدم الدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية لموضوع القرابة ، وتناولها لهذا النظام المعقد وتوضيحه فى مختلف ثقافات العالم . ويأتى التصنيف الذى وضعه الفريد كروبر **Alfred Kroeber** ، فى مقدمة الإسهامات الأنثروبولوجية لدراسة النظام القرابى ، وتحديد مبادىء تصنيف الأقارب فيما يلى :

١ — **اختلاف الجيل** : حيث ينتمى الأقارب إلى اجيال مختلفة ، وعلى ذلك حاولت كل المجتمعات البشرية تمييز اقارب كل جيل عن الجيل الآخر، من خلال مجموعة مصطلحات متفق عليها مثل الجد والإبن والحفيد ... الخ . والملاحظ فى المجتمعات الغربية — على سبيل المثال — ان جميع مصطلحات القرابة تقتصر على جيل واحد فقط فيما عدا

---

(١٧) د. علياء شكرى ، مرجع سابق ، ص ٦٣ .

مصطلح إبن العم أو إبنة العم **Cousin** . فمصطلحات الأب ، والأم والعمة (أو الخالة) والعم (أو الخال) تنصب على جيل الوالدين ، أما مصطلحا الأخ والأخت فينصبان على جيل الشخص نفسه . ومصطلحات الإبن والبنت وابن الأخ (أو إبن الأخت) وبنت الأخ (أو بنت الأخت) تقتصر على الجيل التالى على جيل الشخص نفسه (١٨) .

٢ — **اختلاف أساس العلاقة القرابية** ، فقد يكون علاقة الدم ، وقد يكون علاقة الزواج . فإذا نظرنا إلى علاقة الدم وجدنا أقارب الدم **Consanguineal Relatives** مثل الأب والأخ والأخت والجد والحفيد . أما الأقارب عن طريق الزواج فيسمون (أقارب المصاهرة) **Affinal Relatives** مثل زوج الأخت وزوجة الأخ وأخ الزوجة ... الخ .

٣ — ويتمثل الأساس الثالث فى **الاختلاف بين علاقة القرابة** الخطية (المباشرة) **Lineal** والقرابة المجانبة (غير المباشرة) **Collateral** ويعتمد هذا المبدأ التصنيفى على الحقيقة البيولوجية بأن فى فئة (أقارب الدم) — ذات الجيل الواحد والنوع الواحد — يوجد أقارب أقرب صلة للأنا من أقارب آخرين . فأبى أقرب لى من عمى ، نظرا لوجود صلة قرابة خطية (مباشرة) تربطنى به ، كما أن إبنى أكثر قربا لى من إبن أخى بحكم صلتى القرابية المباشرة به أيضا . إذن فالأقارب الخطيون هم أولئك الذين يرتبطون ببعضهم فى خط واحد . فالآباء والأبناء فى مجتمعنا المصرى أو السودانى مثلا أقارب خطيون . أما الأقارب المجانبون فهم أولئك الذين يرتبطون بشكل غير مباشر من

---

(١٨) رالف بيلز وهارى هويجر ، مرجع سابق ، ص ٤٦٥ [illegible]

كذلك أنظر : د. عاطف وصفى ، [illegible]

خلال أحد الأقارب الذى يصل بين الخطيين . وبالتالى يعتبر العم أو الخال قريبا مجانبا لأنه إما أخ للأب أو أخ للأم ، كذلك يعتبر أبناء وبنات الأعمام والأخوال أقارب مجانبين ، لأنهم يرتبطون بصلة قرابة غير مباشرة باعتبارهم ابناء إخوة الأم أو ابناء إخوة الأب .

٤ — **اختلاف نوع الأقارب** (ذكر — انثى) فيطلق على الأخ اصطلاح مختلف عن إصطلاح الأخت ، رغم أن علاقة الإخوة واحدة . وكذلك الحال بالنسبة للخال والخالة والعم والعمة ، سواء فى النظام القرابى العربى أو الأوربى . فالوالدان آباء وأمهات . وتنقسم أخوة الوالدين تبعا للنوع إلى أعمام (وأخوال) وعمات و (خالات) وهكذا .

٥ — **اختلاف نوع الشخص الذى تكونت عن طريقه علاقة القرابة** . ففى مجتمعنا المصرى والسودانى نستخدم اصطلاح خال بالنسبة لشقيق الأم ، واصطلاح عم للدلالة على شقيق الأب . بينما نلاحظ فى المجتمعات الأوروبية استخدام إصطلاح Uncle للدلالة على العم والخال معا . وكذلك يجمعون جميع ابناء وبنات العم والخال ، تحت مصطلح واحد هو Cousins . وفى مجتمعات أخرى تقسم هذه الفئات (أبناء وبنات العم والخال) إلى جماعتين ، أولا هما جماعة ابناء العمومة او الخئولة المتقاطعة Cross Cousins اى ابناء الأخوال والعمات . والجماعة الثانية هى جماعة ابناء العمومة او الخئولة المتوازية Parallel Cousins اى ابناء الأعمام والخالات. والفرق بين المجموعتين يرجع إلى نوع القريب الذى يمثل همزة الوصل فى [illegible] بيه . فإذا كان هذا القريب الوسيط من نفس نوع القريب (مثلا أخ الوالد اى العم ، او اخت الأم اى الخالة) ، فإن ابناء هذين الشخصين يعتبران ابناء عمومة وخئولة متوازية . كذلك عندما

يختلف نوع القريب الوسيط عن نوع القريب الذى نصفه ، فإن ابناءه يعتبرون أبناء عمومة وخئولة متقاطعة .

٦ — **اختلاف نوع المتكلم نفسه** (الذى يخاطب أقاربه) . ففى حالة علاقة الإبن والأب ، كلاهما يستخدم اصطلاحا مختلفا . وبالنسبة للنظام القرابى العربى عموما نجد هذا الأساس التصنيفى مطبقا فى كل العلاقات القرابية فيما عدا العلاقة بين إبن العم والأنا المذكر : فكلاهما ينادى الآخر باصطلاح واحد وهو (إبن عمى) .

٧ — الأساس التصنيفى القائم على **اختلاف الأنا** (المتكلم) سواء كان ذكرا أم أنثى . فعندما يكون المتكلم ذكرا فإنه يستخدم اصطلاحا معينا لقريب معين . ويتغير هذا الاصطلاح عندما يكون المتكلم أنثى ، رغم أن القريب المخاطب هو نفس الشخص .

٨ — اختلاف الإصطلاح القرابى فى **حالة وفاة الشخص** الذى عن طريقه نشأت العلاقة القرابية . ففى حالة تطبيق هذه القاعدة — على سبيل المثال — لابد أن يتغير مصطلح (خال) فى حالة وفاة والدة الأنا (المتكلم) . ولا يطبق هذا المبدأ فى النظام القرابى العربى .

٩ — تمثل **الفروق العمرية بين نفس الجيل الواحد** اساسا للتصنيف القرابى فى المجتمعات البشرية . فالشخص يخاطب إخوته الكبار بمصطلح معين ، ويخاطب إخوته الأصغر بمصطلح آخر مختلف . وفى مجتمعنا المصرى نلاحظ أن الأخت الصغرى تنادى الأخت الكبرى باستخدام إصطلاح (أبله) كذلك ينتشر بين اطفال الطبقة الوسطى العليا ، والعليا فى مصر استخدام مصطلح (أبيه) عند التحدث مع الأخ الاكبر . وفى مجتمع النافوهو **Navaho** على سبيل المثال يميز الشخص بين إخوته تبعا للسن إلى اخوات كبار واخوات صغار . إلا أن الأساس العمرى للتصنيف القرابى لا يمتد عند النافاهو بحيث ينظم العلاقات القرابية الاخرى .

* * *

الفصل الثامن

النظام السياسى

الفصــل الثــامن

النظـــام الســـياسى

مقـــدمة :

تبدو اهمية اى نظام أجتماعى فى مدى ما يقوم به من نشــاط ، وفى الوظائف التى يضطلع بها فى البناء الاجتماعى ككل . وقد وجد كل نظــام اجتماعى ليؤدى وظيفة اساسية فى الحياة الاجتماعية للمجتمع . فالنظــام الاسرى وجد لتربية الأطفال وتنشئتهم ، ونظام الزواج ليحقق الإشــباع الجنسى والعاطفى ، والنظام السياسى لتوزيع القوى وتأمين المجتمع ضــد اى عدوان خارجى أو خطر داخلى ونشر العدالة بين الناس وحماية الضعيف من القوى ... الخ .

أما النظام السياسى فقد أولاه علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية بعض الاهتمام فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، على حين تزايد هـــذا الاهتمام منذ النصف الأول من القرن العشرين الحالى . ولكن هذا لا يعنى أن النظام السياسى ظل مهملا على مدى هذين القرين السابقين وما قبلهما ، بل شــغل ذلك النظــام اهتمــام المفكرين الأوائل — وقبل ظهــور علم الانثروبولوجيا ذاته — امثال ارسطو الذى اعتبر فى كتابه عن (السياسة) أن الانسان كائن سياسى يسعى بشكل طبيعى لاكتشاف القوانين ، أكثــر من سعيه للتعرف على أفضل دستور يمكن تطبيقه فى دولة ما . وفى العصر الحديث ساهم روبرت لوى R. Lowie فى توجيه الانتباه لدراسة النظام السياسى ، وحتى فى الدعوة لتأسيس علم الأنثروبولوجيا السياسية . وفى هذا الصدد تراكمت الدراسات الانثروبولوجية الاجتماعية للنظام السياسى فى المجتمعات البسيطة فى افريقيا حتى زادت عن المئة دراسة ، ممــا دفــع البعض كالموند C. Almond على سبيل المثــال للقول بأن (دراســات الأنثروبولوجيا الاجتماعية للنظام السياسى شرط أساسى لكل علم ســياسة مقارن) ، وباركنسن parkinson للتأكيد على « أن دراسة النظريات

السياسية كان ينبغى أن يسلم أمرها إلى الأنثروبولوجيين الاجتماعيين » (١).
ولعل هذه الاستشهادات تؤكد لنا أهمية الدراسة الأنثروبولوجية الاجتماعية للنظام السياسى .

ومن جانب آخر نلاحظ اهتمام علماء السياسة بدراسة المجتمعات البسيطة والنامية لدرجة تجذبهم لوصف نظمها السياسية وتحليل بنية هذه النظم وتحولاتها وأشكالها المختلفة ، وبالتالى التعرف على مختلف المؤسسات والممارسات الكفيلة بحكم المجتمع . وفى هذا الشأن يقول ريمون آرون R. Aron بأن المجتمعات النامية تسحر علماء السياسة الراغبين فى تجنب الإقليمية الغربية أو الصناعية التى تأسرهم أو تحصرهم عندما يدرسون النظم السياسية . وبالتالى تمثل دراساتهم لهذه المجتمعات البسيطة مجالا طليقا يفك أسرهم من القيود التى يفرضها عليهم المجتمع الغربى الصناعى ، والقوالب التى يصبهم فيها أو يفرضها عليهم ، أضف إلى ذلك أن تلك الدراسة تتيح لهم إجراء المقارنات بين النظم السياسية المختلفة ، وتلفت إنتباههم إلى أهمية التنظيم السياسى وتعقيده فى هذه المجتمعات البسيطة .

والجدير بالذكر أن دراسات الأنثروبولوجيا الاجتماعية للنظام السياسى — خلال النصف الأول من القرن العشرين — ركزت على مجتمعات محلية تؤلف وحدات سياسية صغيرة جدا مثل الزمر الاسترالية ومجتمعات الأندامان والقرى الميلانيزية . لكن الملاحظ على هذه الدراسات أنها لم تولى النظام السياسى ما يستحقه من الاهتمام ، إلا بعد أن بدأ العلماء يدرسون المجتمعات الأفريقية . ففى أفريقيا كثيرا ما تتألف الجماعات المتمايزة سياسيا من عدة آلاف من الناس . وقد اضطر الباحثون إزاء تنظيمها

---

(١) جورج بلانديه ، بناء الانثروبولوجيا السياسية ، ترجمة غسان زيادة ، مجلة الفكر العربى ، العددان ٣٧ ، ٣٨ ، يناير — مايو ١٩٨٥ ، معهد الانماء العربى ، بيروت ، ص ص ١٨٢ — ١٨٣ .

السياسى الداخلى ، وإزاء العلاقات المتبادلة بينها إلى الاهتمام بالنواحى السياسية الخالصة فيها (٢) . إذ أن معظم هذه الدراسات صارت تــدور حول النظام السياسى ، أو تدرس البناء الاجتماعى كله فى هذه المجتمعــات من زاوية سياسية . وتأتى على رأس الدراسات التى حظى النظام السياسى فيها بالنصيب الأكبر ، دراسة شــابيرا Schapera عن البتشـــوانا Bechuana ، ودراسة فورتيس Fortes عن التالنزى Tallensi فى ساحل الذهب ، ودراسة نادل Nadel عن النوبا Nupe فى نيجيريا ، ودراســة الباحثة كوبر Kuper عن السوازى Swazi ودراســة ايفانز بريتشارد عن النوير Nuer والأنواك Anuak فى جنوب السودان .

وبذلك يمكن القول بأن الانثروبولوجيين الاجتماعيين بداوا يولون النظام السياسى المزيد من الاهتمــام ، ولا ســيما منــذ عام ١٩٢٠ ، حيث دارت دراساتهم العديدة حول موضوع الدولة واصلها واشكالها الأولى ، والعلاقات القرابية التى تؤثر فى النظــــام الســـياسى . وبحلول علم ١٩٤٥ تراكت الدراسات الأنثروبولوجية للنظم السياسية فى المجتمعات الأفريقية وتنوعت محاور البحث ما بين المجتمعات الجزئية ومجتمعات الدولة (٣) . واستمرت هذه الدراسات فى الازدهار طوال العقدين التاليين ، وتجاوزت المجتمعات الأفريقية ، واصبحت تجرى على المجتمعات البسيطة الأخرى الآســيوية والأسترالية والأمريكية .

وفى ضوء ما سبق ، فسوف نعرض للنظام السياسى واشكاله ومحاوره فى الدراسات الأنثروبولوجية من خلال العناصر التالية :

أولا : مجالات اهتمام الأنثروبولوجى الاجتماعى بالنظم السياسية ..

ثانيا : النظام السياسى وطبيعته فى المعشر والقبيلة .

---

(٢) ايفانز بريتشارد ، مرجع سابق ، ص ١١٥ .

(٣) د. نبيل صبحى ، مصدر سابق ، ص‌ص ١٠٠ — ١٠١ .

ثالثا : نموذج لدراسة أنثروبولوجية اجتماعية للنظم السياسية .

رابعا : الإسهامات المتميزة لعلماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية فى المجال السياسى .

* * *

اولا — مجالات اهتمام الأنثروبولوجى الاجتماعى بالنظم السياسية :

بدأ علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية فى دراسة النظم السياسية فى المجتمعات البسيطة فى افريقيا بعد عام ١٩٢٠ كما أوضحنا سابقا . ومنذئذ تزايد اهتمامهم بدراسة هذه النظم ، سواء فى المجتمعات البسيطة أو فى المجتمعات المركبة الحديثة ، علاوة على اهتمامهم حديثا بالنظم السياسية الفرعية او الخاصة ، وتناولهم ايضا للنظم السياسية الكبرى مثل الدولة .

والواقع أن الأنثروبولوجى الاجتماعى — الذى يدرس النظم السياسية — يركز على الموضوعات التالية (٤) :

١ — **تصنيف النظم السياسية البسيطة والتقليدية :** وفى هذا المجال يهتم الأنثروبولوجى الاجتماعى بالتعرف على النظم السياسية السائدة فى المجتمعات البسيطة والتقليدية ، وعلى كيفية عملها ، اكثر من الاهتمام بعملية تنميط هذه النظم . والمعروف أن تلك النظم تختلف من مجتمع لآخر ، كما ان كل نظام يعتبر كلا وظيفيا يقوم بدور فعال فى المجتمع الذى يوجد فيه . وعلى هذا الأساس نلاحظ أن بعض الأنثروبولوجيين قد ركزوا على الدور الذى تقوم به النظم السياسية فى حالات الأزمات التى تنزل بالمجتمع من حين لآخر . كما ركز البعض الآخر على الخلافات حول الإرث بين الجماعات السياسية . واهتم نفر ثالث منهم بقياس طبيعة وكيفية الكفاح ضد الكوارث والمجاعات . على

(٤) د. نبيل صبحى ، المصدر السابق ، ص ص ١٠١ — ١٠٥ .

حين ألقى فريق رابع من الأنثروبولوجيين الضوء على الأنشطة الهدامة فى المجتمع ودور الجماعات المختلفة فى احتوائها والتغلب عليها . وفى هذه الاهتمامات والمجالات لابد من تكثيف الدراسات الميدانية ذات المناهج العلمية القويمة ، وإجراء المزيد من المقارنات لتنميط النظم السياسية البسيطة — على غرار المقارنات التى أجراها فورتيس Fortes وايفانز بريتشارد للنظم السياسية الأفريقية (٥) — وضرورة تركيز المقارنات على نطاق محدود ، وبين مجتمعات صغيرة أيضا .

٢ — **التعرف على العلاقات الوظيفية بين الأدوار والنظم السياسية وبين غيرها فى المجتمع** ، وذلك لتوضيح كيف تتعاون وتتساند هذه الأدوار وكيف يتم فى ضوئها التحكم فى الأزمات والانحراف . وعلى هذا فقد زخرت الأنثروبولوجيا الاجتماعية بدراسات حول استمرارية هذه النظم ، والغاية النهائية للفعل السياسى . وكان لهذه الدراسات آثارها الواضحة فى توسيع نطاق الاهتمام الأنثروبولوجى بالنظم السياسية .

٣ — **فهم الإطار الاجتماعى للفعل السياسى** : يدرس الأنثروبولوجى الاجتماعى النظام السياسى باعتباره جزءا من البناء الاجتماعى الكلى للمجتمع . وبالتالى فهو يربط هذا النظام بمعظم النظم الأخرى ، المكونة للبناء الاجتماعى . ومن ثم فهو يحاول التعرف على الجماعة ، وعلى علاقاتها القرابية وقيمها المشتركة وعلاقاتها بالجماعات الأخرى ، وأثر ذلك كله على الفعل السياسى . ولا شك أن علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا والسياسة يشتركون معا فى التوجه النظرى بضرورة فهم الإطار الاجتماعى للفعل السياسى ، بدءا من مونتسكيو وحتى الوقت الراهن .

(٥) جورج بالانديه ، مرجع سابق ، ص ١٨٧ .

٤ — **دراســة مكونات النظــام السياسى :** وفى هــذا المجــال يهتم عالم الأنثروبولوجيا الاجتماعية بدراسة القيادة والزعامة وشكل الحكومة والانتخابات وأساليب سياسة الأمور ، وديناميات اتخاذ القرار وتدرج السلطة وعلاقة النظام السياسى والحكومة بعملية الضبط الاجتماعى. وقد ألقت الدراسات الأنثروبولوجية الضوء على تباين النظم السياسية فى المجتمعات البدائية التى تفتقد الزعامة الواضــحة ، والســلطة المركزية والقادة والرؤساء بشكل واضــح . ونتيجــة لذلك أجريت الدراسات المكثفة على تلك المجتمعات الجزئية (أى التى تســمى مجتمعات بلا دولة) للتعرف على نظم القرابة واشــكال العــلاقات القرابية ، مما ادى إلى تحديد أفضل للمجال السياسى ، وإلى حصر أفضل لتنوع أشكاله . ولذلك ظهرت أعمال فورتيس وميدلتون وتيت وسوثال وبالنديه حول المجتمعات الجزئية ، وأعمال ودراسات نادل وسميث وماكييه وغيرهم حول مجتمعات الدولة . ومن ناحية أخرى ، فقد اكد هؤلاء جميعا على أهمية الدراســة التاريخية المتعمقة للنظم السياســية ، للتعــرف على الظــروف والعمليــات الخاصــة التى أثرت فى بناء وتنظيم النظام السياسى .

* * *

ثانيا — النظام السياسى وطبيعته فى المعشر والقبيلة :

يمثل المعشر والقبيلة أبسط المجتمعات الانسانية . فالمعشر يتكــون من عدة أسر تعيش فى مكان واحد ، وتتعاون فى المعيشة تحت رئاسة رئيس المعشر **Headman** . والواقع أن أبسط صور الزعامة السياسية تتمثل فى المعشر ، حيث يسود الاعتقاد فى المجتمعات البدائية بأن رئيس المعشر قائد بالفطرة . ويتمتع هــذا الرئيس غالبــا بشخصية قوية يؤثر فيمن حوله (٦) . وهو يتحدث فى المناسبات الهامة ويقوم بمهمة حفظ الأمن عن

(٦) د. عاطف وصفى ، مرجع سبقت الاشارة إليه ، ص ص ١٢٥ — ١٤٨ .

طريق فض المنازعات بين أبناء العشر ، ويحدد الموقع المناسب للإقامة .

وتجدر الإشارة إلى أن سلطات رئيس العشر لا تأخذ الشكل الرسمي بل هي صورة عرفية . ولا توجد اية مظاهر للرئاسة او السلطة ، ولا يعاونه أحد فى أعماله ، ولا يتميز عن باقى افراد العشر باية مميزات عينية ، ولكنه موضع احترام الجميع . ويمتاز هذا النظام بنوع من الديمقراطية ، حيث لا توجد مظاهر للدكتاتورية ، ولا يتخذ الرئيس أى قرار إلا بعد موافقة معظم افراد العشر عليه . والغالب ان يكون هذا الرئيس كبير السن ، وذا خبرة فى إقامة الطقوس الدينية ، إذ انه كاهن العشر ايضا .

أما القبيلة فهى تتكون من عدة عشائر ، ولذلك فهى تأتى على خلاف العشر ، بحكم كبر حجم القبيلة ، وارتفاع المستوى الحضارى ، وانتشار المخترعات والفنون الجديدة فيها . ولهذا كان من الضرورى وجود قائد سياسى ليقوم بعملية الضبط الاجتماعى ، ويمثل رمزا تلتقى حوله القبيلة ، ومحورا لوحدتها وتماسكها .

والملاحظ أن زعيم القبيلة **Chief** يختلف عن رئيس العشر **Headman** فى الدرجة وليس فى الكيف (النوع) . إذ انه يتمتع بسلطات اكثر واوضح ، كما أن الوظائف التى يضطلع بها زعيم القبيلة تختلف من مجتمع إلى آخر . وعلى سبيل المثال اوضح اوبلر **Opler** ان زعماء قبائل الاباتشى **Apache** (الهنود الحمر) بأمريكا الشمالية لا يتمتعون بسلطات واسعة . ويحكم القبيلة مجلس برئاسة الزعيم ، ويتكون هذا المجلس من رؤساء العشائر . ويهتم الاباتشى بالتفرقة بين القادة الحربيين الذين يحكمون القبيلة وقت الحرب ، وبين الزعماء المدنيين الذين يحكمونها وقت السلم . ويتميز الزعيم الحربى بمهارة فى القتال ، وبسجل حافل بالانتصارات العسكرية . وقد أكد أوبلر على أن الطريقة الدكتاتورية تسود فى وقت الحرب ، بينما تسود الطريقة الديمقراطية وقت السلم . ولا توجد وظائف سياسية واضحة لزعيم

القبيلة ، ولكن الوظائف الدينية والطقوسية له تزداد أهمية ووضـوحا فى القبيلة ، حيث ينظم الاحتفالات الدينية ويجمع التبرعات والاشتراكات اللازمة لهـذه الاحتفـالات .

ومن ناحية أخرى ، فإن هذه المجتمعات القبلية البسيطة تختلف فيمـا بينها حول طرق انتقال زعامة القبيلة . فبعضها يتبع طريقة الإنتخـاب ، حيث يتولى مجلس القبيلة إنتخاب أحد أعضائه ليكون زعيما ، على حين يطبق بعضها الآخر مبدأ الانتقال الوراثى . وقد ترتب على التمسك بالنظام الوراثى ظهور صورة مبسطة للنظام الملكى . ولعل الوظيفة الأساسية التى يقوم بها النظام الملكى تتمثل فى العمل على استقرار نظام الحكم ، وتماسك القبيلة ، حيث أن الحروب والمشاجرات كانت دائمة الاندلاع بين أجـزاء القبيلة الواحدة عقب وفاة الزعيم ، حول إختيار الزعيم الجديد .

أما النظام الملكى فهو منتشر بين المجتمعات البسيطة فى أفريقيـا وبولينيزيا . ومن خصائص هذا النظام إنعدام الأسلوب الديمقراطى الذى كان يتبعه زعيم القبيلة ورئيس المعشر . ومرد ذلك إلى تمركز السـلطة فى يـد الملك الذى لم يعـد فى حاجـة إلى رؤسـاء العشـائر أو مجلس القبيلة لإعادة انتخاب أحد أبنائه من بعده .

إلا أن تفاصيل النظام الملكى الوراثى ، هى الأخرى موضـع اختلاف بين المجتمعات البسـيطة . ففى معظم مجتمعـات أفريقيـا وبولينيزيا ، يرث أكبر الأبناء الذكور والده بعد الوفاة فيؤول إليه الحكم بالوراثة . وفى بعض القبائل الأخرى ، يطبق نفس المبدأ الوراثى مع بعض المرونة ، حيث يقوم المجلس الملكى أو العشيرة الملكية (التى ينتمى إليها الملك) باختيـار خليفـة الملك المتوفى من بين أبنـائه ، وليس من الضرورى أن يكون أكبر الأبنـاء الذكور .

وتجدر الإشارة إلى أن هذا النظام السياسى لم يكن ليتدعم ويستمر ، من خلال النظم التقليديه والعقائدية فى القبيلة . ولذلك يسـود

الاعتقاد بين أفرادها بأن ملكهم يتمتع بقوى روحية فوق طبيعية Supernatural وبالتالى يساعد الاعتقاد على تدعيم مركز الملك وتثبيت سلطاته ونفاذ أحكامه . وفى كثير من الحالات يكون الملك هو الكاهن الأعظم فى نفس الوقت ، وبالتالى فهو يجمع بين الزعامة الدينية والزعامة المدنية السياسية . وغالبا ما يكون الملك ايضا الزعيم الحربى للقبيلة إذا كان يتمتع بقوة جسدية . أما لو كان طاعنا فى السن او ضعيفا فى البنية ، فإنه يترك قيادة جيش القبيلة لأحد أبنائه ويتفرغ هو لتوفير الرخاء الاقتصادى ، ولسياسة رعيته .

ويعتمد الملك على جهاز إدارى تنفيذى — يتكون من العائلة أو من زعماء القبائل أو العشائر التى تتكون منها المملكة — يراسه . وفى معظم المجتمعات البسيطة بافريقيا يحترم الملك راى غالبية اعضاء المجلس وفى بعض المجتمعات يكون لهذا المجلس الحق فى معاقبة الملك أو إعدامه إذا تبين لهم أن روحا شريرة قد تقمصته وجعلته ديكتاتورا . ويضطلع الملك بوظائف عديدة فى مجتمعه ، وعلى رأسها إعلان الحرب وتنظيم الاحتفالات الدينية ، وتعيين الرؤساء وفض المنازعات بين العشائر . أما رقابة العرف فيقوم بها رؤساء العشائر ورؤساء العائلات .

* * *

ثالثا — نموذج لدراسة انثروبولوجية اجتماعية للنظم السياسية :

تمثل الدراسة التى اجراها كل من إيفانز بريتشارد وفورتيس فى عام ١٩٤٠ على النظم السياسية الافريقية **African Political Systems** إسهاما واضحا فى علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية حول دراسة النظام السياسى ، كما يمكن اعتبارها بمثابة اللبنات الأولى فى تأسيس علم الأنثروبولوجيا السياسية . فهذه الدراسة الهامة تستخدم المقارنة بين هذه النظم السياسية الأفريقية وتبرز منها حالات متمايزة بشكل واضح ، علاوة على احتوائها على مدخل نظرى (٧) .

---

(٧) جورج بالانديه ، بناء الانثروبولوجيا السياسية ، مرجع سابق ، ص ١٨٧ .

ومن جانب آخر فإن ايفانز بريتشارد قد قدم دراسة اخرى أصلية عن شعب النوير بالسودان فى عام ١٩٤٠ ايضا ، واوضح فى هذه الدراسة أن شعب النوير شعب يعيش فى جنوب السودان ، ويتألف من عدد من القبائل التى لا يجمعها شكل من الرياسة ، وبالتالى كان التركيز على البحث عن المبدأ الذى يقوم عليه تكاملهم القبلى أو السياسى . وخلص من دراسته إلى أن حياة الرعى التى يعيشونها ، استلزمت نوعا من النظام السياسى الواسع يساعدهم على الاحتفاظ بأسلوب حياتهم (٨) . ويقوم هذا النظام على نفس بناء القبيلة هناك .

وإذا رجعنا الى دراسة بريتشارد وفورتيس حول النظم السياسية الافريقية ، وجدنا انهما قد اختارا ثمانى قبائل لتمثل النظم السياسية المختلفة الموجودة فى أفريقيا جنوبى الصحراء ، ولاحظا تشابها بين بعض تلك النظم السياسية . ولذلك قسما هذه القبائل إلى مجموعتين متشابهتين وهما :

المجموعة الأولى : وتشمل خمس قبائل هى (زولو) (ونجواتا) (وبمبا) (وبانيانكول) (وكيد) . وتتميز هذه المجموعة بوجود نظام (الحكومة) ، اى لديها سلطة مركزية ، وجهاز إدارى ومؤسسات قانونية . ومن ناحية اخرى يوجد تطابق بين الطبقات القائمة على أساس السلطة والقوة ، والطبقات القائمة على اساس الثروة والامتيازات والمركز .

المجموعة الثانية : وتشمل ثلاث قبائل هى (الجولى) و (تالنسى) و (النوير) . وهى تتميز بعدم وجود نظام (الحكومة) ، اى تنقصها السلطة المركزية والجهاز الإدارى والمؤسسات القانونية . ولا يوجد فى هذه المجتمعات القبلية الثلاثة ، طبقات قائمة على أساس المركز والثروة

---

(٨) ايفانز بريتشارد ، مصدر سابق ، ص ١٥٢ .

أو المكانة ، ولكن توجد أسس أخرى مثل الصلات القرابية والصـــــفات الشـــخصية (٩) .

وفى ضوء النظريات السياسية الحديثة المستخلصة من دراسات حول المجتمعات المتقدمة — وخاصة نظرية أن الدولة لا توجد إلا بتواجد نظـــام الحكومة — يمكن القول بأن المجموعة الأولى تمثل دولا بدائية ، على حـــين تمثل المجموعة الثانية مجتمعات بدون دول . وهكذا أوضحت دراســـــة بريتشارد ونورتيس الميدانية أن المجتمع الانسانى قـــد يوجد ويستمر فى البقاء لقرون من الزمان بدون معرفة نظام (الحكومة) بالمعنى المتعـــارف عليه ، أى وجود سلطة مركزية وجهاز إدارى ومؤسسات قانونية .

والواقع أن هذه الدراسة تحوى معلومات وصفية عديدة حول تلك المجتمعات القبلية الثمانية الممثلة لمعظم القبائل الافريقية . وفى ضوء المقارنة بين هذه المجتمعات ، يمكن التمييز بين المجموعتين الأولى والثانيـــة على أساس سمات ديموجرافية واجتماعية ، بالإضافة إلى الخصائص السياسية السابقة . وتتحدد أهم هذه السمات فيما يلى :

١ — تتكون المجموعة الأولى من وحدات سياسية أكبر حجما من الوحدات السياسية التى تتكون منها المجموعة الثانية وبالتالى يتضح أنه كلما زاد حجم المجتمع كلما احتاج بصورة أقوى إلى سلطة مركزية أى إلى حكومة لجمع الصف والكلمة .

٢ — يوجد ترابط بين وجود نظام الحكومة فى المجتمع وتكوين ذلك المجتمع من مجتمعات مختلفة الأصل وتعدد الأنشطة الاقتصـــادية . أى أن المجتمع الذى يتكون من جماعات مختلفة ، وتتعدد فيه وسائل المعيشة يحتاج إلى سلطة مركزية لتنظيم وجمع الجماعات المختلفة فى وحـــدة سياسية ، وإلا دب الخلاف والانحلال والتفكك بين أوصاله . وإذا

---

(٩) د. عاطف وصفى ، مصدر سابق الذكر ، ص ص ٤٤٨ — ٤٥١ .

زاد التباين بين الجماعات التى يتكون منها المجتمع ، فإنها تتحـول إلى طوائف مغلقة Castes أو طبقات مفتوحة Classes .

٣ — توجد حدود إقليمية للوحدات السياسية الخاصة بالمجموعة الأولى فالوحدة السياسية هى وحدة إقليمية ، وكذلك الحال بالنسبة للوحدات الإدارية ، بحيث لا تتعدى سلطات الحاكم تلك الحدود الإقليمية أما المجموعة الثانية فهى تتكون من مجتمعات لا توجد بها حدود إقليمية تحددها سلطة إدارية ، وتمتد سلطات الحاكم على أساس العلاقات القرابية ، وليس على أساس التواجد فى إقليم محدد .

٤ — توجد (قوة منظمة) فى مجتمعات المجموعة الأولى ، تقوم بتنفيذ أوامر الحاكم وتعليمات جهازه الإدارى ، وتضطلع أيضا بعقاب المخـالف أى أن وظيفة هذه القوة المتخصصة هى حماية الحـاكم وجهـازه الإدارى ، بالإضافة إلى تنفيذ الأحكام والأعراف ، وتخضع هذه القوة للحكومة فقط . على حين لا توجد مثل تلك القوة المنظمة المتخصصة فى مجتمعات المجموعة الثانية ، وذلك لعدم وجود سـلطة مركزية ، وتعدد السلطات غير المنظمة ، ولتساوى السلطات فى القوة .

وهكذا يتضح الترابط بين النظم الاجتماعية وتكاملها ، إذ أن تبـاين النظام السياسى فى المجموعتين ، صاحبه تغيرات أخرى فى النظم الاجتماعية الأخرى . إذن فهذا النظام يؤدى وظيفته فى بناء اجتماعى متعدد الجوانب كما أن هذه الوظائف لا تنعزل عن النظم الأخرى ، بل تتكامل معها .

* * *

رابعا — الإسهامات المتميزة لعلماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية فى المجـال السـياسى :

تجدر الإشارة إلى أن تقدم المجتمعات الحديثة وتطورها ، قد أثار عدة تساؤلات حول طبيعة دور عالم الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، وشكل علاقته بعالم السياسة فى دراسة المجتمعات الحديثة ، سواء الغربية أو الأفريقية

أو الآسيوية . وامتدت هذه التساؤلات أيضا إلى نوع العمل الذى يلائم الأنثروبولوجى ويجيده ويميزه عن عالم السياسة ، عند دراسة الأحزاب السياسية والانتخابات المحلية والحكومات المحلية والوحدات الإدارية فى مختلف بلدان العالم .

الواقع أن الإجابة على هذه التساؤلات توضح بجلاء دور عالم الأنثروبولوجيا الاجتماعية فى مجتمعات اليوم ، وطبيعة الدور الجديد الذى يضطلع به فى دراسة الموضوعات السياسية ، والإسهام المتميز ، الذى يقدمه فى المجال السياسى ويميزه عن عالم السياسة . وفى ضوء ذلك نستطيع أن نحصر هذه الإسهامات فيما يلى (١٠) :

١ — استخدام المنهج الأنثروبولوجى فى العمل الميدانى للنفاذ داخل الجماعات الصغيرة نسبيا ودراستها بعمق — على خلاف عالم السياسة — وبالتالى يستطيع الوصول إلى الجوانب الخفية التى لا تظهر على السطح حول طبيعة الأيدولوجيا الرسمية وأهدافها وسياساتها ، وتكتيكاتها . أضف إلى ذلك أن الأنثروبولوجى يكشف بعمق ووضوح عن الخلفيات التاريخية أو الأسطورية للأيدولوجيا ، وذلك من خلال الغوص فى أعماق التراث وصفحات التاريخ ، ومن خلال دراسة الجماعة ذاتها أو الطبقة الاجتماعية . وكذلك يتفرد الأنثروبولوجى — دون غيره — بأسلوبه المتعمق ، فيتمكن بالتالى من التعرف على العلاقة بين الأيدولوجيات السياسية وبين القيم المحلية أو التقليدية .

٢ — نظرة الأنثروبولوجى إلى الظواهر السياسية فى ضوء فكرة العلاقات الاجتماعية . ومن ثم يستطيع التعرف على شبكة العلاقات والاتصالات غير الرسمية التى تستند إلى الإنتماء إلى طائفة أو طبقة أو جماعة

---

(١٠) ... يل صبحى ، مرجع سابق ، ص ص ١٠١ — ١٠٥ .

قرابية ... الخ . وفى ضوء هذه النظرة صار الأنثروبولوجيون يركزون على عـدة موضوعات معينة فى المجتمعـات الحديثة حول النظـام السياسى . ومن هذه الموضوعات دراسة الصراع بين الأشـخاص والصراع بين القواعد ، ودراسـة العلاقة بين المجتمعات المحلية وبين الحكومة أو الإدارات المركزية ، وتناول تأثير السياسة فى القـرية والوحدات المشابهة على السياسة القومية . وقد أفادت دراسـة النظم السياسية علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية فى تعديل اتجاههم الوظيفى الذى يتبنونه فى دراساتهم ، ومن ثم مراعاة فكرة التغير عند تناول هذه النظم السياسية ودراستها .

* * *

الفصل التاسع

النظـام الاقتصـادى

الفصل التاسع

النظام الاقتصادى

مقدمة :

تبدو أهمية أى نظام اجتماعى فى ضوء ما يقوم به من نشاط ، ومدى ما يضطلع به من وظائف . وقد وجد كل نظام فى المجتمع البشرى ليحقق وظيفة أساسية تحافظ على استمرار الحياة الاجتماعية واستقرارها . وبالتالى تعتبر الوظيفة الأساسية لأى نظام هى التى تحدد معالمه وتبرزه بشكل واضح ، وتميز أهميته .

فإذا نظرنا إلى النظام الاقتصادى ، وجدنا أهميته تزداد بمرور الوقت فى أى مجتمع إنسانى — بدائى بسيط أو صناعى حديث — للوفاء بالمتطلبات المعيشية التى لا يمكن توفيرها إلا من خلاله . فإنتاج السلع والمواد المختلفة التى يحتاج إليها أعضاء الجماعة ، ركن هام فى النظام الاقتصادى ، إلا أنه ليس أهم الأركان . إذ أن استخدام فنون الصناعة فى زيادة الانتاج ، لايفى وحده لإقامة إقتصاد المجتمع ، بل لابد من وضع التوزيع العادل للإنتاج فى الاعتبار (١) . ويتضمن النظام الاقتصادى — بالإضافة إلى الإنتاج والتوزيع — نظما فرعية أخرى كالاستهلاك والتبادل .

والواقع أن علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية حينما يدرسون النظم الاقتصادية ، فإنهم يتناولونها فى جماعة سكانية ، قد تكون القبيلة أو العشيرة أو الدولة أو الجماعات التى تخضع لقيادة معينة . وفى هذه الحالة لا يعتبر النظام الاقتصادى نظاما مستقلا . وإنما يعتبر جزءا من النسق الاجتماعى العام . ويتشابك داخل هذا النظام الاقتصادى أيضا مجموعة النظم الاقتصادية الفرعية كالانتاج والاستهلاك والتوزيع والتبادل . وبالتالى فإن

---

(١) د. فاروق العادلى ، علم الاجتماع : أسس نظرية وتطبيقات عملية ، دار الكتاب الجامعى ، القاهرة ، ١٩٨٦ ، ص ١٨٥ .

الانثروبولوجى يحاول قياس المتغيرات المتعلقة بالنظم الاقتصادية والتعرف على مدى تفاعلها مع بعضها وتفاوتها من مجتمع إلى آخر (٢) . وتزداد المحاولة أهمية عند دراسة هذه النظم فى المجتمعات البدائية والبسيطة عموما .

ومن ناحية أخرى ، فإذا كان النظام الاقتصادى جزءا من البناء الاجتماعى العام للمجتمع ويؤثر فيه ، فإن النظم الاجتماعية الأخرى تلعب دورها البارز فى تشكيل هذا النظام الاقتصادى وتحديد معالمه . ولذلك نلاحظ أن الجماعة القرابية وفئة السن تمثلان وحدات إنتاجية فى المجتمعات البسيطة . كذلك تحدد شبكة القرابة نظم التوزيع ، كما تنظم الطقوس عمليات الانتاج والتبادل والاستهلاك . وفى ضوء ذلك لا يمكن وصف الانسان البدائى بأنه (إنسان إقتصادى) ، لأنه يوازن بين القيم الاقتصادية وبين القيم الأخرى ، ويرجح هذه القيم الأخرى — كالتماسك والفن والجمال وغيرها — على القيم الاقتصادية . ولا تقتصر هذه الخاصية على المجتمعات البدائية فحسب ، وإنما تتعداها لتشمل المجتمعات التقليدية المعروفة — الريفية والبدوية على سبيل المثال — ولذلك يصعب تحليل النظام الاقتصادى بمعزل عن البناء الاجتماعى الكلى . إلا أن المجتمعات الوحيدة التى يمكن دراسة النظم الاقتصادية فيها على أنها نظم مستقلة هى المجتمعات الراسمالية الحديثة .

وفى ضوء هذا الفهم ، نجد النظريات الاقتصادية الحديثة تخفق عندما نطبقها على المجتمعات البدائية والبسيطة . فإذا كنا نقارن بين النشاط الاقتصادى فى المجتمعات الحديثة والمجتمعات البسيطة ، فسوف نواجه إختلافا واضحا بينهما فى الكيف أو النوع وليس فى الدرجة . ومن خلال هذا التباين لا تصدق نظريات النقود ونظرية القيمة وقانون العرض والطلب

---

(٢) د. نبيل صبحى ، مرجع سابق ، ص ١٠٥ .

... الخ ، على المجتمعات البسيطة (٣) . ويرجع ذلك الاختلاف الكيفى إلى عدة عوامل مثل الاندماج الكلى بين النظم الاقتصادية والنظم الاجتماعية الاخرى فيها . إذ يرمز تبادل السلع إلى واجبات اجتماعية لا يمكن فهمها إلا بالرجوع إلى النظم الاجتماعية الأخرى العائلية والدينية والسياسية . اما فى المجتمعات الحديثة نجد النشاط الاقتصادى ذا نظام خاص ، ولكن لا يمنع ذلك من التأثير المتبادل بينها وبين النظم الاجتماعية الاخرى . ويرجع الاختلاف الكيفى ايضا إلى عدم توافر اسس الاقتصاد الحديث فى المجتمعات البدائية والبسيطة كالصناعة ذات الإنتاج الضخم ، والسوق الحديث والتخصص الدقيق فى عمليات الإنتاج ، والتوزيع والميكنة المعقدة .

ولا يخلو مجتمع بشرى من النظم الاقتصادية — إذن — مهما كانت درجة تخلفه او بدائيته . فالإنسان يأكل ليعيش ، والإحساس بالجوع يدفعه للبحث عن الطعام . وبفضل الطعام — وغيره — يستمر جسم الانسان حيا ، وتتوالد الطاقة اللازمة لحركته وانشطته .

وتعنى النظم الاقتصادية الأساليب المستخدمة فى إشباع حاجات الإنسان المادية . ورغم تنوع تلك الأساليب ، فإنها تتفق فى الشكل العام الذى يتمثل فى نشاط يجمع ثلاثة عناصر هى الموارد والأدوات والعمل الإنسانى (٤) . ونلاحظ ان الموارد الاولية الموجودة فى البيئة لا تعتبر موارد إلا إذا استغلها الإنسان . فكليات الفحم الهائلة الموجودة فى ولاية بنسلفانيا الأمريكية لم تكن موردا اقتصاديا بالنسبة للهنود الحمر الذين لم يعرفوا كيفية استغلالها .

وفى ضوء هذه المقدمة السريعة حول النظم الاقتصادية ، نتناول فى هذا الفصل العناصر التالية :

---

(٣) د. عاطف وصفى ، مصدر سابق ، ص ١٢٣ .

(٤) Cultural Anthropology, op. cit., pp. 282 - 284

أولا : أهم الموضوعات التى يركز عليها الأنثروبولوجى فى دراسة النظم الاقتصـــادية .

ثانيا : النظم الاقتصادية فى المجتمعات البدائية والبسيطة .

ثالثا : نموذج تقليدى لدراسة أنثروبولوجية للنظم الاقتصادية .

* * *

أولا — أهم الموضوعات التى يركز عليها الأنثروبولوجى فى دراسة النظم الاقتصـــادية :

عندما يتصدى الأنثروبولوجى الاجتماعى لدراسة النظم الاقتصادية ، فإنه يركز على موضوعات معينة ، نذكر منها ما يلى (٥) :

١ — مقارنة النظم الاقتصادية الصغرى بدءا من المجتمعات المحلية المعزولة ذات التكنولوجيا البسيطة ، إلى المجتمعات البسيطة ، إلى المجتمعات الزراعية التى تأثرت كثيرا بالتصنيع . وفى نفس الوقت يدرس الباحث الأنثروبولوجى — فى المجتمعات الصناعية الكبرى — إقتصـــاديات الأقاليم النامية مثل اقتصاديات الأكواخ والمزارع الصغيرة فى الجزر البريطانية على سبيل المثال .

٢ — دراسة مكونات النسق الاقتصادى مثل إبراز اشكال ملكية الأرض ، وأساليب تنظيم الانتاج وحركة الأيدى العاملة وتقسيم العمل والحراك المهنى ونظام الالتزام ، ودائرة ومجالات التبادل ، ونظم واشـــكال النقود ، ومستويات الاستهلاك ومستويات المعيشة ، وعلاقة توزيع الثروة بالمكانة الاجتماعية .

٣ — إلقاء الضوء الكافى على عمليات النمو الاقتصادى ، سواء كان ذلك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة . كذلك أبرزت دراسات التنميـــة

---

(٥) ...يل صبحى ، مرجع سابق ، ص ص ١٠٦ — ١٠٧ .

الاقتصادية موضوع الاستثمار والالتزام . كما ساهم الأنثروبولوجيون — مع علماء الاقتصاد — فى دراسة التراكم واستخدام رأس المال الزراعى . واسهموا كذلك فى تشخيص معوقات التنمية فى المجتمعات والنظم التقليدية . وقد تعددت دراسات علماء الأنثروبولوجيا وتنوعت فى المجال الاقتصادى ، فدرسوا اقتصاديات الزراعة وآثار استصلاح الأراضى واستزراعها ونمو المزارع وهجرة العمالة ، والعلاقة بين الاستحواذ على الأرض وبين جوانب أخرى فى البناء الاجتماعى .

وفى نفس الوقت درس علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية أنواع الإنتاج فى مجتمعات الصيد والجمع ورعى الحيوان (*) ، ولكنهم اهتموا بالظواهر الاقتصادية فى ضوء علاقتها بالبيئة ، وبأساليب البقاء ، وبالبناء الاجتماعى العام أكثر من دراستها دراسة أنثروبولوجية اقتصادية مستقلة . إلا أن هناك دراسات أجريت على مجتمعات صيد السمك وعلى مراحل مبكرة من نمو التخصص فى إنتاج بعض العناصر غير الغذائية بهدف التجارة .

أضف إلى هذا ، فقد أجرى الأنثروبولوجيون دراسات كثيرة على الأسواق والعمليات التى تتم داخلها ، وعلى عمليات التبادل والاستدانة ، والأسهم وتبادل النقود ... الخ . وهناك دراسات حديثة عن الإدخار وكيفية استخدام رأس المال فى الارتفاع بمستوى الاستهلاك فى المستقبل .

وفى ضوء هذه الإسهامات الأنثروبولوجية العديدة فى دراسة النظم الاقتصادية ، تثار قضية هامة تتعلق بعلاقة الأنثروبولوجى بالاقتصاد ، وعلاقة الاقتصادى بالمفاهيم الاجتماعية ، وتحليل السلوك الاقتصادى فى المجتمعات البسيطة . وتمتلىء الساحة بآراء ومساجلات حول تحديد المناهج وأساليب البحث المستخدمة فى الاقتصاد الحديث . وإزاء هذه المناقشات تطالعنا وجهة نظر تقرر أن الاقتصادى لا يمكن أن يساعد دارس

(*) سنشير الى ذلك بالتفصيل فى الفقرة (ثانيا) القادمة .

الأنثروبولوجيا الاجتماعية طالما أن مجال اهتمام كل منهما يختلف عن الآخر، حيث تختلف اقتصاديات المجتمعات البدائية عن اقتصاديات المجتمعات المتقدمة ، حسبما أشرنا فى مقدمة هذا الفصل . إلا أن هناك وجهه نظر أخرى ، تذهب إلى أن المفاهيم والمبادىء الاقتصادية — التى تطبق على المجتمعات المتقدمة المعقدة — يمكن أن تنطبق على اقتصاديات المجتمعات الصغرى أيضا (٦) . وفى ضوء هاتين النظريتين ينبغى على الأنثروبولوجى الإلمام بالنظرية الاقتصادية إذا أراد أن يفسر الظاهرة التى يدرسها بكفاءة . وعليه أيضا أن يتسلح ببعض المعرفة التى تمده بها النظرية الاقتصادية ، مع مراعاة أنها قد لا تصلح لتفسير النظم الاقتصادية البدائية . وهنا يستفيد من تراث الأنثروبولوجيا حول مجتمعات متشابهة ، بالإضافة إلى إعتماده على دراساته الميدانية المتعمقة .

* * *

ثانيا — النظم الاقتصادية فى المجتمعات البدائية والبسيطة :

تتسم النظم الاقتصادية فى المجتمعات البدائية بالبساطة إذا قورنت بالمجتمعات المتقدمة المعقدة . ومن ناحية أخرى تختلف هذه النظم الاقتصادية فيما بينها من مجتمع بدائى إلى آخر ، ولعل ابسط تلك النظم هو نظام جمع الطعام ، ويتلوه نظام الصيد ، وفى الغالب يوجد النظامان معا مع تغلب أحدهما على الآخر . وقد استطاع الإنسان بعد فترة طويلة اكتشاف نوع آخر من النظم الاقتصادية ذى كيفية متميزة ، وهو نظام إستئناس الحيوان — من خلال نظام الرعى — واستزراع النبات (نظام البستنة) . وفيما يلى عرض مختصر لهذه النظم التى اشارت إليها الدراسات الأنثروبولوجية للنظم الاقتصادية (٧) :

---

(٦) د. نبيل صبحى ، المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

(٧) د. عاطف وصفى ، مرجع سابق ، ص‌ص ١٣٥ — ١٣٨ .

١ — **نظام جمع الطعام** Food Gathe ing وكان هذا النظام سائدا بين قبائل الأندامان و (تسمانيا) و (سيمانج) في بولينيزيا ، وقبائل الأقزام في أفريقيا ، وبعض قبائل الهنود الحمر مثل (الشوشون) . وكانت هذه المجتمعات تعيش على الجذور والبذور ، نظرا لندرة الحيوانات في أقاليمهم (٨) . وقد أسماهم الأوربيون (بالحفارين) Diggers لكثرة حفرهم الأرض بحثا عن الطعام بعصا مدببة الطرف . وكانوا يجمعون بذور النبات والجذور والثمار أمثال عباد الشمس والجوز واللوز ويتعيشون عليها .

٣ — **نظام الصيد** Hunting : وهو أكثر النظم الاقتصادية انتشارا في المجتمعات البدائية ، ولا يوجد بمفرده وإنما يقترن بوسائل ونظم أخرى — خاصة عند فشل الصيد — كجمع الجذور والبذور والفاكهة والبيض وافراخ الطيور . ويعتبر نظام الصيد أقل بساطة من نظام جمع الطعام ، وذلك لاختراع ادوات متعددة للصيد كالهراوة والحربة والنبلة والسهم والفخ والشرك والشبك والسفود والسنارة والبلطة والسكين والسموم . كذلك إخترع الانسان البدائي الحيل التي يخدع بها الفريسة فيصيدها كأن يلبس جلد حيوان (٩) . وتدور حول الصيد معتقدات وطقوس سحرية وتعاويذ لضمان نجاحه والملاحظ ان مجتمعات الصيد والجمع تتصف بصغر الحجم لان طبيعة النظم الاقتصادية لا تحقق فائضا . كذلك يتشابه النشاط الاقتصادي الذي تقوم به العائلة والمجتمع المحلي ، علاوة على أن كل مجتمع يمثل وحدة إنتاجية واستهلاكية في نفس الوقت .

---

(٨) انظر : Introduction to Anthropology, op. cit., pp. 318 - 320.

(٩) انظر : Ibid. p. 348.

٣ — نظام البستنة Horticulture : وهو نظام اقتصادى اكثر وفرة واقل جهدا من الصيد والجمع ويعتمد على استئناس النبات والحيوان ، بعد أن تحول الإنسان إلى مزارع وراع (١٠) .

وفى حالة استئناس النبات نجد صورتين مختلفتين أولاهما تسمى نظام البستنة وثانيتهما تسمى الزراعة Agriculture . ويكمن الفارق بينهما فى أن الأولى تستخدم الأدوات الزراعية كالمحراث ، على حين تستخدمه ثانيتهما أى الزراعة . ولعل الزراعة تمثل نظاما اقتصاديا أكثر تركيبا وتقدما من نظام البستنة . وتستعمل فى نظام البستنة أدوات يدوية مثل عصا الحفر والفاس ، ويغل الحبوب كالقمح والذرة العويجة والذرة الصيفى ، والجذور كالبطاطس والبطاطا والكسافا (نبات يشبه البطاطا) ، وهى محاصيل أساسية لغذاء مجتمعات البستنة . ويتضمن هذا النظام أيضا قطع الأشجار وخلع الأعشاب وإعداد الأرض لبذر البذور . وقد ساد معظم قبائل الهنود الحمر وأوروبا وشمال افريقيا . ويساعد نظام البستنة كذلك على نمو حجم المجتمع وزيادة سكانه نسبيا ، ولكنه لا يعمل على استقرار المجتمع فى مكان واحد ، بل يدفعه للإنتقال وراء الأماكن الجديدة الخصبة حتى تضعف خصوبتها فينتقل إلى غيرها لإفتقاد فنون التسميد ، وفى هذه الحالة يتعرض المجتمع لمخاطر سوء الأحوال الجوية وهجوم الحشرات والطيور على المحاصيل .

أما نظام الزراعة فهو وليد منطقة الشرق الأوسط وخاصة فى العراق وايران والشام ومصر ، إذ تمثل مهد الزراعة . ومن الملاحظ أن العلماء يحددون وقت ظهور اختراع الزراعة فى هذه المنطقة منذ فترة تتراوح ما بين ١٥ — ٢٠ الف سنة سابقة . وإذا كانت زراعة الذرة الشامية تركزت فى

---

(١٠) انظر : Peter Roger, op. cit., p. 349

أمريكا الشمالية ، وزراعة الكسافا فى أمريكا الجنوبية ، فقد تركزت زراعة القمح والشعير فى أوربا والشرق الأوسط ، وتركزت زراعة الأرز فى آسيا واندونيسيا ومصر .

لذلك تطور نظام البستنة إلى نظام الزراعة الذى يتميز باستخدام المحراث ونظم الرى المعقدة ، مما أدى إلى زيادة السكان فى المجتمع وتوفير فائض فى المحاصيل الزراعية ، فنشأت المدن وظهرت الحضارة ، وتقدمت الصناعة والعلوم وارتفع مستوى المعيشة فى المجتمعات المتقدمة . أما المجتمعات البدائية والبسيطة فقد ظلت تعيش على نظام البستنة .

٤ — نظام الرعى Herding, Postoralism : عندما استخدم الانسان البدائى ذكاءه وتحسنت ظروف حياته ، استطاع أن يتكيف مع ظروف بيئته من خلال التوصل إلى أسلوب الرعى . ويتركز هذا النظام فى آسيا وافريقيا ، ويندر وجوده فى الأمريكتين واستراليا . ففى افريقيا توجد الصحراء الكبرى ومناطق السافنا فى شمال السودان وشرق وأقصى جنوب افريقيا حيث ترعى قبائل (الهوتنتوت) و (الهيرور) الماشية . وفى آسيا تمتد سهول الإستبس من بحر قزوين إلى حدود الصين ، وعاشت فيها قبائل (المغول) و (التتار) و (التازاك) . وتوجد فى الشمال قبائل (لاب) و (ياكوت) و (كورياك) التى ترعى حيوان الرنة .

ومن الملاحظ أن عدد المجتمعات البدائية ، التى تعتمد على الرعى فقط فى معيشتها ، اقل كثيرا من المجتمعات التى تجمع بين البستنة ، والرعى . وتجدر الإشارة إلى ان المجتمعات البدائية لا تحسن الاستفادة من الحيوانات التى ترعاها ولا تستغل كل الفوائد الاقتصادية للرعى . مما دفع روبرت لوى R, Lowie إلى القول بأن الأسباب التى دفعت الإنسان إلى استئناس الحيوان ، لم تكن الفوائد العملية ، وإنما عوامل اخرى مثل ذبح تلك

الحيوانات فى المناسبات الدينية أو استخدامها كحيوانات اليفة .

وعلى الرغم من أن نظام الرعى يسمح بوجود مجتمع أكبر حجما من مجتمعات الصيد والجمع ، إلا أنه يدفع بالرعاة إلى الحركة والانتقال بحثا من الكلأ والمرعى . ويفرق العلماء بين نوعين من رحلات الرعاة ، فالأول منهما يسمى (رحلات دائرية طويلة الأمد) Nomadism وفيها ينتقل الرعاة من مكان إلى آخر ، سالكين طريقا محددا يتخذ شكل الدائرة ، وكان يسود بين معظم قبائل البدو فى شبه الجزيرة العربية . أما النوع الثانى فيسمى (رحلات موسمية) Transhumance وتستغرق الرحلة الواحدة حوالى عام ، ويوجد عند الرعاة الهنود والباكستانيين إذ ينتقلون — دائما — مع ماشيتهم إلى الجبال صيفا ، ويعودون إلى أماكنهم الأصلية شتاء . وتتسم المجتمعات الرعوية بتواضع ممتلكاتهم المادية ، بسبب ظروف الظعن الدائم ، واحتقار حياة الاستقرار فى القرى واحتراف الزراعة ، والتحلى بالكرم والشجاعة .

* * *

ثالثا — نموذج تقليدى لدراسة انثروبولوجية للنظم الاقتصادية :

يدور هذا النموذج حول دراسة مالينوفسكى B Malinowski حول النظام الاقتصادى فى مجتمع التروبرياند ، وخاصة الكولا Kula وهى دراسة واقعية أجراها مالينوفسكى بنفسه باستخدام المنهج الانثروبولوجى المتميز ، وباستخدام لغة الأهالى انفسهم . ولذلك كان أقدر على وصف وتشخيص النظام الاقتصادى ، وإبراز علاقته بباقى النظم الاجتماعية والثقافية الأخرى فى المجتمع . ويوضح لنا أن سكان هذه الجزر يدخلون مع سكان بعض الجزر المجاورة فى نوع من التحالف أو الاتفاق الذى يهدف الى تبادل اشياء وسلع معينة تتألف من عقود طويلة من الصدف الأحمر واساور من الصدف الابيض . ويتألف نسق التبادل فى أن العقود تنتقل من مجتمع لآخر فى اتجاه واحد لا يتغير حول محيط الدائرة التى تنتظم هذه الجزر ، بينما تنتقل الأساور فى الاتجاه المضاد .

وليس لهذه السلع اى قيمة عملية على الإطلاق ، وإن كانت ذات قيمة شعائرية (ثقافية) ، كما انها تتصل إتصالا بالمركز الذى يحتله الفـرد فى المجتمع (اجتماعية) . فمكانة الفرد تعلو وترتفع بحسب نوع الاشياء التى يحصل عليها من هذه المبادلات ، وبخاصة الاشياء النادرة التي لهـا قيمة طقوسية عالية ، كما يذيع صيته وشهرته بين الجزر الأخرى ، حين ينزل من هذه الاشياء لغيره من الناس الداخلين فى نظام الكولا بعد احتفـاظه بها لنفسه بعض الوقت (١١) »

ويرتبط كل فرد من الأفراد — الذين يشاركون فى هـذه المبادلات — بأفراد آخرين فى الجزر الأخرى ، ويعتبرون بمثابة عمـلاء أو شركاء له . وتتم المبادلات بين هؤلاء الشركاء فى جو يسوده غير قليل من التكلف والرسميات والجد والوقار الذى يتنزه عن النزول إلى مستوى المساومة . ولكن الناس لا يلبثون ان يعقدوا — بعد إتمام المبادلات الشعائرية — عمليات تجـارية عادية ، يساومون فيها على الطعام والسلع الاستهلاكية الأخرى التى لهـا قيمة عملية . وعلى اية حال ، فالكولا بمعناها الصحيح الدقيق هى نظـام التبادل الشعائرى الذى بمقتضاه تنتقل العقود والأساور من جزيرة لأخرى فى حركة مستمرة دائمة .

وللقيام بهذه المبادلات ينظم رؤساء القرى ، ومجموعات القرى المتجاورة بعثات تجارية كبيرة . والخروج فى مثل هذه البعثات او الرحلات يعنى تجهيز القوارب ، كما يستلزم الإلمام الوافى بفنون الملاحة واصولهـا ، ومعـرفة التعاويذ السحرية التى يستعينون بها فى التغلب على مفاجآت الرحـلة ومخاطر السفر ، كما يتطلب معرفة التقاليد والأساطير التى يسترشد بهـا الأرجونوتس Argonauts (سكان الجزر) فى رحلاتهم ، والتى توجه مفاوضاتهم ... الخ . ومن خلال هذه الدراسة كان مالينوفسكى ينفصـل

---

(١١) ايفانز بريتشارد ، مرجع سابق ، ص ص ١٤٠ — ١٤١ .

القول فى السحر والأســاطير ، ويصف المنــاظر المختلفة التى يمر بهــا الارجونوتس فى رحلاتهم ، ويشرح طريقة زراعة الحدائق ، ويبين المركــز الاجتماعى للمرأة هناك . كما يصف طريقة بناء القوارب ووسائل تسييرها . لذلك كانت الدراسة نموذجا يوضح النظرة الانثروبولوجية للنظام الاقتصادى فى المجتمعات البدائية والبسيطة حيث أوضح فيها مالينوفسكى فكرته عــن النسق الاجتماعى Social System ، وتصوره للتحليل الوظيفى لهــذا النســق .

* * *

الباب الثالث

الأنثروبولوجيا الاجتماعية
ودراسة التغير الاجتماعي

الفصل العاشر :

تغير نظم العائلة والقرابة في المجتمع العربي .

الفصل الحادي عشر :

التغير الاجتماعي : الأنماط والعوامل .

الفصل الثاني عشر :

النظرية الوظيفية وقضية التغير الاجتماعي .

* * *

الفصل العاشر :

تغـــير نظم العائلة والقرابة
فى المجتمع العربى

الفصل العاشر

تغير نظم العائلة والقرابة فى المجتمع العربى (*)

مقدمة فى اهمية النظم العائلية والقرابية :

العائلة أو الأسرة هى الخلية الأولى للحياة الاجتماعية وهى وحدة اجتماعية يقترن فيها رجل بامرأة ، فى علاقة مشروعة يقرها العرف والدين، تسفر عن إنجاب ابناء ، وتجمعهم جميعا معيشة مشتركة فى مكان محدد (١)، والواقع أن هذا التعريف ينصب على الأسرة الصغيرة او النووية ، والملاحظ أن هذه الجماعة (الأسرة) تتخذ اشكالا تختلف باختلاف المجتمعات والثقافات البشرية فى شتى أنحاء العالم .

والأسرة ايضا هى مسرح للتفاعل الاجتماعى الذى يتلقى فيه الكائن البشرى أهم العمليات الاجتماعية وهى التنشئة الاجتماعية **Socialization** وعلاة على هذا فالأسرة اساس التنظيم الاجتماعى ، ومن مجموع الأسر يتكون المجتمع البشرى ، وفى قوة الابنية الأسرية تتجلى قوة المجتمع (٢) ، وبالتالى يرتبط تقدمه بدرجة كبيرة بمدى تقدم تلك الأسر المختلفة المكونة للبناء الاجتماعى .

وقد حظيت الأسرة بقسط وافر من اهتمام علمى الاجتماع والانثروبولوجيا طوال القرنين التاسع عشر والعشرين ، حتى تراكم تراث علمى حول اهميتها فى المجتمع الانسانى ، والوظائف التى تضطلع بها ، وانماط الأسرة واشكالها

(*) قدم المؤلف هذا البحث الى « ندوة المرأة فى المجتمع العربى » التى تنظمها وحدة بحوث علم الاجتماع بمركز بحوث العلوم الانسانية بجامعة قاريونس بالجماهيرية العربية الليبية .

(١) د. على المكاوى ، الانثروبولوجيا الاجتماعية : الموضوع والمنهج والتطبيقات ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ، ١٩٨٩ ، ص ٤ ٨.

(٢) د. صالح على صالح الزين ، الاسرة وابعادها فى النظريات الاجتماعية المعاصرة ، مقال منشور بمجلة الوحدة ، العدد ٥٠ ، نوفمبر ١٩٨٨ ، الرباط ، ص ٩٦ .

المختلفة ونظم وعادات الزواج وتطورها واختلافاتها بفعل عوامل التغير ، غير أن إسهامات علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية قد فاقت إسهامات علماء الاجتماع ، ولذلك يغلب الطابع الأنثروبولوجى على دراسات الأسرة .

والواقع أن الأسرة تقوم على الزواج ، والزواج يقيم علاقات قرابية جديدة ، فتمتد شبكة العلاقات القرابية وتتسع معها تأثيرها وأدوارها فى الحياة الاجتماعية وتكتسب بالتالى أهمية وجاذبية خاصة تثير انتباه علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع ، وإذا كانت القرابة تحظى بهذا الاهتمام والأهمية فى المجتمعات العالمية بصفة عامة ، فإنها أكثر أهمية وبروزا فى مجتمعنا العربى الإسلامى على نحو خاص . ومن الواضح أن النظم القرابية تتصل اتصالا وثيقا ببقية النظم الاجتماعية الأخرى التى تكون البناء الاجتماعى .

وإذا كان الاهتمام بدراسة النظم القرابية حديثا نسبيا ، على عكس الحال بالنسبة لدراسة الزواج والأسرة ، إلا أن تراثنا العربى الاسلامى حوى إشارات ولمحات بالغة الأهمية حول هذا الموضوع ، وبالتالى كان علماؤنا العرب على وعى تام بأن دراسة الزواج والعائلة تعتبر المدخل الطبيعى لدراسة النظم القرابية . ولعل ابن خلدون ، سبق له الانتباه إلى نظم القرابة فى مجال حديثه عن العصبية ، ووضع نظرية متماسكة نقلها عنه كثير من المستشرقين ، وبخاصة « روبرتسون سميث » R. Smith لكى تنقل بعد ذلك إلى علماء الأنثروبولوجيا البريطانيين امثال ايفانز ريتشارد E. Pritchatd وتلاميذه الذين اهتموا بدراسة النظم القرابية فى أفريقيا والعالم العربى (٣) .

---

(٣) د. حمد أبو زيد ، البناء الاجتماعى ، جـ ٢ ، الانساق ، مرجع سابق ، ص ٢٧٤ .

وحول ابن خلدون واسهاماته أنظــر :

— عبد الرحمن بن خلدون المقدمة ، ط ٥ ، دار العلم ، بيروت ، ١٩٨٤ .

— المركز القومى للبحوث الاجتماعية ، أعمال مهرجان ابن خلدون المنعقد فى القاهرة فى الفترة من ٢ — ٦ يناير ١٩٦٢ ، ص ١٠٦ وما بعدها .

إن مصطلح القرابة Kinskip يعنى وجود رابطة دم ، وقيام صلة بيولوجية بالفعل ، وبالتالى فالقرابة تحوى جانبين متكاملين هما الجانب البيولوجى والجانب الاجتماعى الذى يحدده المجتمع. والنظام القرابى ذاته يعتبر أحد التقسيمات التى يضعها المجتمع حيث يقسم الناس إلى جماعات متمايزة يربط بينها بروابط القرابة . إضافة إلى ذلك، فإن المجتمع يجعل القرابة نوعا من الترتيب الذى يتيح لأبنائه الحياة المنظمة القائمة على التعاون ، ومن ناحية أخرى فإن القرابة نوعان ، أولهما هو القرابة الدموية العاصبة Consanguinity وهى القرابة البيولوجية ، والنوع الثانى هو قرابة المصاهرة Affinity وهى ناجمة عن الزواج أساسا .

وفى ضوء تلك الأهمية التى تتمتع بها النظم العائلية والقرابية فى المجتمع البشرى عامة ومجتمعنا العربى بصفة خاصة ، فإننا سوف نتناول هذا الموضوع من خلال العناصر التالية :

أولا : أهم النظم العائلية فى مجتمعنا العربى .

ثانيا : أهم النظم القرابية فى المجتمع العربى .

ثالثا : عوامل التغير الاجتماعى والثقافى فى النظم العائلية والقرابية .

رابعا : مظاهر التغير فى النظم العائلية والقرابية فى المجتمع العربى .

خامسا : خاتمة حول العائلة والقرابة العربية فى المستقبل .

* * *

أولا — أهم النظم العائلية فى مجتمعنا العربى :

توجد فى مجتمعنا العربى عدة نظم عائلية منها النظم البسيطة كنظام الأسرة النووية أو الصغيرة Neuclar Family ، ومنها النظم المعقدة كنظام العائلة المركبة Complex Family والعائلة الممتدة Extended Family والواقع أن هذه النظم العائلية تقوم على أسس مختلفة ، وتنشأ نتيجة لبعض النظم الخاصة بالزواج أو الإقامة (٤) . وفيما يلى نستعرض أهم هذه النظم العائلية :

---

(٤) د. أحمد أبو زيد ، البناء الاجتماعى ، المرجع السابق ، ص ص ٣١٤ — ٣١٥ .

٤ — نظام الأسرة النووية Neuclar Family :

وهى وحدة اجتماعية صغيرة الحجم تضم الزوج والزوجة وابناءهما المباشرين فقط ، وتعتمد هذه الأسرة على وحدانية الزوج ووحدانية الزوجة، وهو ما يسمى بالزواج الأحادى monogamy (٥) . وتدل صفة النووية على صغر الأسرة باعتبارها نواة أو خلية . وفى أحيان أخرى تسمى بالأسرة الزواجية Conjugal Family ، ويحاول البعض تسميتها بالأسرة الصغيرة تميزا لها عن الأنواع الأخرى من الأسر الكبيرة (٦) وتتسم تلك الأسرة بعدة خصائص متميزة فى شتى أنواع المجتمعات الانسانية — البسيطة والمركبة — تتمثل فى كونها ظاهرة اجتماعية عالمية لا يخلو منها مجتمع بشرى، وهى أيضا تنطوى على خاصية مزدوجة ، حيث ينتمى كل من الزوج والزوجة إلى أسرتين فى نفس الوقت . كذلك فالأسرة النووية لا تستمر لفترة تزيد على قرن من الزمان ، علاوة على أن اعضاءها يعيشون فى مكان واحد مستقل فلا يمكن إتمام مراسم وطقوس الزواج مثلا دون تدبير مسكن للزوجين . وأخيرا تعتمد تلك الأسرة على الزواج الأحادى ، الذى ربط الأنثروبولوجيون فى القرن التاسع عشر بينه وبين مرحلة التقدم الحضارى ، وبالتالى قصروه على المجتمعات الحديثة . إلا أن الدراسات الانثروبولوجية المقارنة التى اجراها ميردوك Murdock وهوبل Hobel اثبتت خطأ هذا الرأى.

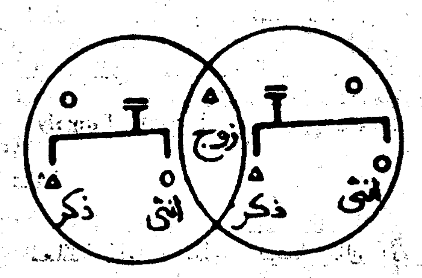
والواقع أن نظام الأسرة النووية ينتشر فى كافة المجتمعات العربية فهو موجود فى مصر والسودان وفى الجماهيرية الليبية ومجتمعات الخليج العربية والمغرب العربى ، وان كان معدل انتشاره أكثر ارتفاعا فى المناطق الحضرية عن المناطق الريفية والبدوية . وهذا ما سنشير إليه بالتفصيل لاحقا .

---

(٥) د. على المكاوى : الانثروبولوجيا الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص ص ٨٤ — ٨٥ .

(٦) د. عاطف وصفى : الانثروبولوجيا الاجتماعية ، مرجع سابق الذكر ص ص ٩١ — ٩٣ .

٢ — نظام العائلة التعددية **Polygynous Family** أو الأسرة المركبة **Complex Family** : يوجد هذا النظام العائلي ، حيث يوجد نظام تعدد الزوجات **Polygyny** ، وينتشر في المجتمعات البسيطة والمجتمعات العربية الاسلامية . وهو يضم الرجل وزوجاته وابناءه منهن . وبالتالي فالعائلة المركبة عبارة عن عدد من الأسر البسيطة التي ترتبط معا لتؤلف وحدة قرابية ، نتيجة لوجود عضو مشترك يربط بينها كلها وهو الزوج . وتتسم هذه العائلة أيضا بوجود نوعين من الأخوة هما الأخوة الأشقاء **oobling** الذين ينحدرون عن نفس الأب والأم ، والأخوة غير الأشقاء الذين يشتركون في أب واحد وأمهات مختلفات (٧) . ويمكن تمثيل بناء الأسرة المركبة في الشكل التالي :



والجدير بالذكر أن العائلة المركبة تتسم بخاصية أخرى وهي كثرة الخلافات والمشكلات بين الزوجات . وتسمى لوسي مير **Lucy Mair** هذه المشكلات بمركب الضرائر **Co - Wives Complex** بسبب ما ينشأ بينهن من غيرة ، وصراع حول توزيع الأعمال والاستئثار بالمكانة العالية في الأسرة وبالحظوة لدى الزوج (٨) . بينما لا توجد مثل تلك المشكلات والصراعات في الأسرة النووية لأن الزوجة واحدة لا تنافسها (ضرة) .

---

(٧) د. أحمد أبو زيد ، البناء الاجتماعي ، مرجع سالف الذكر ، ص ص ٣٠٤ — ٣١٥ .

(٨) د. علي المكاوي ، الشعوذة ، دراسة نقدية منشورة بالكتاب السنوي لعلم الاجتماع ، العدد الاول ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ص ٣٥٧ — ٣٦٢ .

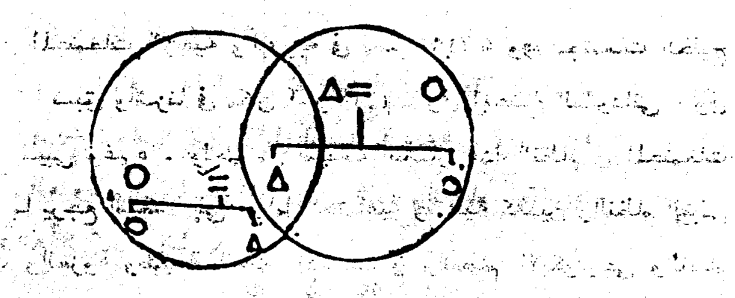
وينتشر نظام العائلة المركبة فى كافة المجتمعات العربية ، وإن كان معدل انتشاره يتزايد فى المناطق البدوية ، حيث يعتمد نظامها الاجتماعى على تعدد الزوجات لأن المرأة هى عماد حياة المجتمع فهى قوام اقتصادية (تعمل بالزراعة ، وتضطلع بالأعمال المنزلية المعتمدة على الزراعة كتنقية الحبوب وتجهيز التقاوى وإعداد السماد وتخزين المحصول) ، وهى التى ترعى الغنم ، وتغزل الصوف وتنسجه ، وتصنع الجبن والزبد ، وتبيع فى السوق (٩) . وعلاوة على كل ذلك فهى التى تنجب الأبناء فتشبع قيمة عالية فى المجتمع البدوى .

٣ ـ نظام العائلة الممتدة Extended Family تمثل هذه العائلة النظام الثالث فى النظم العائلية فى المجتمع البشرى . وتتعدد المصطلحات الدالة عليها ، فتارة يطلق عليها العائلة الممتدة ، وتارة اخرى العائلة المشتركة Joint Family وتسمى بالعائلة المركبة ذات تسلسل قرابى واحد تارة ثالثة .

والواقع أن العائلة الممتدة تظهر حينما يظل الإبن عضوا فى نفس عائلته الأصلية ، حتى بعد زواجه وإنجابه للأطفال . وهذا على عكس الحال فى العائلة التى ينفصل أبناؤها عنها بعد زواجهم مباشرة . وتمتد علاقة الأب بالإبن وتتسع وتتعقد ، ويصبح الشخص الواحد منتميا إلى أسرتين مختلفتين يشغل فى كليهما مركزا اجتماعيا مختلفا ، ويؤدى وظائف مختلفة . فهو إبن فى احداهما ، وزوج فى الثانية ، وعلى النحو التالى :

---

(٩) د. على المكاوى ، الجوانب الاجتماعية والثقافية للخدمة الصحية ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٨ ، ص ص ٢٣٥ — ٢٣٦ . والواقع أن البدو فى مصر مثلا يعتمدون على كلمة الشرف ، ويسمى محليا زواج الاقصولة ـ وينطق محليا زواج الاصلة ـ قبل اعتمادهم على الزواج الموثق رسميا الآن . وكان هذا النظام يسير التكاليف تماما ، الا أنه أكثر تعقيدا بسبب دخول شيوخ القبائل كأطراف شاهدة عليه ، وبالتالى يصعب الطلاق الا بشروطهم أيضا . وهنا يفضل الرجل التعدد على الخضوع لهذه الشروط حتمية التنفيذ .



وللعائلة الممتدة عدة خصائص تميزها عن غيرها من العائلات فهي تنتشر في كل مجتمعات العالم ، بصرف النظر عن مدى تقدم المجتمع أو تخلفه ، ومدى بساطته أو تعقده . وتضم تلك العائلة أيضا أسرتين نوويتين أو اكثر ، تجمعهم رابطة القرابة العاصبة Consanguinity ويشتركون معا في مسكن واحد ويعيشون في معيشة مشتركة ويجمعهم التعاون الاقتصادي ، ويزداد عدد الأعضاء من الأبناء والأحفاد حتى يقارب المائة (١٠) . أضف إلى ذلك أن العائلة الممتدة تستمر في الوجود إلى ما لا نهاية ، فتصبح جماعة قرابية Kin Group أو مجتمعا محليا Community وإن كان استمرارها رهينا بعوامل أخرى عديدة كالتناسل والسكنى Residence . كذلك فإن قاعدة السكنى — أي مكان إقامة الزوجين بعد الزواج — تلعب دورا بارزا في بناء العائلة الممتدة وتركيبها ، حيث تتفرع إلى عائلة ممتدة ذات السكنى مع والد الزوج Patrilocal Extended Family ، والعائلة الممتدة ذات السكنى مع والدة الزوجة Matrilocal extended Family ، وأخيرا تؤلف العائلة الممتدة عموما وحدة اقتصادية متعاونة ويظل مؤسسها رئيسا لها طوال حياته ، ويتمتع بسلطات واسعة على أبنائه .

ومن ناحية أخرى فإن العائلة الممتدة نظام واسع الانتشار في كل المجتمعات البشرية عامة ، والمجتمعات العربية بصفة خاصة . فهو نظام

---

(١٠) د. عاطف وصفي الانثروبولوجيا الاجتماعية ، مصدر سابق ، ص ١٠٣ وانظر أيضا : د. علي المكاوي ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص ص ٩٤ — ٩٥ .

ينتشر فى المجتمعات الريفية والبدوية فى مصر (١١) ، وفى مجتمعات الخليج العربية كما سبق واشرنا فى مكان آخر (١٢) . وفى المجتمع السودانى ، وفى المجتمع الليبى وغيره . ولعل من اسباب انتشار هذا النظام فى المجتمعات العربية ما يرجع اساسا إلى عوامل اجتماعية وثقافية كالدين والنظام القبلى والتراث والعزوة وطبيعة النظام الاقتصادى والنظام الايكولوجى والنظام القرابى والعائلى ... الخ .

* * *

ثانيا — اهم النظم القرابية فى المجتمع العربى :

يعتبر النظام القرابى من أهم النظم التى يتكون منها البناء الاجتماعى للمجتمع العربى . ويتضمن هذا النظام مجموعة العلاقات القرابية والقواعد التى تلعب دورا هاما وحيويا بالنسبة لبقية النظم الاجتماعية الأخرى ، علاوة على انه نظام عالمى لا يخلو منه مجتمع بشرى . وبالتالى فإذا أردنا فهم المجتمع البسيط أو حتى المركب — فلابد من التعرف على النظام القرابى بداخله ، وادراك خيوط شبكة العلاقات القرابية التى تشكل نسيج هذا النظام (١٣) . ومن ناحية أخرى فإن النظام القرابى يعتمد على النظام العائلى ، حيث يوسع الزواج من دائرة القرابة والعلاقات القرابية بإضافة الأقارب بالمصاهرة .

ومن الواضح أن القرابة ظاهرة اجتماعية ومفهوم اجتماعى ذو دلالة اجتماعية اكثر من دلالته البيولوجية . وبالتالى فإننا نهتم بإبراز هذه الدلالات

---

(١١) د. على المكاوى ، الخدمة الصحية فى مصر : دراسة للابعاد المهنية والاجتماعية والثقافية ، رسالة دكتوراه (غير منشورة) ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٦ ، صص ٢٢٣ — ٢٣٥ .

(١٢) د. على المكاوى ، الثبات والتغير فى العادات والتقاليد والمعارف الشعبية ، بحث مقدم لندوة التخطيط لجمع ودراسة العادات والتقاليد والمعارف الشعبية ، مركز التراث الشعبى لدول الخليج العربية ، الدوحة ، ١٣ — ١٧ يناير ١٩٨٥ ، صص ١٩ — ٢٥ .

(١٣) د. على المكاوى ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ، مرجع سبقت الاشارة اليه ، ص ١٢٣ .

والمفاهيم الاجتماعية التى وضعها المجتمع ، وان كانت تختلف باختلاف المجتمعات ونكتفى هنا بتناول اهم النظم القرابية فى مجتمعنا العربى من خلال قواعد التسلسل القرابى ، ومبادىء التصنيف القرابى .

١ ـ قواعد التسلسل القرابى Descent rules :

وهى مجموعة القواعد التى تحدد اعضاء الجماعة القرابية الدموية (العاصبة) فى مجتمع ما وتتمثل فيما يلى :

(أ) قاعدة التسلسل القرابى الأبوى Patrilineal Descent

حيث يضع المجتمع القواعد التى تحدد الاقارب وتميزهم عن غير الاقارب ، وبالتالى فعندما يولد الطفل الذكر او الانثى فى العائلة ، فإنه ينتمى إلى الجماعة القرابية الدموية التى ينتمى إليها الوالد ، ويصبح بالضرورة عضوا فيها . وبالتالى يسير النسب فى خط الذكور غالبا ، وهذا ما يسود المجتمعات العربية الاسلامية بكاملها تقريبا ، سواء فى المناطق الريفية او البدوية او الحضرية . وتمثل العائلة وحدة دفاعية تعاونية لأعضائها ، يرجعون إليها عند الحاجة وخاصة عند أزمات المرض أو الكوارث (١٤) .

(ب) قاعدة التسلسل القرابى الأمومى Matrilineal descent

الذى يسير فيه النسب فى خط الإناث ويسمى بالنسب الأمومى . وإذا كان هذا النظام موجودا فى مجتمعات الهيرون والإيراكو Heron & Iraquoi الهندية الحمراء ، وفى مجتمع الباجندا بشرق افريقيا (١٥) ، حيث تمثل المرأة نواة العائلة والمسئولة عن إنتاج غذائها ، إلا أنه يوجد فى بعض المجتمعات البدوية العربية التى تدين بالإسلام . ولعل قبائل الطوارق مثال على ذلك ، حيث يعيشون فى بعض المناطق الجنوبية من الجماهيرية الليبية وتونس والجزائر والمغرب ، ويشتغلون برعى الإبل ونقل التجارة بين شمال

---

(١٤) د. [illegible] ، الخدمة الصحية فى مصر ، [illegible]

(١٥) [illegible] الاتجاهات المعاصرة فى [illegible]

القاهرة ، [illegible] ٨ ، ص [illegible]

أفريقيا وغربها (١٦) . وترد قبائل النبلاء عند الطوارق فى « الأهقار » نسبهم كلهم فى الأصل إلى امرأة هى الملكة « تين هينان » ، بينما تعزو قبائل الأتباع نسبهم إلى خادمتها — أو أختها — « تكاما » . وقد انحدر الطوارق الحاليون من هاتين المرأتين ، ولا يزال بعضهم قادرين على تتبع أنسابهم فى خط الإناث لعدة أجيال مضت . وتتمتع المرأة عند الطوارق بمكانة أعلى من المكانة التى تتمتع بها المرأة فى القبائل العربية الأخرى فى نفس المنطقة . ولا تزال الأم تحتفظ بقدر كبير من السلطة والسيادة فى الحياة العائلية . وحينما يتزوج الرجل فإنه يعيش مع أهل زوجته — عاما على الأقل — قبل أن ينتقل هو وزوجته إلى عشيرته ، وإن كان يستمر فى معيشته مع أهل عروسه فى أحوال كثيرة .

إلا أن آثار النظام الأمومى تتمثل عند الطوارق حتى الآن بشكل ملموس فى نظام انتقال السلطة والثروة من الرئيس أو الزعيم — الذى يعرف باسم « آمنوكل » — فى خط الإناث ، حيث تنتقل من الخال إلى ابن الأخت . ولكن غالبا ما يخرج الطوارق عن هذا النظام . ولا شك فى أن التغيرات الاجتماعية والثقافية المعاصرة قد طرأت على هذا النظام فأحدثت فيه تغيرات واضحة يمكن تلمسها الآن ، وليتنا نجرى عليه دراسة تتبعية الآن للوقوف على أهم معالم هذا التغير ، والتعرف على أبرز عوامله .

والواقع أن هذا النظام يتبع فى المجتمع النوبى بقرية غرب أسوان جنوب مصر (١٧) . حيث يسود نظام السكنى عند أهل الزوجة Matrilocality على الأقل خلال سنى الزواج الأولى وربما لمدة عشر سنوات تقريبا . وتتراوح مدة الإقامة عند أهل الزوجة ما بين ثلاث

---

(١٦) د. أحمد أبو زيد ، البناء الاجتماعى ، مرجع سالف الذكر ، ص ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .

(١٧) د. محمد الجوهرى ، بعض معالم التغير فى مجتمع غرب أسوان : دراسة أنثروبولوجية لأحد المجتمعات النوبية ، مطبعة جامعة القاهرة ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٩ ، ومواضع أخرى .

وعشر سنوات (١٨) . وبالتالي تضم العائلة الممتدة الآباء والأبناء وزوجاتهم، والبنات وأزواجهن والأحفاد . ويرى البعض أن هذا النظام القرابي يمثل بقايا النظام الأمومي الذي كان الانتساب فيه للأم ، وقد يظل الزوج مقيمـــا بأسرته النسوية الجديدة عند أهل زوجته حتى تنجب الطفل الأول ، وأحيانا تطول المدة إلى سنوات حتى تنجب عدة أطفال (١٩) . ولكن الإسلام قضى على هذا النظام الأمومي تقريبا منذ انتشاره في هذه المنطقة .

٢ — أهم مبادىء التصنيف القرابي Kinship Classification :

من المؤكد أن دراسة النظم القرابية لا تكتمل إلا بالتعرض لموضـــوع المصطلحات القرابية ، إذ أن كل مجتمع انساني يميز بين الأقارب ، ويضع لكل واحد أو مجموعة منهم مركزا معينا ومصطلحا خاصا . وبالتالي فقــد اعتاد كل شعب على مصطلحات القرابة في مجتمعه ، وألف دلالة كل منها ، مما يؤدي إلى تباين نظم التصنيف القرابي من مجتمع لآخر . والواقع أن التصنيف الذي وضعه ألفريد كروبر Alfred Kroeber يأتي في مقدمة إسهامات دراسة النظام القرابي . وسوف نعرض لأهم هذه المبادىء وبما يتناسب مع مجتمعنا العربي .

(أ) **اختلاف الجيل** حيث ينتمي الأقارب إلى أجيال مختلفة ، وعلى ذلك يميز المجتمع العربي بين الأجيال وفقا لمصطلحات قرابية متفق عليهـــا مثل الجـــد والإبن والحفيد . والملاحظ أن جميع مصطلحات القرابة — في المجتمعات الغربية على سبيل المثال — تقتصر على جيل واحد فقط فيمـــا

---

(١٨) د. محمد الجوهري ، الانثروبولوجيا : أسس نظرية وتطبيقات عملية ، ط ٣ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ٦٠٦ و ٦١٦ .

(١٩) د. علياء شكري ، الاتجاهات المعاصرة في دراسة الأسرة ، مرجع سابق ، ص ص ٤٠٩ — ٤١٠ .

عدا مصطلح إبن العم أو إبنة العم Cousin (٢٠)، على حين يسود مجتمعنا العربي مصطلحات قرابية ممتدة عبر عدة أجيال .

(ب) اختلاف أساس العلاقة القرابية ، فقد تكون قائمة على أساس علاقة الدم ، وبالتالي نجد أقارب الدم Consanguineal Relatives مثل الأب والأخت والأخ والجد والحفيد ، كما قد تقوم على أساس الزواج . فنجد أقارب المصاهرة Affinal Relatives مثل زوج الأخت وزوجة الأخ وأخ الزوجة ... الخ .

(د) الاختلاف بين علاقة القرابة الخطية (المباشرة) qineal والقرابة المجانبة (غير المباشرة) Collateral ويعتمد هذا المبدأ التصنيفي على وجود فئة أقارب الدم ذات الجيل الواحد والنوع الواحد ، أقرب صلة للأنا من أقارب آخرين بحكم الحقيقة البيولوجية . فأبي أقرب لي من عمي ، وابني أقرب لي من ابن أخي في ضوء القرابة الخطية (المباشرة) التي تربطني به . وتتمثل القرابة المجانبة (غير المباشرة) في أولئك الذين يرتبطون بشكل مباشر من خلال أحد الأقارب الذي يصل بين الأقارب الخطيين . وبالتالي يعتبر العم أو الخال قريباً مجانبا لأنه إما أخ للأب أو أخ للأم ، وكذلك شأن أبناء وبنات الأعمام والأخوال باعتبارهم أبناء أخوة الأب أو أخوة الأم (٢١) .

(د) اختلاف النوع (ذكر — أنثى) فيطلق على الشقيق (أخ) ، ويطلق على الشقيقة (أخت) ، رغم أن علاقة الأخوة واحدة وكذلك الحال بالنسبة للخال والخالة والعم والعمة في النظام القرابي بمجتمعنا العربي .

---

(٢٠) رالف بيلز وهاري هويجز ، مقدمة في الانثروبولوجيا العامة ، ج ١ ، ترجمة الدكتورين محمد الجوهري والسيد الحسيني ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ص ٤٦٥ ، ٤٦٦ .

(٢١) د. علي المكاوي ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص ١٣٢ .

(هـ) إختلاف نوع الشخص الذى تكونت عن طريقة علاقة القرابة ، ففى المجتمع العربى نستخدم إصطلاح « خال » للإشارة إلى شقيق الأم ، واصطلاح « عم » للدلالة على شقيق الأب بينما نلاحظ فى المجتمعات الأوربية استخدام مصطلح Uncle للإشارة إلى العم والخال معا وكذلك يجمعون جميع أبناء وبنات العم والخال تحت مصطلح واحد هو Cousins .

(و) إختلاف نوع المتكلم نفسه (الذى يخاطب القاريه) ، ففى حالة علاقة الإبن والأب ، كلاهما يستخدم اصطلاحا مختلفا . ويسود هذا المبدا التصنيفى فى النظام القرابى العربى عموما ، فيما عدا العلاقة بين ابن العم والأنا المذكر ، وابن الخـــالة والأنا المذكر . ففى الحـــالة الأولى يخاطب الأول الثانى بمصطلح واحد هو (ابن عمى) ، وفى الحالة الثانية يتخاطبان بمصطلح واحد أيضا وهو (ابن خالتى) .

(ز) اختلاف الإصطلاح القرابى فى حالة وفاة الشخص الذى عن طريقة نشأت العلاقة القرابية ، ففى حالة وفاة الخال ، وزواج أرملته بآخر فإننا لا نناديها بمصطلح زوجة الخال (*) كذلك شأن زوجة العم — بعد وفاته — لا نناديها بنفس المصطلح حينما تقترن بآخر ، وذلك لزوال مصدر العلاقة القرابيـــة .

* * *

ثالثا — عوامل تغير النظم العائلية والقرابية :

تخضع النظم العائلية والقرابية للتغير شأنها شأن كل النظم والظواهر الاجتماعية الأخرى المرتبطة بالبناء الاجتماعى ، والمكونة له . ونظرا لاختلاف النظم القرابية ، فقد حاول العلماء تفسير هذا الاختلاف فمنهم من أرجعـــه

(*) ينتشر فى المجتمع السودانى مصطلحات قرابية ، مختلفة ، فهم يطلقون على زوجـــة الخال مصطلح « خالة » ، وعلى زوجة العم مصطلح (عمة) .

إلى التطور (**) . ومنهم من رده إلى العوامل والظروف الاجتماعية في كل مجتمع .

والواقع أن عوامل تغير النظم العائلية والقرابية متعددة ، يرجع بعضها إلى طبيعة المجتمع والثقافة (عوامل داخلية) ، في حين يفد البعض الآخر من خارج المجتمع والثقافة (عوامل خارجية) . وفي كلتا الحالتين يمكن أن تتنوع هذه العوامل في ضوء السرعة والبطء ، والظهور والكمون ، القبول والرفض ... الخ .

وفيما يلي نحاول استعراض أهم تلك العوامل التي أحدثت تغيراً واضحا في النظم العائلية والقرابية ، على أن نبرز في الفقرات القادمة مظاهر هذا التغير ومجالاته :

١ — **كبر حجم المجتمع** : تذهب الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية إلى أن المجتمع صغير الحجم يمثل وحدة اجتماعية صغيرة يغلب عليها البساطة والتقليدية والتماسك ، حيث يتيح هذا الحجم انتشار العلاقات الأولية ، ويعلي من احتفاظ الجماعة وتمسكها بثقافتها وتكاملها ، مما يبرز هويتها في النهاية ويصونها ، ولعل هذه القضية تتجسد فيما قدمه الرواد أمثال سبنسر ودور كايم وريدفيلد وتونيز وغيرهم . وبالتالي كلما كبر حجم

(**) ساد هذا الاتجاه التطوري في تفسير تغير وتباين النظم الاجتماعية بين علماء الاجتماع والانثروبولوجيا طوال القرن التاسع عشر وحتى النصف الاول من القرن العشرين . ولذلك كانوا يؤكدون على أن كل نظام يمثل مرحلة من التطور . **انظر التفاصيل في :**

— علي المكاوي ، المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعي مع دراسة ميدانية على قرية ميت الدين بمحافظة دمياط ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٢ ، الفصل الخامس ، ص ص ٣٤٣ — ٣٦١ .

— د. صالح على صالح ، الاسرة وأبعادها في النظريات الاجتماعية المعاصرة ، مرجع سابق ٢ ص ص ١٠٥ — ١٠٦ .

— بوتومور ، تمهيد في علم الاجتماع ، ترجمة الدكتور محمد الجوهري وزملائه ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ص ٢٧٩ — ٢٨٣ .

المجتمع كلما تعقدت العلاقات خارج الجماعة القرابية ، مما يؤدى فى النهاية إلى تغير فى النظم القرابية والعائلية .

٢ — **حركة التصنيع** : ادت حركة التصنيع **Industrialization** إلى حدوث ثورة اجتماعية فى مجتمعات العالم المعاصر ، حيث فرضت حياة الصناعة طريقة حياة جديدة ، وبناء اجتماعيا وثقافيا جديدا يتناسب مع طبيعتها . وينتج عن ذلك حدوث تغير جذرى فى النظم الاجتماعية بما فيها النظام العائلى والنظام القرابى .

٣ — **التحضر** **Urbanization** وهو عامل أحدث تغيرا ملحوظا فى النظم العائلية والقرابية ، بما فرضه من الاعتماد على الخصائص والمقومات الفردية ، فى مقابل تضاؤل مقومات مكانة العائلة وحجمها وسلطتها . كذلك اضعف التحضر من دور القرابة واعلى من استقلالية الفرد واعتماده على شخصه .

٤ — **العوامل التكنولوجية** : تلعب العوامل التكنولوجية دورا بارزا فى تغير البناء الاجتماعى ككل ، والنظم العائلية والقرابية بنحو خاص ، والواقع أن التراث السوسيولوجى والأنثروبولوجى يحوى إشارات إلى التكنولوجيا كعامل فعال فى التغير ، حتى أن ليزلى هوايت L. White يستخدمه كمتغير مستقل فى كل مراحل تطور المجتمع وتقدمه فهو يربط بين كل اختراع واكتشاف مصدر جديد للطاقة وبين مستوى تقدم المجتمع ومضامين الثقافة . (٢٢) .

---

(٢٢) George Foster. Traditional Societies and Technological Change , (2 ed edition) , Harper & Row publishers , N. Y., 1973 , pp. 112 – 113 .

وانظر ايضا :

— أليكس انكلز ، مقدمة فى علم الاجتماع ، ترجمة الدكتور السيد الحسينى ، .. ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣ ص ٨١ .

— د. على المكاوى ، المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعى ، مرجع سابق ص ٣٦٠ .

د — **الاتصال الثقافى** **Cultural contact** يعتبر الاتصال الثقافى بين المجتمعات المختلفة عاملا أساسيا فى إحداث التغير الثقافى الخارجى . والواقع أن الاتصال الثقافى يؤدى إلى تغير واضح فى البناءين الاجتماعى والثقافى ، بحيث يترك بصماته على النظم العائلية والقرابية ، فيصغر حجم الأسرة وتتقلص وظائفها ، ويضعف تأثير القرابة فى العلاقات والتفاعلات الاجتماعية بموازرة عوامل أخرى .

٦ — **ظهور البترول والثروات المعدنية :** الواقع أن ظهور البترول واستغلاله استغلالا اقتصاديا يعتبر عاملا فعالا فى إحداث التغير الاجتماعى والثقافى الداخلى والخارجى (*) . والجدير بالذكر أن البترول يعد أظهر العوامل فى التغير الاجتماعى بمجتمعات الخليج العربية ومجتمعات شمال أفريقيا كالجماهيرية الليبية والجزائر ، علاوة على أنه مارس نفس الأثر فى المجتمعات العربية الأخرى غير المنتجة له ، من خلال هجرة العمالة وانتقالها وارتفاع نسبة تحويلاتها النقدية الخارجية .

٧ — **الهجـــرة** **Migration** تؤدى الهجرة دورا حيويا فى إحداث التغير الاجتماعى سواء فى مجتمع الجذب **Pull Society** أو فى مجتمع الطرد **Push Suociety** . وبالتـــالى تعمل الهجرة على تغير النظم العائلية والقرابية فى هذين المجتمعين (٢٣) . ولعل مجتمعات الخليج العربية مثال يجسد هذه الحقيقة ، من خلال ما أحدثته الهجرة من تغير فى نظم المجتمع الجاذب ، ومردود مقابل فى المجتمع الطارد .

٨ — **التعليم :** لا شك فى أننا نلمس عن قـــرب دور التعليم فى تغيير المجتمع اجتماعيا وثقافيا . والواقع أن تراث علمى الاجتماع والأنثروبولوجيا

(*) أنظر دراسة الدكتور محمد غانم الرميحى عن البترول والتغير الاجتماعى فى الخليج العربى ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، د.ت .

٢٣ [illegible] ، الا[illegible]ولوجيا الا[illegible]ة ، مرجع سابق ، ص ١٩٢ .

يتضمن إشارات عديدة حول أهمية التعليم باعتباره عاملا معجلا Accelerating Factor يغير فى العقلية Mentality أولا ، ثم فى طريقة الحياة Way of life بعد ذلك ، وينعكس ذلك فى النظم العائلية والقرابية بشكل ملحوظ فى مجتمعنا العربى .

* * *

رابعا — مظاهر التغير فى النظم العائلية والقرابية :

نحاول فى هذه الفقرة إبراز أهم معالم التغير التى طرأت على النظم العائلية والقرابية فى مجتمعنا العربى ، بعد أن استعرضنا فى الفقرة السابقة أهم عوامل هذا التغير ، وسوف نعطى مثالا على دور كل عامل فى هذا المجال. وفى البداية نقول إن المجتمعات العربية الاسلامية تميل إلى تدعيم روابط القرابة والمصاهرة ، والعمل على استمرارها واستقرارها . وهناك أساليب — تتخذ شكل النظم الاجتماعية المقررة — يوجدها المجتمع لتقوية العلاقات القرابية ، مثل الزواج التبادلى من ناحية ، وتكرار حالات الزواج بين الجماعتين المتصاهرتين من ناحية أخرى . ومعنى ذلك أن يزوج الرجل أخته لشقيق زوجته (٢٤) . وبالتالى تتدعم القرابة ، وتستقر الحياة العائلية لكلتا العائلتين ، لأن كلا منهما يحرص على حسن معاملة الطرف الآخر ، حفاظا على استقرار الحياة الزواجية واستمرارها ، وتقوية نظام القرابة إذن ككل .

والجدير بالذكر أن النظم القرابية لا تزال لها تأثيراتها على النظم العائلية حتى بعد حدوث التغير الاجتماعى والثقافى . فإذا كانت العائلة انتقلت من النمط الممتد إلى النمط النووى ، واستقلت فى معيشتها بعد الزواج عن العائلة الأصلية الممتدة ، إلا أن هذه النظم القرابية لا تزال تمارس دورها فى توزيع سكنى الأسر النووية المستقلة فى مجتمعنا العربى عامة . ولعل مجتمع « وادى فاطمة » بالمنطقة الغربية بالمملكة العربية السعودية

(٢٤) د. أحمد أبو زيد ، البناء الاجتماعى ، مرجع سابق

مثال على ما نقول (٢٥) . حيث استقلت تلك الأسر النووية عن العائلات الممتدة ، ومع ذلك فإنها تتجمع فى إطار إيكولوجى واحد ليتسنى اتصال الزوج والزوجة بأقاربهما بعد الزواج ، وبأسرتيهما الأصليتين . وبالتالى تحدد النظم والعلاقات القرابية إيكولوجيا سكنى العائلات ، حتى فى ظل ظروف التغير التى طرأت على المجتمع السعودى .

وسوف نبدأ باستعراض مظاهر التغير الذى طرأ على النظم العائلية والقرابية مقرونا بأهم العوامل التى أحدثته ، مع التمثيل بأحد مجتمعاتنا العربية ، وفقا للدراسات المتاحة ، وذلك فيما يلى :

١ — **كبر حجم المجتمع** : من الواضح أن حجم المجتمع كلما كان صغيرا ، كلما ساعد ذلك على سيطرة الطابع التقليدى على النظم المكونة للبناء الاجتماعى والثقافة ، فتنتشر العائلات الممتدة والمركبة ، وتسيطر العلاقات القرابية ، ويسود الزواج الداخلى **Indogamy** وتتعمق تبعية الفرد للجماعة ، بمعنى أن تذوب الذات الفردية فى الذات الجماعية ، ولكن كبر حجم المجتمع يؤدى الى تشعب العلاقات وتعقدها خارج الجماعة القرابية ، فيقل تأثير العلاقات القرابية ، تضعفه . أضف إلى ذلك أن كبر الحجم يعنى زيادة فى المؤسسات والهيئات حتى تشرف على أمور الفرد الاقتصادية والتعليمية والتربوية والسياسية والقانونية والصحية ... الخ . وبالتالى ينسحب البساط من تحت أقدام النظام القرابى ويتقلص تأثيره (٢٦) . ويصدق ذلك على كل المجتمعات الحضرية العربية كبيرة الحجم كالعواصم المركزية وعواصم الأقاليم التى كبر حجمها فتحولت من البساطة إلى التعقيد .

٢ — **حركة التصنيع** : لعب التصنيع دوره البارز فى إحداث التغير

---

(٢٥) د. أحمد عبد الإله عبد الجبار ، عادات وتقاليد الزواج ، مرجع سابق ، ص ٢٠٢ .

(٢٦) د. أحمد أبو زيد ، البناء الاجتماعى ، مصدر سابق ص ٤١٥ .

الجذرى فى النظم العائلية والقرابية . ولذلك سادت ظواهر جديدة لم يكن لها وجود من قبل ، علاوة على انتشار ثقافة جديدة تتناسب مع حياة الصناعة ، وتتناقض مع الحياة التقليدية . فانتقال الإنتاج من البيت (العائلة الممتدة) إلى المصنع مثلا ، تسبب فى الفصل بين مكان الإقامة ومحل العمل بعد أن كانا شيئا واحدا من قبل .

ومع انتشار التصنيع توافرت فرص العمل ، مما أتاح للمرأة أن تعمل ، وبالتالى أصبحت الزوجة والأم مجبرة على قضاء الساعات الطوال فى العمل خارج البيت بعيدا عن رعاية أطفالها تاركة هذا الدور الأمومى إلى دور الحضانة مما ترتب عليه زعزعة التفاعل بين الأم وأطفالها (٢٧) . ومعنى ذلك أن الأسرة فى المجتمع الصناعى صارت أقل استقرارا عما كانت عليه فى المجتمع التقليدى الريفى أو البدوى .

والواقع أن التصنيع قد واكبه — مع العلوم الطبيعية — اتجاهات علمانية Secularization غلبت على العصر الحديث ، فى مقابل التقليدية Traditionalism التى غلبت على العصور السابقة (٢٨) . كذلك أدى الحصول على الوظائف بالمنافسة ، ووجود النظام الطبقى المفتوح ، والحراك المكانى الواسع ... الخ ، إلى تدعيم هذا التغير فى النظم العائلية والقرابية . ولذلك يؤكد الدكتور إحسان الحسن (٢٩) ، على أن انتشار التصنيع بالعراق ، جعل الأسر النووية أكثر تلاؤما مع ظروف الصناعة والبيئة الصناعية ، نظرا لصفاتها البنائية وعلاقاتها الاجتماعية والقرابية ووظائفها الاجتماعية ، ولعل أبسط الأدلة على ذلك هو سهولة تكيف الأسرة النووية مع عمليات الحراك الجغرافى والمهنى والاجتماعى التى يتعرض لها الفرد فى المجتمع الصناعى .

---

(٢٧) د. صالح على صالح ، الأسرة وأبعادها ... مرجع سابق ، ص ١٠٥ .

(٢٨) د. علياء شكرى ، الاتجاهات المعاصرة فى دراسة الأسرة ، مرجع سابق ، ص ٢٥٣ .

(٢٩) د. احسان الحسن ، العائلة والقرابة والزواج ، ط ١ ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ص ١١٦ — ٢٢٥ .

٣ — **التحضر** : وهو الآخر عامل فعال فى إحداث التغير الملموس فى النظم العائلية والقرابية . ولعل دراسة إدريس عزام على المجتمع الريفى والحضرى بمحافظة إربد بالمجتمع الأردنى (٣٠)، تكشف عن هوية هـذا التغير وملامحه . فقد أكدت الدراسة على وجود إرتباط قوي بين التحضر من جهة ، وبين زيادة الاتجاه نحو الزواج الخارجى Exogamy من جهة أخرى . كما يبدو بوضوح فى تناقص نمط الزواج الداخلى Indogamy بين الحضريين بالمقارنة مع المبحوثين الريفيين . وكذلك أصبحت عملية الزواج بفعل التحضر : عملية فردية وليست عائلية بالنسـبة للحضريين . كذلك صارت الخصائص الفردية هى التى تحتل المرتبة الأولى فى تحديد المكـانة الفردية العائلية ، بعد أن كان الانتماء القرابى هو المحدد الأساسى للتقييم .

وكذلك لعب التحضر دوره فى المجتمع العراقى ، حيث أحدث تغـيرا واضحا فى النظم العائلية — مثلما حدث فى معظم المجتمعـات العربيـة — فتحولت الأسرة من النمط الممتدة إلى النمط النووى . وإذا كانت دراسـة الدكتور إحسان الحسن تكشف عن هذه المعالم من التغير ، وتدعمهـا بالإحصاءات ، إلا أننا نتحفظ غالبا على هذه الإحصاءات . وعموما تذهب هذه الدراسة إلى أن نسبة العائلات الممتدة كانت تمثل ٨٢٪ فى عام ١٩٤٠ بالعراق ، فى مقابل ١٨٪ للأسر النووية . على حين انخفضت هذه النسبة فى عام ١٩٧٥ إلى ٣٤٪ للعائلات الممتدة ، فى مقابل ارتفاع الأسر النووية إلى ٦٦٪ (٣١) .

---

(٣٠) إدريس صالح عزام ، التحضر وأثره فى الأسرة الأردنية من وجهة نظر بنائية وظيفية مع دراسة تطبيقية على عينتين إحداهما تجريبية متحضرة فى مدينة اربد والأخرى ريفية ضابطة من قريتى منير سرحان ومندح فى محافظة اربد ، رسالة دكتوراه (غير منشورة) ، اشراف الأستاذة الدكتورة حكمت أبو زيد ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥ .

(٣١) د. احسان محمد الحسن ، العائلة والقرابة والزواج ، مرجع سـابق ، ص ص ١١١ — ١٢٥ .

ويلاحظ الدكتور إحسان الحسن ان تفضيل الأسرة للسكن فى بيت جديد ، أو فى بيت مستقل ، له علاقة بالطبقة الاجتماعية ايضا . فاغلب اسر الطبقة المتوسطة تفضل السكن المستقل لانها اسرة مستقلة اقتصاديا ، ولا تعتمد على الاقارب فى إشباع حاجاتها الاقتصادية نظرا لارتفاع دخلها من عمل الزوجين معا . اما معظم اسر الطبقة الدنيا العمالية ، فانها تفضل السكن مع الاقارب فى بيت واحد ، لاعتمادها اقتصاديا عليهم ، بسبب عدم انتظام دخلها وهبوطه حينا ، وحدوث البطالة حينا آخر . وهنا يمكن القول بان للجماعة القرابية دورا بارزا فى حالة الوضع الطبقى المتدنى ، إلى جانب دورها فى توزيع وتحديد سكنى الاسر النووية فى المجتمع السعودى كما ذكرنا منذ قليل (٣٢) . كذلك فهى تفرض على أعضائها الاعتماد على جماعتهم القرابية ، لانها تضطلع بمعظم الوظائف التى تقوم بها المؤسسات الحديثة فى المجتمع الحديث كالوظيفة الاقتصادية والسياسية والقانونية والدينية والشعائرية (٣٣) ، وحتى الوظيفة الصحية (وقاية وعلاج وإنفاق ومتابعة وقرار طبى ونوع الخدمة الصحية المطلوبة ... الخ) (٣٤) . وفى ضوء ذلك تختلف أدوار العائلة فى المجتمع التقليدى ، عن نظيرها فى المجتمع الحديث .

٤ — **العوامل التكنولوجية** : لا شك ان التكنولوجيا قد عجلت بوقوع التغير الاجتماعى والثقافى فى المجتمعات العربية . وتدل بعض الدراسات السوسيولوجية والانثروبولوجية على أن التكنولوجيا لم يقف تاثيرها على

---

(٣٢) د. أحمد عبد الجبار ، عادات وتقاليد الزواج ، مرجع سابق ، ص ٢٠٢ .

(٣٣) د. أحمد ابو زيد ، البناء الاجتماعى ، مصدر سابق ، ص‌ص ٤١٥ — ٤١٦ .

(٣٤) د. على المكاوى ، الجوانب الاجتماعية والثقافية ... ، مرجع سالف الذكر ، ص ٢٢١ **وانظر ايضا :**

د. على المكاوى ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ، مرجع سبقت الاشارة اليه ، ص‌ص ٩٧ . ٩٨

ما تقدمه من أجهزة وآلات حديثة وميكنة ... الخ ، وإنما امتد تأثيرها ليشمل تغيير القيم والاتجاهات والمعتقدات ، سواء بالعمل على نشر أنماط جديدة منها ، أو بتوسيع دوائر إنتشار الموجود منها في المجتمع (٣٥) . فإذا خصصنا دور العوامل التكنولوجية في تغير النظم العائلية والقرابية في المجتمعات العربية ، وجدنا أنها ساعدت المرأة في أداء دورها كربة بيت — تيسرت بالتالي لها العمل الخارجي ، فانتشرت معدلات عمالة المرأة . ومن ناحية أخرى ساعدت التكنولوجيا على إختفاء العائلة الممتدة ، وظهور نمط جديد من الأسر ، يجمع بين خصائص العائلة الممتدة والنووية ، تسميه الدكتورة سناء الخولي « الأسرة النواة غير المنعزلة » وذلك من خلال الدراسة التي أجرتها على مدينة الاسكندرية وريفها بمصر (٣٦) .

وتعتبر تلك الدراسة — سالفة الذكر — أن التغيرات التكنولوجية تؤثر على تغير القيم والأدوار والعلاقات الزواجية ، وتؤثر على الوظائف فتحولها من الإنتاج إلى الاستهلاك ، وما يترتب على ذلك من تغيرات في الأدوار والمكانات وتؤدى إلى إنعزالية الأسرة الحضرية . وبالتالي فالتغيرات التكنولوجية سوف تفضى بالأسرة الريفية إلى هذا النمط المنعزل ، عندما تزداد الخصائص الحضرية في المجتمع الريفي ، كما تؤثر في نمو واتساع نطاق الحياة الحضرية وزيادة التصنيع ، والإقبال على إستخدام الوسائل التكنولوجية الحديثة (٣٧) .

٥ — **الاتصال الثقافي** : من الواضح أن الاتصال الثقافي عامل خارجي من عوامل التغير . وقد يترتب على هذا الاتصال اكتساب وتمثل عناصر

---

(٣٥) د. على المكاوى ، المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعي ، مرجع سالف الذكر ، ص ص ٣٣٥ — ٣٥٨ .

(٣٦) د. سناء الخولى ، التغير الاجتماعي والتكنولوجي وأثره في الأسرة المصرية بنائيا ووظيفيا ، رسالة دكتوراه (غير منشورة) ، اشراف الاستاذ الدكتورة حكمت أبو زيد ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٢ .

(٣٧) د. علياء شكرى ، الاتجاهات المعاصرة في دراسة الأسرة ، مرجع سابق ، ص ٢٦١ .

ثقافية جديدة ، والتخلى عن عناصر قديمة ، أو حتى التمسك بها . والواقع أن الاتصال الثقافى قد ترك بصماته على النظم العائلية والقرابية فى المجتمعات العربية . فإذا ضربنا مثالا بالمجتمع القطرى نجد أن دراسة جهينة العيسى تؤكد على أن الاتصال بين مجتمع قطر والعالم الخارجى قد أحدث تغيرا فى المجتمع ذاته ، وفى الأسرة (٣٨) ، فأصبحت مستقلة ونووية . كذلك تمثلت معالم هذا التغير فى انتقال المجتمع من النمط البدوى إلى النمط الحضرى شبه الصناعى . وبالتالى انتقال العائلة من النمط الممتد — الذى يسود المجتمع البدوى — إلى النمط النووى . وبالرغم من أن التماسك العائلى يضعف كلما صارت الأسرة نووية مستقلة ، إلا أن الروابط والعلاقات العائلية لا تنفصم — مثلما يسود المجتمعات الأوروبية على سبيل المثال — وإنما يكون للأسرة النووية استقلالها الذاتى ، بحيث يمكنها أن تقرر طريقة حياتها ومستقبل ابنائها (*) .

٦ — **ظهور البترول والثروات المعدنية** : لقد أحدث البترول فى المجتمعات العربية البترولية تغيرا اجتماعيا وثقافيا هائلا ، يمكن اعتباره طفرة . فقد نقل هذه المجتمعات من النمط البدوى الرعوى التقليدى ، إلى النمط الحضرى الحديث ، وخلخل معظم النظم الاجتماعية بما فيها النظم العائلية والقرابية . ففى هذه النظم العائلية والقرابية تغيرت أدوار المرأة

---

(٣٨) جهينة سلطان العيسى ، الالتقاء الحضارى وأثره فى تغير البناء الاجتماعى للأسرة فى قطر ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥ . **وانظر عرضا لهذه الدراسة فى :**

د. علياء شكرى ، الاتجاهات المعاصرة ، المرجع السابق ، ص ٢٧٨ .

(*) يتضح اذن من هذه الدراسة على المجتمع القطرى ، ودراسة احمد عبد الجبار على المجتمع السعودى ، أن النظم القرابية فى المجتمعات العربية مهما تغيرت ، فلسوف تستمر الروابط والعلاقات القرابية والعائلية قائمة ، وان ضعفت على المدى الزمنى البعيد . وبالتالى تبقى للمجتمعات العربية الاسلامية خصوصيتها وتفردها — فى هذه النظم — عن المجتمعات الاوربية .

ومكانتها الاجتماعية ، وتغير نمط الزواج من التعدد الى الوحدانية او الاحادية ، وتعلمت المراة واشتغلت فى خارج البيت ، وانشئت المؤسسات والهيئات الحديثة التى تقلل من عناء ادوار المراة سواء فى التربية او فى المهام المنزلية او الاقتصادية او الصحية . وتكفى الإشارة إلى أن هذه السيمفونية الجديدة هى وليدة ظهور البترول فى هذه المجتمعات العربية . فبعد ان كانت المراة راعية غنم ، يحذرها ابناء القبيلة ، ويخوفونها من الطريق المرصوف (الاسفلت) ومن السيارات (الكائنات الشيطانية) ، صارت تقود السيارات فى البادية ، وتدرس فى الجامعة ، وتقضى اجازات سنوية فى مصر ولبنان وغيرهما ، (٣٩) . وتجلب « الشغالات » من جنوب شرق آسيا ، وتشترى سلعها من اليابان ... الخ . وبالتالى فقد كان لهذه السيمفونية اصداء على العائلة والقرابة فى المجتمعات البترولية .

ففى مجتمع البحرين ، اوضحت دراسة فاروق أمين على الأسرة أن ظهور النفط ، وقيام الصناعات النفطية المرتبطة به قد ساعد على تحول المجتمع البحرينى وتغيره ، وانعكس ذلك على بناء الأسرة فانتقلت من النمط الممتد — فيما قبل النفط — إلى النمط النووى فيما بعده (٤٠) . وقد صاحبت النفط عوامل اخرى دعمت هذا التغير . كذلك تحول الاقتصاد من الشكل التقليدى الذى يتطلب إشتراك كل اعضاء العائلة فى العمل ، إلى اقتصاد حديث يعتمد على الكفاءة والخبرة . وبالإضافة إلى ذلك ، فقد ساد الشكل الحديث للدولة ، مما اضعف من التقسيمات العشائرية والنزعات القبلية ، واعلى من شأن الإنجاز والقدرات الفردية . علاوة على ظهور مؤسسات اخرى حديثة اعفت العائلة الممتدة من الكثير من وظائفها .

---

(٣٩) د. على المكاوى ، الثبات والتغير فى العادات والتقاليد والمعارف الشعبية ، مرجع سالف الذكر ، ص ص ١٩ — ٢٥ .

(٤٠) فاروق أمين ، دراسة حول واقع الاسرة البحرينية ، جمعية الاجتماعيين البحرينية ، الكتاب الثالث ، البحرين ، ١٩٨٣ ، ص ص ١٢١ — ١٢٣ .

٧ — **الهجـــرة** : وهى عملية حراك جغرافى واجتماعى من مكان يتركه المهاجر ، إلى مكان آخر يرغبه أو يستقر فيه . فإذا كان استقراره فيـــه مؤقتا كانت هجرة مؤقتة أو موسمية . وإذا كان استقراره دائما كانت هجرة دائمة . وقد تكون تلك الهجرة داخل المجتمع (داخلية) Internal وقد تكون خارجه (خارجية) external .

والواقع ان الهجرة تلعب دورا ملموسا فى التعجيل بالتغير الاجتماعى فى مجتمعى الطرد والجذب — كما سبقت الإشارة — وبالتالى فهى تغير فى النظم العائلية والقرابية . ويمكن الإشارة إلى هذه الحقيقة من خلال نموذجين احدهما يشير إلى هجرة دائمة وهو مستمد من الواقع الاجتماعى المصـــرى الريفى والحضرى ، وثانيهما مستمد من المجتمع الأمريكى الذى هاجرت إليه الجالية العربية اللبنانية واستقرت فيه ، لنتعرف على أهم ما يطرأ عـــلى العائلة والقرابة من تغيرات .

بداية نقول إن الهجرة عامل من عوامل التغير الاجتماعى الخارجى ، ساعد على انكماش العائلة الممتدة ، وفتتها ، واحل محلها أسرا نووية ، علاوة على أنه أضعف من العـــلاقات القرابيـــة ، وقلص من إتســـــاع شبكتها (٤١) . وحـــد من الزواج القرابى ، والزواج التبـــادلى وهـــذا ما سنعرضه حالا .

أما عن النموذج **الأول** فهو دراسة الدكتور عبد الله غانم على مجتمع الحمالين بميناء الاسكندرية (٤٢) . وتحاول هـــذه الدراســـة الاجابة على تساؤل حول ماذا يحدث عندما تقوم جماعة من المهاجرين من الريف — بماله من بناء اجتماعى تقليدى وثقافة معينة ، بهجرة طواعية من أجل العمـــل والتجمع فى المدينة ، وامتهان مهنة معينة — لبنائهم الاجتماعى التقليدى فى

---

(٤١) د. على المكاوى ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص ٩٤ .

(٤٢) د. عبد الله عبد الغنى غانم ، هجرة الايدى العاملة : دراســة فى الانثروبولوجيـــا الاجتماعية للبناء الاجتماعى لمجتمع الحمالين بميناء الاسكندرية ، المكتب الجامعى الحـــديث الاسكندرية ، ١٩٨٢ .

الموطن الأصلى من ناحية ، وكذلك فى الموطن الجديد من ناحية اخـرى ؟ وإذا حدثت تغيرات فما هو تفسيرها ؟ وفى هذا الصدد ترى الدراسة أن الهجرة أضعفت علاقات المهاجرين القرابية بمجتمعهم الأصلى ، فصارت هذه العلاقات محصورة فى الزيارات الموسمية للتهنئة بالعيدين ، أو بمناسبات كالزواج والحج ، أو للمشاركة فى العزاء فى حالات الوفاة . ولم يبق مؤشر يدل على قوة هذه العلاقات سوى تسمية الأبناء بأسماء الأقارب (٤٣) . حينا ، وتبادل المعونات الاقتصادية حينا آخر . ولم يقف دور الهجرة على تغير النظم القرابية والعائلية فى المجتمع الأصلى ، وإنما برز هذا الدور فى المجتمع الجديد (مدينة الأسكندرية) ، بشكلين ، أولهما إيجابى يتمثل فى تدعيم النظام القرابى للإنتماء المكانى للحمالين ، واستقبال المهاجرين الجدد واستضافتهم بالمدينة وإسكانهم وتشغيلهم بميناء الأسكندرية . وبالتـالى تعمل القرابة على تركزهم المكانى ، حيث أقام ابناء كل قرية مع بعضهم فى أحياء محددة (الورديان — اللبان — القبارى) . ويبعد الشكل الثانى لدور الهجرة سلبيا حيث انفصل الجيل الثانى عن مجتمع الوالدين الأصـلى ، وصار انتماؤهم للمجتمع الجديد ، كما تقلص بينهم الزواج القرابى (سواء من المجتمع الأصلى أو المجتمع الجديد) وضعفت العلاقات القرابية ، وذاب المهاجرون فى المجتمـع الجـديد ، واختفى الزواج الليفراتى Leviratic بالتالى من بينهم .

وهناك دراسة أخرى — تنتمى إلى نفس النموذج الأول — إشترك فى إجرائهـا الـكاتب ، وهى تـدور حـول أدوار المـرأة والتغيرات الديموجرافية (٤٤) . وتتضمن جانبا اجتماعيا هاما عن الهجرة المؤقتـة

---

(٤٣) د. عبد الغنى غانم ، المرجع السابق ، ص ٤٠٣ .

(٤٤) المرأة فى الريف والحضر : دراسـة لحياتهـا فى العمل والاسرة ، اشراف دكتورة علياء شكرى ، دار المعرفة الجماعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٨ . ويمثل هذا الكتاب جزءا من دراسة عن « أدوار المرأة والتغيرات الديموجرافية » ، مكتب العمل الدولى ، جنيف ، ١٩٨٢ . وقد طبقت على مجتمعات من العالم الثالث هى مصر وتايوان والهند وبنجالاديش وسرى لانكـا ، وبيرو ، واشترك المؤلف فى الدراسة الميدانية التى اجريت على قرى محافظة الفيوم .

المتقطعة أو المتصلة والتى يغيب فيها الزوج فى المجتمع الريفى عن أسرته الممتدة أو النووية ، مدة تتراوح بين عام وأربعة أعوام ، يقضيها فى العراق أو مجتمعات الخليج أو الجماهيرية الليبية . أوضحت تلك الدراسة أن هجرة الزوج يترتب عليها تغيرات فى النظم العائلية والقرابيــة . حيث حــدث « تأنيث العائلة » على حد تعبير الدكتور سعد الدين ابراهيم (٤٥) بغيــاب الزوج عنها ، وتعددت الأدوار وتغيرت المكانة التى كانت تشغلها الزوجة ، حيث استخرجت البطاقة الشخصية ، وتعاملت مع الجمعية التعــاونية الزراعية ، وتعاملت مع المصارف (البنوك) وسائر المؤسسات الرسمية . كذلك صارت الزوجة تتخذ قرار زراعة الأرض ، وبيع المحصول وتتعــامل مع الجماعة القرابية ، وتربى الأبناء وتجهز البيت وتبنيه ، وتشترى السلع الأساسية ... الخ . وبعد عودة الزوج يمكن أن تتدعم العلاقات القرابية مع الاقارب الذين ساندوا زوجته وأسرته أثناء سفره ، ويمكن أن تسوء هذه العلاقات مع من أهملوا المساندة . وينعكس ذلك كله على كثافة هــــذه العلاقات ونوعيتها ، والزواج القرابى للأبناء أو الزوج الإغترابى .

أما النموذج الثانى فهو يتمثل فى دراسة الدكتور عاطف وصفى للجالية اللبنانية المسلمة التى هاجرت إلى الولايات المتحدة واستقرت فيها بشــكل دائم وفى مدينة ديربورن بولاية ميتشجان (٤٦) . وتؤكد الدراسة على أن هذه الهجرة قد أحدثت تغييرا جذريا فى النظم العائلية والقرابية لهذه الجالية العربية فقد ظل الجيل الأول المهاجر مرتبطا بعلاقات قرابية وثيقة مع مجتمعه الأصلى ، وظل محافظا على ثقافته العربية ، وإن تعلم اللغــة الانجليزية الدارجة للتعامل اليومى فى مجال العمل . وظلت العائلة مترابطة ، وساعدت

---

(٤٥) د. سعد الدين ابراهيم ، النظام الاجتماعى العربى الجديد ، دار الموقف العربى ، القاهرة ، ١٩٨٥ .

(٤٦) د. عاطف وصفى ، الانثروبولوجيا الثقافية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ص ١٨٣ ، ٢٠٧ .

العلاقات القرابية على التركز السكنى فى حى واحد . أما الجيل الثانى — أبناء المهاجرين — فقد أكتسب الثقافة الأمريكية وتمثلها ، علاوة على احتفاظه تقريبا بالثقافة العربية بقدر ما يستطيع . فهؤلاء يتكلمون اللغة الانجليزية والعربية بطلاقة ، وإن كانت طلاقتهم العربية تتضاءل بحكم استخدامها فى محيط العائلة فقط . كذلك حرص هذا الجيل على تسمية الأبناء بالأسماء العربية الإسلامية ، والزواج من بنى وطنهم زواجا داخليا — سواء من الأقارب أو من غير الأقارب — وإقامة الطقوس العربية للزواج . ويأتى الجيل الثالث على عكس الجيلين الأول والثانى ، حيث انقطعت صلته باللغـة العربيـة ، وازداد انصهـاره فى المجتمع الأمريكى ، وتزوج من الأمريكيات — غير العربيات وزوج بناته للأمريكين وتغير الزى والعـادات والقيم ، وتغيرت الأسماء هى الأخرى . وظهر الزواج من غير المسلمات واختفت التقاليد العربية ، وهكذا أصبحنا أمام أناس ليسوا عربا .

٨ — **التعليم** : يمـارس التعليم تأثيرا ملحوظا فى إحـداث التغير الاجتماعى والثقافى فى المجتمعات العربية . والتعليم يستهدف تغييرا فى عقلية المتعلم ، وإكسابه الخبرات والمهارات ؛ ليصبح أداة لتغيير مجتمعه والإرتقاء به . وتكفى نظرة واحدة لآثار التعليم فى مجتمعنا العربى ؛ لنقف على دوره فى تحديد طريقة الحياة ، ومستوى الطموح ، والانفتاح على العالم الخارجى ، والتعامل مع الواقع الاجتماعى والثقافى ، ومواجهة مشـكلات الحيـاة اليومية (٤٧) . وقد أضفى التعليم بصماته على النظم العائلية والقرابيـة فتغيرت بنائيا ووظيفيا ، وهذا ما سنوضحه الآن :

(أ) لعب التعليم دوره البارز فى رفض الفتى والفتاة الزواج فى عائلة ممتدة ، كما غرس فيهما الاستقلال المعيشى والمكانى بعد الزواج ، مما ألقى

---

(٤٧) د. على المكاوى ، المعتقدات الشـعبية والتغير الاجتمـاعى ، مرجـع سـابق ، ص ص ٣٥٩ — ٣٦٠ .

عبئا كبيرا على الشباب فى إعداد مسكن الزوجية ، وكلفه من المال مالا يطيق ، فانعكس ذلك على الزواج فتعقد وزادت تكاليفه ، وبالتالى تأخر سن الزواج لكل من الشباب (من ٣٠ – ٤٠ سنة) والفتاة (من ٢٠ – ٣٠ سنة) ، وبالتالى تسود الأسرة النووية ، وتتقلص العائلة المتدة .

(ب) فى ظل هذه الأزمات الاقتصادية والإسكانية ، تساعد التعليم على قبول الفتى والفتاة — المقبلين على الزواج — لأن تخصص العائلة الريفية أو الحضرية المصرية — لإبنها جزءا من المسكن ، بمدخل خاص ليعيش فيه ويستقل مع زوجته . وبالتالى ظهر نظام جديد للعائلة يسمى « بالعائلة الممتدة المعدلة » ، التى تجمع بين خصائص العائلة المتدة والأسرة النووية . فالمكان يجمع الجميع إلى حد ما ، ورابطة الدم تؤلف بينهم إلا أن المعيشة ليست مشتركة وهذا هو الفارق الوحيد بين النظامين . وقد لاحظنا هذا التغير البنائى فى المجتمع السودانى وبالتحديد فى مدينتى الخرطوم وأم درمان حيث يعجز الشاب عن تدبير مسكن الزوجية ، فتقتطع له عائلته الأصلية جزءا من « الحوش » الواسع وتعد له مدخلا مستقلا وعلى واجهة تختلف عن واجهة البيت الكبير ، ويتزوج فيه الإبن ويستقل معيشيا عن عائلته . وهكذا ينتشر نظام « الأسرة المتدة المعدلة » فى ظل هذه الظروف (٤٨) . وسوف يعم فى المستقبل ويسحب البساط من تحت أقدام العائلة المتدة ، والأسرة النووية ذاتها .

(حـ) أدى التعليم إلى تغير بنائى آخر فى النظم العائلية والقرابية فى مجتمعنا المصرى يتمثل فى إختفاء نظامين من نظم الزواج وهما الزواج الليفراتى Levirate (زواج الأخ بأرملة أخيه) والزواج الصوروراتى Sororal (زواج الرجل بشقيقة زوجته المتوفاة) . والواقع أن المجتمع العربى قد أوجد هذه النظم العائلية للحفاظ على النظم والعلاقات

---

(٤٨) د. على المكاوى الانثروبولوجيا الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص‌ص ٩٢ — ٩٣ .

القرابية ، ولكى يربى العم أبناء اخية المتوفى افضل من زوج الأم ، وتربى الخالة ابناء اختها المتوفاة افضل من زوجة الأب ، وكذلك لكى تستمر الارملة تعيش مع العائلة وفى ذلك إمتداد لإسم المتوفى وإبقاء على ذكراه .

(د) أحدث التعليم تغيرا آخر فى النظم العائلية والقرابية فى سائر المجتمعات العربية ، بحيث تكاد العائلة المتدة تختفى تحت وطأة التغير ، ويحل محلها العائلة المتدة المعدلة والأسرة النووية . وهذا ما اكدته معظم الدراسات السوسيولوجية والأنثروبولوجية على مجتمعات عربية مختلفة .

(هـ) ترتب على التغير الاجتماعى والثقافى الذى طرأ على مجتمعنا المصرى بفضل التعليم ، أن حل الزواج الأحادى **Monogamy** محل الزواج التعددى **Polygyny** (٤٩) وخاصة بين المحدثين من المتعلمين (فى الفئة العمرية ٣٠ — ٥٠) . وفى نفس الوقت أسفر التعليم عن عزوف عن الزواج القرابى بين المتعلمين فى قرية ميت بره بالمجتمع الريفى (٥٠) علاوة على ذلك ساعدت عمليات التنمية الريفية على تبلور الاتجاهات الفردية التى تفصح عن نفسها فى الاستقلال الأسرى ، والاتجاه نحو الزواج الخارجى ، ونحو حرية الاختيار للزواج .

(و) ساهم التعليم فى اختفاء بعض طرق وطقوس الزواج فى المجتمع البدوى بالصحراء الغربية المصرية فى صعيد مصر . ويتمثل ذلك فى التغير الذى طرأ على طريقة « خطف العروس » والطقوس المرتبطة بها . وهى طقوس ترمز لعملية الخطف ، حيث ينقسم الجمهور إلى جماعتين تقوم بينهما معركة صورية يمثلونها . وتنتهى بأن يخطف العريس عروسة على ظهر

---

(٤٩) د. أحمد أبو زيد ، البناء الاجتماعى ، مرجع سالف الذكر ، ص ٢٧٩ .

(٥٠) د. كمال التابعى ، القيم الاجتماعية والتنمية الريفية : دراسة فى علم الاجتماع الريفى ، نهضة الشرق ، القاهرة ، ١٩٨٦ ، ص ١٨٣ ، و ٢٧٩ ومواضع مختلفة .

حصانه او بعيره ، ويهرب بها من وسطهم (٥١) . وقد تكون هذه الدراما الشعبية رمزا لمظاهر العداء القديم الذى كان يسود قديما بين العشائر والقبائل العربية . وقد كانت هناك صورة واقعية مماثلة بين القبائل العربية فى العصر الجاهلى ، حيث يشتد أوار الحرب بين قبيلتين ، فتسبى رجال القبيلة المنتصرة ، نساء القبلية المهزومة ويتزوجونهن . وفى ضوء ذلك حدث التغير فى مضمون الطقوس ، ويبقى الشكل بلا تغير . وفى النهاية ساهم التعليم فى اختفاء هذه الطقوس من المجتمعات الريفية وبعض المجتمعات البدوية .

* * *

خامسا — خاتمة :

بعد هذا العرض السريع لأهمية النظم العائلية والقرابية فى مجتمعاتنا العربية ، ودورها الحيوى فى البناء الاجتماعى للمجتمع ، وأهم هذه النظم ، والعوامل التى ادت إلى تغيرها ، وأهم معالم هذا التغير فى مجموعة من المجتمعات العربية ، يمكن القول بأن النظم العائلية والقرابية تعايش تغيرا معاصرا يختلف معدله باختلاف ظروف كل مجتمع على حدة .

لكن الواضح من استقراء معالم التغير فى النظم العائلية والقرابية أن معدلات هذا التغير قد وصلت إلى اقصى مدى لها فى مجتمعات الخليج العربية ، ولا تزال فى مستوى متوسط فى باقى المجتمعات العربية . وذلك راجع إلى طبيعة ونوعية عوامل التغير وظروف المجتمع ذاته . والواقع أن هذه المجتمعات ستشهد تغيرات مستقبلية أكثر عنفا ولفتا للأنظار ، لأن التغير فيها يمثل طفرة كما سبق أن أشرنا .

---

(٥١) د. عاطف وصفى ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص ١٢٠ وأيضا انظر:

— د. أحمد أبو زيد ، البناء الاجتماعى ، مصدر سابق ، ٢٨٤ .

— د. على المكاوى الانثروبولوجيا الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص ص ١١٥ — ١١٦ .

ومن ناحية اخرى نلاحظ من استعراض هذا التغير فى كل المجتمعات العربية ان النظم القرابية قد طرأ عليها التغير ، وان النظم العائلية هى الاخرى لم تسلم من وقعه . ومع ذلك فإن المجتمعات العربية لا تزال القرابة فيها والقيم القرابية ، والعائلة والقيم العائلية ، تحظى بمكانة عاليــة فى المجتمع العربى برمته ، على عكس المجتمعات الغربية . ومرد هذا التفرد إلى الدين الإسلامى الذى يحض على صلة الرحم والتواصى بالعائلة خيرا ، وإلى الطبيعة القبلية الأولى التى كانت غالبة على هذا المجتمع .

ومن اللافت للنظر ان كل الدراسات السوسيولوجية والأنثروبولوجية تجمع على تحول النظام العائلى فى المجتمع العربى من النظام الممتد والمركب، إلى النظام النووى الصغير . ونحن نؤكد هنا على بزوغ نظام عائلى جديد اسميناه « بالعائلة الممتدة المعدلة » ، ونؤكد أيضا على أن هذا النظــــام سوف يحل محل النظامين السابقين (الممتد والنووى) فى المستقبل طالمــا غلبت الأزمات الاقتصادية والإسكانية على الحياة الاجتماعية .

وفى ضوء ذلك تقترح إجراء المزيد من الدراســات السوسيولوجيــة والأنثروبولوجية على مجتمعنا العربى كله ، فى قطاعاته الاجتماعية البدوية أو الريفية والحضرية لنصل إلى تشخيص كامل وصائب لواقع النظم العائلية والقرابية . ولتكن هذه الدراسات من خلال جامعة الدول العربية . أو مركز بحوث العلوم الانسانية بجامعة قاريونس الذى تفضل بالاضطلاع بالإعداد لهذه الندوة ، واتاح فرصة التعارف بين الاجتماعيين العرب . والله من وراء القصد وهو الهادى إلى سواء السبيل .

* * *

الفصل الحادي عشر

التغير الاجتماعي

الأنماط والعوامل

الفصل الحادي عشر

التغير الاجتماعي

الأنماط والعوامل

مقدمة :

يعد التغير الاجتماعي Social Change ظاهرة طبيعية تخضع لها جميع المجتمعات الإنسانية بلا استثناء . غير أن الاختلاف بين هذه المجتمعات لا يكون في نوع التغير ، بقدر ما هو اختلاف في مدى هذا التغير ودرجته . وعلى ذلك فلا يمكن قبول ما قاله بعض الأنثروبولوجيين من أن المجتمعات البدائية ثابتة استاتيكية لا يعتريها التغير (١) . إذ أن هذه المجتمعات تتعرض — في الواقع — لموجات من التغير ، ولكنها تتخذ شكل الإيقاع الهادىء ، وتنأى عن العنف والطفرات Mutations (٢) .

وتكفى نظرة واحدة إلى مجتمع من المجتمعات لنرى ما اعتراه من تغيرات عديدة على فترات زمنية مختلفة . ولو نظرنا إلى المجتمع المصرى — على سبيل المثال منذ قرن واحد من الزمان — لوجدنا مدى التغير البالغ الذى طرأ على هذا المجتمع . ولعل من يتصفح دراسة وليم لين W.Lane (٣) أو كلونزنجر Klunzinger (٤) ، يقف على مدى ما طرأ عليه من

---

(١) انظر : Evert Roger and Floyed Shoemaker Communication of Innovation, The Free Press , New York, 1971 , p. 17 .

(٢) انظر حول معنى الطفرة :

ايكه هولتكرانس ، قاموس مصطلحات الاثنولوجيا والفولكلور ، ترجمة الدكتورين محمد الجوهرى وحسن الشامى ، ط ٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٢٤٥ .

(٣) ادوارد وليم لين ، المصريون المحدثون ، ترجمة عدلي طاهر نور ، ط ٢ ، دار نشر الجامعات ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

(٤) C. B. Klunzinger, Upper Egept : Its People and Its Product . London. 1878 .

تغير فى البناء والوظائف على حد سواء . وقد تناولنا كل ذلك بالتفصيل فى دراستنا للماجستير فى عام ١٩٨٢ ، حينما عرضنا للتغير الاجتماعى وعلاقته بالمعتقدات الشعبية فى قرية سيف الدين بمحافظة دمياط (*) .

غاية القول أنه لا توجد ثقافة Culture ولا مجتمع استاتيكيان على الإطلاق ، ولابد أن التغير اعتراهما بشكل أو بآخر (٥) ، حتى وإن كان المجتمع يتصف بدرجة كبيرة من الثبات Stability أو المحافظة الثقافية Cultural Conservatism . ومرد ذلك إلى وجود عمليتين فى كل مجتمع ، تسيران جنبا إلى جنب فى داخل النسق الاجتماعى . العملية الأولى منهما هى مجموعة المحاولات التى تتجه نحو تدعيم النسق ، أو حتى المحافظة عليه ، والثانية هى المحاولات التى ترمى إلى إحداث التغيير فى بنيانه (٦) . وتحاول الأنثروبولوجيا الاجتماعية الكشف عن هاتين العمليتين فى المجتمع ، وإلقاء الضوء على أهم العوامل الفاعلة فيهما .

ومن خلال ذلك نسوف نتناول فى هذا الفصل الموضوعات التالية :

أولا : التغير الاجتماعى والتغير الثقافى .

ثانيا : انماط التغير الاجتماعى .

ثالثا : عوامل التغير الاجتماعى .

* * *

أولا — التغير الاجتماعى والتغير الثقافى :

من الواضح أن قضية التغير الاجتماعى قد قتلت بحثا ودراسة ، ولا تزال مع ذلك موضوع اهتمام الكثيرين . إلا أن تناولها فى الغالب يعتمد

(*) على المكاوى المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعى ، مرجع سابق الذكر .

(٥) Melville Herskovits, Cultural Anthropology, Indian Edition, Bombay, 1969 p. 343.

(٦) Harry Johnson, Sociology : A Systematic Introduction, (3 rd Indian edition) , Bombay, 1970. p . 625.

على ربطها بقضية اخرى أو بموضوع آخر . ولعلنا فى هذا الفصل نربطها بتعض العناصر اللامادية من الثقافية ، وهى المعتقدات الشعبية . وبالتالى فسوف نوكز على طبيعة العلاقة بين التغير الاجتماعى وبين هذه المعتقدات، مع إبراز أهم اسـهامات علمـاء الأنثروبولوجيا عامة — والأنثروبولوجيا الاجتماعية بنحو خاص — فى بلورة هذه القضية وإلقاء الضوء عليهـا . أضف إلى ذلك أن هناك بعض المقدمات المنطقية التى لابد منها فى تناولنـا للتغير الاجتماعى .

يقصد بالتغير الاجتماعى أى تغير يطرأ على البناء الاجتماعى ، أو الوظائف الاجتماعية . وقد يكون هذا التغير تقدميا للأمام (أى إرتقائيا) ، كما قد يكون فى ظرف آخر تغيرا إلى الوراء (نكوصـا) Regression (٧)، فى حالة الأزمات السياسـية ، والاقتصـادية ، والاضـطرابات الداخلية ... الخ .

ومن المعروف فى هذا الصدد أن المجتمع يحتوى فى بنيانه على عمليات اجتماعية تؤدى إلى الحفاظ عليه ، وتدعيمه ومن هذه العمليات التنشـئة الاجتماعية والضبط الاجتماعى ويحتوى البناء الاجتماعى أيضا على عمليات تسعى جاهدة لإحداث التغيير فى البنيان نفسه . غير أنه لا يوجد فاصـل بينهما . فعلى سبيل المثال : يتعمد الآباء فى المجتمع الذى تسوده الثورة ، أن ينشئوا أبناءهم على قيم وأنماط السلوك التى تتجه بكليتها نحو البنـاء المستقبلى للمجتمع ، اكثر من اتجاههم نحو الوضع القائم والحفاظ عليه . ومن ثم يمكن القول بأن الآباء لا يقومون بتعليم أبنائهم كل شىء تعلموه هم أنفسهم من آبائهم (جدود الأبناء) فالأباء فى هذه الحالة يعملون على الأقل

---

(٧) على المكاوى ، المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعى ، مرجع سابق الذكر ، ص ص ٣٤٣ — ٣٤٥ . وحول مفهوم « النكوص » راجع :

هولتكرانس ، مرجع سابق ، ص ٣٥٤ .

على تحول وانتقال الثقافة ، أو الحفاظ عليها (٨) . ولكنهم يحاولون — بنفس القدر أن يعيدوا تشكيل الحياة الاجتماعية والنسق الاجتماعى من جـديد .

وعلى الرغم من أن عمليات التغير الاجتماعى تحـدث تحولا وتبدلا فى النسق الاجتماعى ، إلا أنها قد تعمل على الحفاظ على النسق وتدعيمه . فقد يحتاج هذا النسـق أن يكيف بناءه فى الظروف الجديدة ، ويتواءم مـع هذه الظروف لكى يحافظ على بقائه . ومن الممكن أن يعمل التغير الذى يطرأ على النسـق ، على تأكيد تكامله (٩) Integration ، بحيث يكـون متميزا عن غيره . على حين لو ظل هذا البناء بنفس حالة التغير مدة طويلة من الزمن ودون أن يعيد تكيفه تارة آخرى مع الأوضاع والظروف الجديدة ؛ فلا بد أن يفقد تكامله كنسق متمايز . وكلنا يعرف أن خروج المرأة الى مجال العمل فى المجتمع المصرى قد ترتب عليه خلل فى النسق الاجتماعى شـمل النظام التربوى ، والعائلى ، واحدث تغيرات فى النظم السياسية والاقتصادية ... الخ . وهنا كان على النسـق أن يتخذ مجموعة من الاستجابات التلاؤمية التى يضمن بها أن يعيد تكيفه من جديد مع التغيرات القائمة . ومن ثم ظهرت التشريعات التى تحمى المرأة ، وتحدد حقوقها وواجباتها واضطلع نظـام

---

(٨) Harry Johnson , Sociology . Op. Cit p 625.

(٩) التكامل **Integration** هو المبدأ الذى ترتبط الاجزاء بمقتضاه مكونة كلا واحدا ... ويفرق سوروكن **Sorokin** بين « التكامل المنطقى الهادف » الذى يميز الثقافة ، وبين التكامل العلى الوظيفى الذى يميز الانساق الاجتماعية . ولكن من المعروف أن هذا التكامل لا يكون تاما على الاطلاق . وفى هذا الصدد يميز كوهين **Cohen** بين « التكامل الوظيفى » من ناحية ، و « التكامل المنطقى » أو الفروض الثابتة التى تعبر عن القيم والمعتقدات التى ينطلق منها السلوك من ناحية أخرى . ويرى كوهين أن « من لزوميات التكامل الوظيفى ألا يتيح التحقق الكامل للتكامل المنطقى ، أو يتيح تحققه بدرجات متفـاوتة وفى ظل ظـروف مختلفة » . للمزيد من التفاصيل : أنظـر :

هولتكرانس ، قاموس الفولكلور ، مرجع سابق ، ص ص ١٢٧ — ١٢٨ .

الضبط الاجتماعى بذلك . ثم قام النظام الاقتصادى بإنتاج الأدوات وتقديم التسهيلات التكنولوجية والصناعية التى تيسر لها عملها فى البيت . كما تكفل النظام التربوى بافتتاح دور الحضانة التى ترعى الأبناء الصغار فى فترة غياب الأم عنهم ، وهكذا . وهنا يظهر مدى حرص النسق على إعادة تكامله المفقود . أما إذا ظل على حالة التفكك والخلل ، بدون المبادرة بمواجهة التغيرات الجديدة والتكيف معها ، فسوف يتدهور ويتفكك ومن ثم يصل إلى حالة التغير « النكوصى » المذكورة .

وعلى الجانب الآخر نجد أن خصائص النسق الاجتماعى ومظاهره ، وقيمه ، قد تعمل على الحد من التغير (١٠) . ففى المجتمعات ذات التنظيم الطائفى الصارم كالهند مثلا ، يتباطأ التغير إلى أدنى معدلاته . إذ يحدث أن أعضاء طائفة معينة ، لا يمكن أن يحصلوا على الماء من نفس العين الجارية التى تجلب الطوائف الأخرى منها الماء فى ظل النظام الطائفى التقليدى . وليس الأمر قاصرا على المياه فحسب ، وإنما يمتد ليشمل تحريم دخول نفس المدرسة ، وحظر طعام معين ومنع تناوله فى نفس الوقت بأية صورة من الصور .

إذن فالتغير الاجتماعى هو العملية التى يحدث بمقتضاها تحول فى بنية النسق الاجتماعى ووظيفته . ومن أمثلة التغير الاجتماعى الثورة القومية ، واختراع أساليب فنية صناعية جديدة ، وإنشاء مجالس تطوير وتنمية القرى ، ومشروعات تنظيم الأسرة ... الخ (١١) . وبعد ذلك يطرأ التحول فى بنية ووظائف النسق . فالبناء الاجتماعى للنسق يتكون من

---

(١٠) George Foster , Traditional ocieties and Social Change , 2. ed Ed tion. New York, 1973, p 114.

(١١) E. Rogers and Otner , Commun cat on of nnovations, Op. Cit., p . 7.

وانظر كذلك : على المكاوى ، المعتقدات الشعبية ، مرجع سابق ، ص ٢٤٤ .

الأشخاص العديدين ومراكز الجماعة التى تشكله . وقد يكون الوضع Position أو المركز Status فى النسق الاجتماعى رسميا مثل المدرس بمدرسة فى القرية مثلا ، وقد يكون غير رسمى Informal مثل قائد جماعة الحوار وممثل الرأى العام فيها . ويحمل كلا النمطين مركبا ضمنيا من التوقعات عن سلوك الشخص الذى يشغل هذا المركز أو ذاك الوضع .

أما العنصر الخاص بالأداء الوظيفى Functoning فى داخل ذلك البناء من المراكز فهو دور الشخص ، أو السلوك الفعلى له فى المركز الذى يشغله . ويتبادل الدور والمركز التأثير والتأثر فيما بينهما (١٢) . حيث يحمل مركز المدرس فى المدرسة مثلا معه توقعات ترتبط بسلوك الشخص فى هذا الوضع ، ومؤثرا بذلك فى سلوكه الفعلى . أما إذا انحرف الشخص انحرافا كبيرا عن مجمل سلوكياته ، فإن مركزه يتغير بالضرورة وبشكل مباشر .

ومن المسلم به أن البناء الاجتماعى والوظيفة الاجتماعية يتبادلان الاعتماد والتأثير والتأثر كل منهما فى الآخر . فانشاء الجمعية التعاونية الزراعية فى القرية — على سبيل المثال — يؤثر على بنائها الاجتماعى عن طريق إقامة نظام جديد للمراكز . وبمجرد ما يبدأ الأداء الوظيفى للأشخاص فى أوضاعهم الجديدة ، يبدأ بالتالى التأثير الاكبر فى الأداء الوظيفى لتلك الجمعية . ويتمثل هذا التأثير فى احتجاج الفلاحين ، وإعتراض بعض أصحاب الحيازات ونقمة بعض أعضاء مجلس الادارة على بعضهم الآخر بسبب ما يستأثر به من إمتيازات يقتنصها من الآخرين . وكذلك الحال فى المستشفى بالقرية ، تنشأ ، فينشأ نظام للأدوار والأوضاع الاجتماعية فيشكلان بناء اجتماعيا لها . ولكن مع بداية الأداء الوظيفى لها فى الرعاية الطبية والعلاج

---

(١٢) انظر : B. Rogers and Other, Ibid. p. 8.

... الخ ، يبدأ سخط الفقراء على طبيب الوحدة لأنه يحجب عنهم العلاج المجانى ، وعلى المرضين الذين يبيعونهم الخدمة الرسمية والعلاج المباشر بمقابل لا يقدرون عليه . وغاية القول أن البناء والوظيفة يسود بينهما الاعتماد المتبادل والتأثير والتأثر .

وإذا كان هذا شأن التغير الاجتماعى ، فما هو إذن شأن التغير الثقافى ؟ يعد التغير الثقافى Cultural Change ذا مدلول أوسع كثيرا من مدلول التغير الاجتماعى ، وإن كان الاثنان يستخدمان للاشارة إلى التغيرات الاجتماعية التى تحدث فى مجتمع من المجتمعات . ولكن المقصود من التغير الثقافى أرحب من ذلك ، إذ يدل على كل تغير يحدث فى الجوانب المادية واللامادية للثقافة كأن يحدث فى اللغة ، أو الفن ، أو العلم ، أو المعتقدات والعادات ، أو فى المأكل والمشرب والملبس ، أو وسائل المواصلات والنقل ، أو فى النمط الفيزيقى للمسكن ، والأثاث ، أو فى الصناعة أو فى شكل من أشكال الحياة الاجتماعية (١٣) . وما ذلك التعدد بكثير ، خاصة وأن التغير الثقافى يتعلق بالثقافة ، والثقافة ظاهرة شاملة للعديد من الجوانب المادية Artifacts ، والعقليات Mentifacts والاجتماعيات Socifacts .

وفى هذا الصدد يذهب كيسنج Kessing إلى أن الثقافة هى « مجموع السلوك المكتسب الذى يتم تناقله اجتماعيا » . وعلى ذلك فهى تضم العديد من العناصر كما سبق . وأن اى تغير يطرأ على عنصر من التكوينات المادية ، والعقلية والاجتماعية — عند هكسلى Huxley — يعد تغيرا ثقافيا . وعلى هذا فإن التغير الثقافى يعنى اى تغير يمكن أن يؤثر فى مضمون أو بناء ثقافة معينة . ويعتمد هذا النوع من التغير على الإنتشار Difusion أو الاختراع Invention .

---

(١٣) د. المكاوى ، المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعى ، مصدر سابق الذكر .

إذن فالتغير الثقافى ظاهرة أعم وأشمل من التغير الاجتماعى . كما أن هذا التغير الثقافى لا تخلو منه جماعة بشرية ، وتتضح هذه الحقيقة من خلال دراسة التغير فى أثناء حدوثه In process ، أو عن طريق التحليل الثقافى للثقافات غير التاريخية (١٤) . علاوة على أن الطابع الدينامى للاختلافات الاقليمية والتباينات المحلية يؤكد حدوث هذه الظاهرة الشاملة .

وعلى هذا فالتغير الثقافى ظاهرة عريقة الأصول ، ممتدة الجذور فى دراما تتابع الأجيال ، تلك الدراما التى لا ينضب معينها ، ولن يجف على الاطلاق (١٥) . وبالتالى فهى تشكل منبها اجتماعيا ثقافيا للتغير الثقافى والتعجيل به .

وإذا كان حدوث التغير الاجتماعى محل اتفاق بين علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية والفولكلور على السواء ، إلا أن التباين فى وجهات نظرهم ينصب على موضوعات تنبثق عن هذه الظاهرة . أى كيف يحدث التغير الاجتماعى ، ولماذا يتخذ إيقاعا هادئا تلاؤميا فى مجتمع ، بينما يتخذ شكلا عنيفا فى مجتمع آخر ؟ ثم ما هى أنماط هذا التغير ، والعوامل التى تحدثه وتعجل به ، وما هى المعوقات الإجتماعية له ؟ وما هى النتائج التى تترتب عليه ، وما مردودها ، ولمصلحة أية طبقة اجتماعية من الطبقات ... الخ ؟ (١٦) . وهذه التساؤلات تمثل رؤوس موضوعات يتناولها هنا بالتفصيل .

* * *

---

(١٤) M. Herskovits., Cultural Anthropology, Op. Cit., p. 44?.

(١٥) Vern Bengtson and Others. Time, Aging and The Continuity of Social Structure : Themes and Issues in Generational Analysis, in : Journal of Social Issues, Vol. 30, 1974, p. 25.

(١٦) على المكاوى ، المعتقدات الشعبية ... ، مرجع سبق ذكره ، ص‌ص ٣٤٩ — ٣٥١ .

ثانيا — انماط التغير الاجتماعى :

يتعرض كل نسق اجتماعى لحالة من التغير الملموس على مدار الزمن، شانه فى ذلك شأن الكائن الحى الصغير ، الذى ينمو باستمرار فيطرا عليه التغير . كذلك شأن الطفل الذى يعايش نمـوا فسيولوجيا فيتغير وتتغير بالتالى الأدوار التى يقوم بها . وقد لا تكون هذه التغيرات العمرية ذات اهمية كبيرة فى المدى الزمنى القصير ، وإنما تزداد أهميتها بتراكم هذه التغيـرات البسيطة على المدى الطويل (*) . وهنا ينصب الاهتمام — فى ضوء هذا المعنى — على إسهام جماعات العمر المتوالية باستمرار فى عمليـة تغيير تشكيل Configuration النظام الاجتماعى (١٧) .

وإذا كانت التفسيرات التى تربط بين التقدم الاجتمـاعى والازدهار الثقافى وبين التتابع البيولوجى للأجيال ، تد ظهرت معالم تصورها بوضوح، فإن اهتمام العلماء توجه نحو الدور الذى تلعبه الصفوة Elite فى إحداث التغير الاجتماعى ، واعتبارها بمثابة ميكانيزم حيوى داخل الجيل ، ويحدث هذا التغير (١٨) . لذلك شهدت العقود الأخيرة توجها جديدا نحو الاهتمام بجدوى تتابع الأجيال فى هذه الظاهرة .

ومن المعروف انه فى كل عملية تفاعل مع شخص آخر مثلا ، يقـوم أعضاء النسق الاجتماعى بممارسة تاثيرات متبادلة فى الاتجاهات ، بما فى ذلك توقعاتهم المتبادلة . وإذا كان هذا النسق فرعيا ، فإن أعضاءه يعتريهم التغير من خلال المشـاركة فى الأنسـاق الأخـرى فى قدراتهم واتجاهاتهم ... الخ .

(*) Harry Johnson, Sociology, Op. cit., p 626.

(١٧) Vera Bengtson and Others, Op. cit., p. 2.

(١٨) انظر دراستنا عن المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعى سابقة الذكر : ص ٢٤٥ ، والمراجع الواردة هناك .

وغاية القول أن هناك بعض أنواع التغير الاجتماعى تبدو أكثر أهمية من غيرها ، كما تتجاهل بعضها الأخرى أغراضا معينة . وعلى هذا ، لزم التنوية السريع إلى أظهر هذه الأنواع والبيئات التى تكون فيها أكثر أهمية — وذلك قبل تناول أنماط التغير الاجتماعى — ومن ذلك مثلا :

١ — نسبية التغير الاجتماعى ، وأهمية بعض التغيرات عن الأخرى فى بيئة معينة (١٩) . وتدور هذه الفكرة حول أنظمة جوهرية مثل النظام القيمى المعيارى ، والنظام العائلى والنظام الاقتصادى والنظام السياسى ... الخ . فقد تغيرت القيم الإقطاعية فى الريف المصرى ، ولم تعد المهن الزراعية تستقطب الاحترام ، وباتت الملكية الزراعية تتنازل عن عرشها — كمصدر للقوة الاقتصادية — راغمة للمهن الفنية والتكنولوجية فى مجال الصناعة والمهن الحرة والنقل والمواصلات . وصارت الوظائف الاقتصادية تحظى بمعظم الاهتمام الذى يتجسد فى هيبة أصحابها إلى حد كبير (٢٠) .

٢ — أنماط التغير الاجتماعى ومنها الأنماط الداخلية والأنماط الخارجية . وهذا ما سنركز عليه فى هذه الفترة .

٣ — مستويات التغير الاجتماعى ، أى الوحدة التى تتبنى الفكرة الجديدة أو تعارضها . فاذا كان التغير داخليا immanent (Internal) كان له مستويان ، أولهما المستوى الفردى على نطاق الوحدات الصغرى ، وثانيهما المستوى الاجتماعى على نطاق النسق . وبالتالى تؤدى المحصلة النهائية لهذين المستويين إلى تغير نسقى .

* * *

---

(١٩) Talcott Parsons , The Social System, (Indian Edition), New Delhi, 1972. p. 503.

(٢٠) على المكاوى ، المعتقدات الشعبية ... ، مرجع سالف الذكر ، ص ٣٤٦ .

أنماط التغير الاجتماعى :

يمكن النظر إلى التغير الاجتماعى من خلال مصدر حدوثه . فإذا كان هذا المصدر نابعا من داخل النسق الاجتماعى موضع الدراسة ، نكون بصدد تغير من الداخل . على حين لو كان المصـــدر قادما من خارج النســق ، كالاتصال مثلا ، فإننا نكون أمام تغير من الخارج .

وقد قدم بعض دارسى التغير الاجتماعى معايير للتمييز بين أنماطـــه المختلفة . وأول هذه المعايير هو إدراك أعضاء النسق الاجتماعى لحاجتهم الملحة للتغير . وثانيهـــا هو أصل أو مصدر الفكرة الجديدة التى أحدثت التغير (٢١) . وسوف نشير بايجاز إلى هذه الأنماط .

١ — **التغير من الداخل (الداخلى)** Internal : وهو ظاهرة تنبع من داخل المجتمع ذاته بعيدا عن أى تأثير خارجى . وقد يتمثل ذلك فى تقديم فكرة جديدة ، أو عنصر جديد ، أو اختراع بسيط ييسر الاتصـــــال أو العمل الزراعى أو التجارى أو الصناعى ، ويوفر الجهد ويختصر الوقت. ويؤدى التغير الداخلى النابع من مصدر واحد إلى إطلاق العنان لمجموعات أخرى من التغيرات ، مع حدوث رد فعل يؤثر على المصدر الأول . وبالتالى نكون أمام العلاقة الدائرية Circular relationship (٢٢) .

ويوضح مجتمعنا المصرى هذه العلاقة ويجسدها من خلال ما حدث فيه من تغيرات بعد ثورة ١٩٥٢ ، طرأت على النظام السياسى أولا ، ثم لحقها على الفور تغيرات هيكلية فى النظم الاقتصادية والتربوية والعسكرية وغيرها . وقد دعم تغير هذه النظم ، النظام السياسى من جديد ، ليدعمها بدوره فى نفس الوقت مرة أخرى (٢٣) .

---

(٢١) Shoemaker and Roger, Op, cit.. p. 8.

(٢٢) Hary Johnson, op. cit., p. 632 .

(٢٣) د. على المكاوى ، المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعى ، مرجع سابق الذكر ، ص ص ٣٤٦ — ٣٤٧ .

٢ — **التغير الخارجي** **External Change** : ويحدث هذا النوع من التغير ، حينما تطرأ الأفكار الجديدة على النظام الاجتماعى أو النسق من خارجه . وبالتالى يمثل التغير هنا ظاهرة تقع بين النسق وغيره . وقد يتخذ التغير الخارجي شكلا اختياريا أو شكلا مخططا أو موجها، فى ضوء مصدر الحاجة إلى هذا التغير . فإذا كان مصدرها داخليا ، أصبح التغير ذا شكل اختيارى ، بينما لو كان المصدر خارجيا ، صار التغير مخططا أو موجهـا .

(أ) التغير الاختيارى **Selective Change** : ويحدث هـذا الشكل من أشكال التغير حينما يتعرض النسق الاجتماعى لمؤثرات خارجية ، يترتب عليها قبول الأفكار الجديدة أو المخترعات الجديدة الوافدة من خارجه وتبنيها ، أو معارضتها وفقا للاحتياجات الخاصة لأعضاء النسق ذاتهم . فالتعرض لصور الابتداع يكون تلقائيا ، أو مصادفة حيث تترك للمستقبلين حرية الاختيار ، والتأويل ، والتبنى للفكرة الجديدة والاختراع الجديد ، أو الاعتراض عليها ورفضها . ومثال هذا النمط من التغير الاختيارى فى النظام التربوى ، عندما يقوم المدرسون بزيارة إلى مدرسة مجاورة وخاصة اذا كانت تتسم بالروح الابتكارية الإبداعية . وقد يعود المدرسون إلى فصولهم بأفكار جديدة ، وطرق تدريس جديدة ، دونما إجبار أو قسر من ناظر المدرسة حول تبنى هذه الأفكار أو البحث عنها .

(ب) **التغير الموجه** **Directed Contact Change** **أو المخطط** :

ويحدث هذا النمط عن طريق أشخاص من الخارج يمثلون هيئات خارجية لإحداث التغير . ومن خلال الأفكار التى يقدمونهـا — على مـدى إقامتهم وتمثيلهم لهيئاتهم — يحاولون إنجاز الأهداف الكبرى المخططة . وتعد حملة الصحة العامة **Puelic health Campaign** التى استهدفت « غلى الماء قبل شربه » فى بيرو مثالا على ذلك (٢٤) . فالاختراع ، أو الفكرة الجديدة

---

(٢٤) Lucy Mair , An Introduction to Social Anthropology op. cit., p. 265.

عموما ، قد نبتت في خارج المجتمع ، في حالة التغير الاجتماعي المخطط . وتعد الهيئات الحكومية العاملة في مجال التنمية ، وما تتبعه من برامج تستهدف التطوير التكنولوجي والتعليمي والزراعي ... الخ — كلها امثلة على التغير المخطط الموجود في عصرنا الحاضر (٢٥) . وتجدر الاشارة إلى أن رغبة الحكومات في رفع مستوى معيشة شعوبها ، لا يمكن تحقيقها إلا عن طريق البرامج الفعالة للتغير الموجه . فهذه البرامج مؤشر يدل على عدم رضا تلك الحكومات عن معدل التغير النابع من الداخل ، وكذلك التغير الخارجي الموجه على السواء .

* * *

ثالثا — عوامل التغير الاجتماعي :

من المعروف أن هناك العديد من العوامل التي تؤدي إلى احداث التغير الاجتماعي . وتتنوع هذه العوامل ما بين العوامل الداخلية التي تنبع من داخل النسق نفسه ، والعوامل الخارجية النابعة من خارجه اساسا . وغالبا ما تصطبغ العوامل الداخلية بالصبغة الفردية النفسية ، على حين يغلب على العوامل الخارجية الطابع الاجتماعي . « وعلى كل حال فإن هذه العوامل تتداخل وتتبادل التأثير والتأثر فيما بينها » (٢٦) . كما أنها تتضمن من العوامل ما هو بيئي ، وما هو نفسي ، وما هو تاريخي ... الخ .

١ — **العامل البيئي** : تلعب العوامل البيئية دورا هاما في التغير الاجتماعي . فإذا ما تغير المناخ مثلا ، حاول اعضاء النسق الاجتماعي أن يكيفوا انفسهم مع الوضع الجديد في مجال الزراعة والصناعة والتجارة والنظم الاجتماعية . وقد ينضب معين التربة فيهجرها السكان إلى موضع آخر ليعيدوا تكيف انفسهم مع البيئة الجديدة وما يترتب على ذلك من تغيرات في نوع العمل ، وطرق التفكير ، ووسائل الإنتاج ... الخ .

---

(٢٥) Roger and Other , Op. cit.. p. 9.

(٢٦) M. He skovits, Cultural Anthropolog/, Op cit., p. 451.

والبيئة او المكان قد تعمل على تقديم الإمكانيات المفيدة لمن يقطنها ، وقد تكون جرداء عديمة الجدوى بالنسبة لهم . إذ يمكن أن تشكل هذه البيئة عقبة فى وجه التيار التكنولوجى الطاغى . كما يمكن أن تحد المراقيل الطبيعية — كالجبال والبحار والحواجز الجغرافية عموما — من فاعلية الاتصال Communication بين الشعوب (٢٧) . وبالتالى تحول دون وصول التيارات الوافدة من الخارج لتحقق التغير الاجتماعى المنشود .

غير أن العامل البيئى لا يعتبر حاسماً إلى هذا الحد ، ذلك لأن تطور الحياة الاجتماعية يسير بخطى أسرع من إيقاع التطور البيئى . وتكفى نظرة واحدة إلى مجتمع من المجتمعات ، لنجد أن البيئة هى كما هى منذ مئات او آلاف السنين ، على حين طـرأ التغير الجـذرى على النظم الاجتمـاعية والوظائف الاجتماعية بشكل لا يمكن مقارنته بها . إذ أن الموقع الجغرافى لمجتمع هو هو ، والبحر والنهر قائمان ، والريح تعصف والهواء يسرى ، والمطر ينهمر والأرض تجود ... الخ . أما بنية المجتمع ووظائفها فشتان بين الأمس واليوم فيها .

٢ — **الإتصال بين المجتمعات :** يؤدى الاتصال بين المجتمعات دورا بالغ الأهمية فى تنشيط العمليات الاجتماعية ، وبالتالى يضفى بعدا ديناميا على البناء الاجتماعى القائم . إذ يتأثر هذا البناء بلا شك بالأفكار المستحدثة ، التى ترد إليه من الخارج ، وتدفعه إلى وقفة تأمل ليتخذ بعدها قراره بالقبول أو الرفض . وتزداد قيمة هذا العامل فى احداث التغير الاجتماعى ، حينمـا تتصل الجماعات الانسانية المنعزلة وشبه المنعزلة ، بالمجتمعات التى قطعت أشواطا كبيرة على طريق الرفاهية والتقدم .

والاتصال بكل بساطة هو العملية التى تنتقل بواسطتها الرسالة أو الفكرة أو الاختراع من المرسل (المصدر) ، حتى تصل إلى المستقبل . ويمكن

---

(٢٧) B. Rogers and Other, Op. cit., p. 7.

توضيحها عن طريق نموذج S. M. C. R. (٢٨) . وفى هذا النموذج يقوم (S) المصدر Source بإرسال رسالة Message (M) عبر قنوات اتصال معينة (C) Channels ، إلى (R) الشخص المستقبل Receiver . ويمكن التعبير عنها بهذا الشكل :

Source —(Message) / (Channels)→ Receiver ⇉ Effecrs

وعلى ذلك يتيسر لنا الوقوف على عوامل الاتصال عن طريق تأمل المظاهر العديدة لعملية اتخاذ القرار التى تؤدى فى نهاية الأمر إلى إحداث التغير الاجتماعى : فالقرار الذى يتخذه الفلاح مثلا بالذهاب إلى المدينة ، أو بالمشاركة السياسية فى برنامج من برامج الحكومة ، أو بتبنى تقنيات الزراعة الجديدة واتباع توصيات الارشاد الزراعى ، وكذلك قرار الزوج والزوجة بالتعاون فى تنظيم الأسرة ، أو تعليم الأبناء ... الخ هذه الأمثلة كلها ، نكون بصدد رسالة موجهة (فكرة ، اختراع ، ابتداع ، اكتشاف) إلى الأفراد عبر وسائل وقنوات اتصال ، يقبل عليها المستقبلون لها ، فيغيروا من أنماط سلوكهم الحالية . وهذه هى النتيجة المرجوة من الاتصال. وعلى الرغم من أن الاتصال والتغير الاجتماعى ليسا مترادفين ، إلا أن هذا الاتصال هو العنصر الهام والفعال خلال عملية التغير الاجتماعى (٢٩) . بالتالى فإن مفهوم التغير الاجتماعى يتضمن — علاوة على عملية الاتصال — النتائج الفردية ، والمجتمعية التى تنجم عن تبنى إبتكار جديد ، أو حتى الاعتراض عليه ورفضه . ولكن تناول التغير الاجتماعى يستدعى اتساقا منطقيا يتمثل فى تركيز الاهتمام على البناء والوظيفة للنسق الاجتماعى ، وما يطرأ عليهما من تحول .

ويقدم لنا كارل مانهايم K. Mannheim مفهوما جديدا فى عملية

---

(٢٨) Floyed Shoemaker and Othe , Op. Cit., p. 11.

(٢٩) انظر : F.Shoemaker, Ibid, p . 21.

لتغير الاجتماعى عند فئة الشباب على وجه الخصوص كقطاع من قطاعات البناء الاجتماعى . وهذا المفهوم هو الاحتكاك الخصب (الاتصال الفائق) Fresh Contact شارحا إياه بأنه علاقة متغيرة فى النظر إلى الموضوع تتضمن النظرة الجديدة فى تمثل ، وتطوير ، واستخدام البدائل الثقافية ، والبدائل المادية فى هذه الحالة (٣٠) . ويترتب على هذا اللون من الـوان الاحتكاك ، أن يغير الشباب من طرق الحياة السائدة ، ويثور على القيم الاجتماعية المسيطرة ، ويبتكر البدائل الثقافية الجديدة والفريدة ، ويتحرر من الإنصياع للثقافة التى تمليها عليهم التزامات العصر Current Incumbents ، وبذلك كله يحدث التغير الاجتماعى والثقافى (٣١) .

وعلى ضوء هذه النظرة الجديدة لقطاع الشباب ، نلاحظ انهم لـم يبتكروا بدائل ثقافية فحسب ، وإنما أوجدوا صورا واشكالا ثقافية جديدة New Cultural Forms أيضا . وقد طور روزاك Roszak وميد Mead وريتش Reich هذه القضية . وزادوا عليهـــا أن أسلوب الشباب فى المراجعة والنظرة الجديدة للمؤسسات والنظم الاجتماعية فى جيل الآباء ... ووصفها بالرياء Hypocracy والانفصال Irrelevant مما يترتب عليه تغير فى النسق الاجتماعى يتمثل فى إقلاب التنشئة الاجتماعية بحيث يضطر الآباء إلى تعلم التبنى الثقافى لابتكارات أبنائهم الشبان فى المجتمع الأمريكى على سبيل الذكر (٣٢) . ويرى بنجتسون Bengtson وبـــلاك ن وظيفة النظرة الجديدة — عند الشباب — على التغـــير

---

(٣٠) Vern Bengtson and Others, „Time, Aging and The Continuity of Social Structu e ' Op, cit., p. 22..

ويمكن أن نسميه « بالنظرة الجديدة » فعلا خاصة وأن هذا الاصطلاح بعد أكثر اتساقا مع المضمون .

(٣١) د. على المكاوى ، المعتقدات الشعبية ... ، مرجع سابق ، ص ٣٥٠ .

(٣٢) انظـــر : Vern Pngtson, Ibid, p 23,

الاجتماعى ، تكمن فى خلق البدائل الثقافية Cultural Alternatives التى ابتكروها ، وصـــارت جزءا لا يتجزأ من الثقـــافة الجماهيرية الكبرى كجماعات النشـاط السياسى ، والزواج الجمـــاعى ، والكميونات (٣٣) . Communes فى المجتمعات الغربية .

غاية القول أن الاتصال عملية حيوية لابد منها لإحداث التغير الاجتماعى . وعلى ذلك ، يحسن الاشارة إلى أن طبيعة هذا التغير الناجم عن انتشار الأفكار الجديدة ، تتوقف على النسق الاجتماعى نفسه (٣٤) . ولعل مثال « غلى الماء » فى قرية لوس مولينوس ببيرو ، توضح لنا ذلك ، وتلقى الضوء على مراحل عملية التغير الاجتماعى . وتتمثل هذه المراحل فى :

(أ) الاختراع Invention وهى مرحلة خلق الأفكار الجـــديدة وتطـــويرها .

(ب) الانتشـار وهى مرحلة وصول الأفكار إلى أعضـــاء النســـــق الاجتمـــاعى .

(حـ) النتائج وهى التغيرات التى تنجم عن استخدام الفكرة الجديدة ، أو رفضهـــا .

أما عن النتائج المترتبة على الأفكار الجديدة ، فهى تشكل المرحـــلة الثالثة من مراحل عملية التغير الاجتماعى . وهى تمثل التغيرات التى طرأت على النسق نتيجة التبنى فكرة جديدة أو رفضها . وهناك ثلاثة تصنيفات لتلك النتائج كما يلى (٣٥) :

---

(٣٣) الكميون Commune هو الانقسام الصغير ، ويعنى أيضا أصغر وحدات التقسيم الادارى فى فرنسا وسويسرا . وقد صارت هذه اللفظة تطلق على المجتمعات البديلة التى يبتكرها الشباب فى الغرب ويلفظ بها حياة الآباء ، والجيل السابق عامة .

(٣٤) انظـــر : Floyd Shoe maker, and Other, Op. cit., p. 7.

(٣٥) E. Rogers and Other, Op. cit , p. 17 .

(أ) **النتائج الوظيفية السوية مقـابل نتـائج الخلل الوظيفى** : Functional Versus Desfun tional وهنا نتسـاءل عن تأثيرات الأفكار الجديدة على النسق الاجتماعى . فان كانت هذه التأثيرات مرغوبة ، كانت النتائج وظيفية سوية . على حين تدل التأثيرات المرذولة على نتائج وظيفية مختلة . ولعل المثال الواضح على ذلك هو إدخال الفأس الحديدي فى إحدى قبائل استراليا الأصلية والذى ادى إلى تفكك النسـق العائلى ، وزيادة الأمراض الاجتماعية ... الخ . وكما سبق فان هـذه التأثيرات تعد مرذولة ، ومن ثم فهى نتائج مختلة وظيفيا .

(ب) **النتائج المباشرة** فى مقابل النتائج غير المباشرة Direct Versus indirect ومعنى ذلك تحديد أى التغيرات فى النسـق الاجتماعى التى تحدث كاستجابة سريعة للفكرة الجديدة ، وأيها الآخر الذى ينبثق عن الآثار والنتـائج المباشرة . ومثـال ذلك اتخـاذ الزوج والزوجة قرارهما المشترك بتنظيم الأسرة استجابة للأفكار الجديدة التى تقدمها وسائل الاعلام المختلفة عبر قنواتها العديدة . وهنا هذا القرار السريع يمثل اسـتجابة مباشرة (نتيجة مباشرة) . على حين تتمثل الآثار غير المباشرة الأخرى فى التغيرات الاجتماعية التى تحدث على النسق الاجتماعى من جـراء تنظيم الأسرة الفعلى كانخفاض معـدلات المواليد ، وتوافر السـلع التموينية ، وانكسار حدة ازمات المساكن والمواصلات ... الخ .

(حـ) **النتائج الظاهرة** فى مقابل النتائج الكامنة Manifest Versus Latent : والمقصود من النتائج الأولى الظاهرة ، هو أى التغيرات وقف عليها أعضاء النسق الاجتماعى وأدركوها . على حين تمثل النتـائج الكامنة تلك التغيرات المستترة فى حالة كمون لم يدركها أعضاء النسـق الاجتمـاعى بعـد .

وعلى ضوء هذه النتائج نجد هيرسكوفيتس يحدد بشكل قاطع ، بأن للاتصال دوره فى القضاء على عزلة المجتمعات وبالتالى تصل إليهـا رياح

التغير والنهوض . ولكنه ينساق فى خطأ عندما يقول : « ويبدو أن الشعوب التى تسكن معظم مناطق العالم عزلة ، هى تلك التى تدخل ضمن أكثر الجماعات العالمية تمسكا بالقديم ومحافظة عليه » (٣٦) . غير أنه يتدارك الخطأ سريعا عندما يقرر بأن حضارات الشرق الأقصى على الرغم من أنهما محافظة إلا أنها ليست منعزلة . ولا تعد قاصية إلا من وجهة نظر الثقافة الأوربية المتطورة ، وإذا نظرنا بعين الأوربيين أنفسهم . علاوة على أن العزلة مفهوم نسبى . فالأمريكتان كانتا منعزلتين عن العالم منذ آلاف السنين كلية . ولكن بعد الكشوف الجغرافية وهجرة الأوربيين لهما ، صارت القارتان بؤرة للتغيرات الاجتماعية التقدمية .

وما يهمنا فى موضوع الاتصال فى المجتمع الريفى المصرى أيضا هو مدى سهولة إتصال القرية بالمدينة . وليست العبرة بالقرب المكانى ، وإنما العبرة بالقرب الزمانى واليسر فى الانتقال . كذلك الإنفتاح على العالم الخارجى من خلال الظعن والإرتحال ، والهجرة والأسفار ، والإطلاع على خبرات وأفكار الآخرين (٣٧) . وهنا نجد أن الثقافة تنتقل بطريق عمدى وذلك عن طريق الإذاعة والتليفزيون والصحف والمجلات والكتب والسينما . ويلعب التجنيد الاجبارى للشباب دورا هاما فى هذا التغير الاجتماعى والثقافى على حد سواء .

٣ — **العوامل التكنولوجية** : تتأثر المجتمعات تأثرا كبيرا بالمخترعات الجديدة . فلكل اختراع مادى ، أو فكرة جديدة آثارها على البناء الاجتماعى والوظائف الاجتماعية . وعلى ذلك يمكن البدء بابسط هذه المستويات التكنولوجية لنقف على دورها فى التغير الاجتماعى وبالتالى على النسق

---

(٣٦) **Melville Herskovits, Coltural Aathropology.** op. cit., p. 451.

(٣٧) د. على المكاوى ، المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعى ، مرجع سالف الذكر ، ص ٣٥٠ .

الاجتماعى الكلى . فاختراع المنجل (اداة الحصاد) مثلا وتزويده بوسادة لينة على اليد ، جعل استخدام الفلاحين له مريحا ، ويسر سرعة تداوله وانتشاره ، وعمل على توفير المزيد من الوقت ، وبالتالى قلل من التكاليف ، وانعكس ذلك على البناء الاجتماعى فمع توفير الوقت زادت دائرة العلاقات الاجتماعية ، ومع قلة التكاليف زاد عائد الانتاج ليعم النسق كله وهكذا .

يضاف إلى ذلك أن اختراع الآلات الزراعية التكنولوجية الحديثة ، والميكنة الزراعية على وجه العموم ، قد احدث تغيرا واسع المدى فى المجتمع المصرى على سبيل المثال . فقد ادت الميكنة إلى توفير الوقت ، والجهد ، وبالتالى التوسع فى الانتاج . ومن ناحية اخرى حتمت الميكنة ضرورة تغيير فى انماط السلوك والتفكير عند من يقوم بتشغيلها أو بالاستفادة من خدماتها . ومن ثم نجد اتجاه تفكير صاحب الآلة ، وسائقها ، ومستخدمها — احيانا كثيرة — إلى الطابع الرشيد . فتزداد قيمة الوقت لديه ، ويقيس انماط سلوكه بهذا المقياس . كما يكتسب خاصية السرعة فى التفاعل والعلاقات .

ولكن هذه الأمثلة تعتبر التكنولوجيا فيها سلاحا ذا حدين . فهى تحدث تغيرا بالقطع ، ولكنه ليس تغيرا إلى الأفضل دائما (تقدما) وليس إلى الوراء دائما (نكوصا) ، وإنما هو أمر نسبى فى الغالب . فالميكنة قد أدت إلى التغير المذكور (تقدمى) ، بيد أن لها سلاحا آخر وهو أن توفير الوقت والجهد قد يترتب عليه المزيد من الإنهماك فى الممارسات والطقوس الاعتقادية الشعبية . وفى هذه الحالة يكثر الناس من إقامة الموالد ، والاحتفال بتكريم الأولياء ، واقتناء الأجهزة الكهربائية الحديثة .

وهناك مثال آخر يقدمه لنا روجرز وشوميكر عن إدخال « الفأس الحديدى » فى إحدى قبائل استراليا الأصلية (٣٨) . وساد الظن ان إدخال هذه الأداة الجديدة سوف يعمل على رفع معدلات الانتاج ، وبالتالى رفع

---

(٣٨) Rogers and Others, op, cit., p. 17.

مستوى معيشة أبناء القبيلة ، وضمان راحتهم وتوفير مجهودهم . إلا أن هذه التكنولوجيا قد ترتب عليها تغير اجتماعى (نكوصى) تمثل فى انكسار البناء العائلى وتفككه ، وارتفاع نسبة الدعارة ، وسوء استخدام الإختراع نفسه . وهذا يمثل الأثر السلبى الذى تحدثه التكنولوجيا فى مجتمع متخلف .

ولكن هذا لا يجعلنا نغمط التكنولوجيا حقها ، إذ أن اختراع السيارة مثلا قد أحدث انقلابا فى البيئات الصغيرة المنعزلة ، حيث ربطت بينها وبين غيرها من البيئات ، ويسرت وسائل التبادل . ومن ثم اتسعت دائرة العلاقات الاجتماعية ، وتنوعت الحاجات ، وانتقل أعضاء المجتمع من مكان إلى آخر فى سهولة ويسر وتضاعف الانتاج وارتفع مستوى المعيشة واتسعت المدن ، وزادت الهجرة إليها . وكان لكل ظاهرة من هذه الظواهر رد فعل فى العلاقات الاجتماعية التى يتكون منها البناء الاجتماعى فتغيرت تلك العلاقات وتطورت .

٤ — **العامل الديموجرافى** : يعتمد التغير فى حدوثه على الهيكل السكانى القائم فى المجتمع . إذ يؤدى معدل المواليد والوفيات والهجرة الداخلية والخارجية إلى تغير فى الهرم السكانى من شأنه أن يزداد عدد المسنين على عدد المحدثين ومن ثم ترتفع نسبة المعولين إلى العائلين . ومن ناحية أخرى فان عدد الاناث يزيد عن عدد الذكور ، وعلى ذلك تحدث تغيرات اجتماعية تبعاً لنوع التكوين العقلى والجسمى والاجتماعى للنوع الغالب . وفى هذا الصدد يذهب بنجتسون **Bengtson** وفيورلونج **Furlong** ولاوفر **Laufer** إلى أن النوع الغالب من الجماعات العمرية والنوعية ، يقبل على أساليب حياة ، ويدعم وجهات نظر جديدة ، ويخلق قيما قد تختلف كثيرا عن القيم السائدة فى المجتمع (٣٩) . اذ تؤدى كثرة الشباب المحدث مثلا — بالنسبة للمسنين — إلى استقبال العالم بطرق

---

(٣٩) **Vern Bengtson and Other . op. cit , p. 22**

جديدة ، وخلق بدائل ثقافية فريدة ، وأسلوب حياة جديدة يختلف عن نظائرها في ثقافة المسنين ، وتغير في مضمون الأدوار القائمة بشكل واضح (٤٠) .

ونلاحظ فى مجتمعنـــا المصرى فى هـــذه الأيام زيادة موجات الهجرة الداخلية إلى المدن ، والهجرة الخارجيـــة إلى الدول العربيـــة (هجــرة العمالة المؤقتة) والدول الأجنبية (هجرة دائمة) . وكل هذه الأنواع من الهجرة يترتب عليها بالقطع تغير قيمى Value Change واضح (٤١) .

٥ — **أثر القادة والزعماء :** قد يظهر فى المجتمع أشخاص يقومون بتوجيه الناس توجيها يؤثر تأثيرا كبيرا فى اتجاهاتهم وآرائهم وافكارهم وســلوكهم العام . ومن الجدير بالذكر أن هؤلاء القادة والزعماء لا يخلقون المجتمع او الراى العام وإنما هم يتأثرون به ، ويتجاوبون معه . فكلاهما يؤثر فى الآخر ويتأثر به .

ومن الواضح هنا غلبة الطابع النفسى كما يتمثل فى الميكانيزمات التى تقف وراء السلوك الانسانى وتضع خطوطه العريضة بوجه عام مما يترتب عليها قبول الجديد حينا ، ورفضه أحيانا اخرى (٤٢) . ومن الآراء الرائدة فى هذا الخصوص ، نظرية ماكس فيبر M. Weber عن الزعامة (الكاريزما Charisma) والتى تذهب إلى أن هناك رجالا قيضهم الله لخـدمة مجتمعهم ، بقدرون على القيادة ، ويؤمنون بحقهم فيها ويصفهم بارســونز بأنهم « قادرون على القيادة الأخلاقية ، وهم يلقون من المجتمـع التقـدير

---

(٤٠) **Alexander Alland, Adaptation in Cultural Evolution, Colubia Uni. Press. New York. 1970. p 157.**

(٤١) د. على المكاوى ، أثر انتقال القوى العاملة المصرية الى الخارج على التنميـة الصناعية فى مصر ، دراسة نقدية منشورة بمجلة دراسات سكانية ، المجلد ١٢ ، العدد ٧٢ ، يناير — مارس ١٩٨٥ ، ص ص ٦٥ — ٧١ .

(٤٢) د. على المكاوى ، المعتقدات الشعبية ... ، مرجع سابق ، ص ٣٥١ .

والاستحسان معا » (٤٣) . ويمارسون كذلك دورهم فى معظم الحـركات الدينية والسياسية الكاريزمية وتتضح معالم هذا الدور فى المجتمع الغربى فى القيام بعمليات الضبط الاجتماعى .

ويلعب القادة والزعماء ايضا دورا هاما فى إحداث التغير الاجتماعى فى مختلف مجالات الحياة الاجتماعية . بيد انهم لا يحدثونها بمفردهم إذ لولا المجتمع ما كانوا قادة وزعماء . ولولا الظروف المهيأة للزعامة والقيـادة ما كانت زعامتهم . ومن الملاحظ أن هذا الدور تزداد خطورته فى المجتمع الريفى — على وجه الخصوص — عندما تكون الناحية الدينية احد مقومات الزعامة والقيادة . فالدين فى هذه المجتمعات يمثل الموضوع الاسـاسى الذى تنتظم حوله الحياة الاجتماعية والثقافية Theme . وبالتـالى يضرب هؤلاء على هذا الوتر الحساس فيجدون ما يهيىء لأفكارهم فـرص التمحيص والتأمل بصرف النظر عن نتيجة ذلك فى الرفض أو القبول .

وليس هذا بغريب ولا مستبعد على رجال الـدين فى الريف حيث يضطلع الواحد منهم بالإصلاح بين الناس ، والوعظ والارشـاد الدينى ، والضبط الاجتماعى غير الرسمى ، وحل المشكلات العائلية ذات الطـابع الدينى ، والقيام بدور المأذون الشرعى فى حالتى الزواج والطلاق . . . الخ . علاوة على انه مالك ارض ، أو يتاجـر فى المحصولات الزراعية النقـدية والغذائية . فهو إذن يجمع النسق الاجتماعى للقرية فى يديه . وتبدو هـذه الزعامة فى اثناء الانتخابات السياسية ، واضحة للعيان ، حيث يمكن لرجل الدين بقوة نفوذه وعظيم تأثيره أن يحول معظم الأصوات الانتخابية بالقرية من كفة مرشح إلى مرشح آخر .

وهناك زعماء آخرون لا يشكل الدين توأم زعامتهم ، وإنما يمثل مظهرا سلوكيا فى الغالب كارتياد المساجد ، وأداء الفرائض والإسهام فى المشروعات

---

(٤٣) **Talcott Parsons, op. cit., p. 142**

الخيرية ... الخ : ولكن مقومات زعامتهم الرئيسية هى القوة الاقتصادية Economic Power التى سرعان ما تتحول فى القرية إلى قوة سياسية Political Power ، تؤازرهما الهيبة الاجتماعية Social Prestige والتدين . ويضطلع هؤلاء بالإسهام فى إقامة بعض المشروعات الهامة المفيدة للقرية كالجمعية الاستهلاكية ، ونادى الشباب ، واستكمال مبانى المدارس. وهم فى ذلك لا يتكفلون بتغطية النفقات الاجتماعية، وإنما يساهمون بقدر أكبر، يكفى لإثارة إهتمام باقى أعضاء المجتمع ، والمساهمة النقدية أو العينية على سبيل المثـــال .

أما إسهام الزعامة الأكبر فهو واضح القسمات فى التخلص من بعض العادات الاجتماعية فى حفلات الزواج « يــوم الصباحية » . حيث يتجلى الإسراف والتبذير بشكل يضر بالاقتصاد ، فتنحر الذبائح ، وتقــام الولائم لكل المحتفلين والمدعوين ومن يشاء من القرية ومن خارجها . وهنا بادر بعض هؤلاء الزعماء برفض الانصياع للعادة ، واكتفى بتقديم الحلــويات و « الملبس » للمدعوين ، ضاربا بالولائم عرض الحائط . وعلى الفور لاقى هذا النمط السلوكى القبول والاستحسان من قبل أبناء القرية ، عدا نفــر قليلين ساءهم ما ينظرون ، وقطبوا الجبين ولكن سرعان ما انفرجت أساريرهم مرة آخرى معلنين بذلك : القبول للعـــادة الجــديدة البديلة عن العـــادة القــديمة .

وهنا نجد أن القيادة تفاعل بين القائــد وأتبــاعه من حيث حاجتهم واتجاهاتهم ومشكلاتهم ، والجماعة نفسها من حيث بنــاء العــلاقات بين أفرادها ، وخصائصها ، والمواقف التى تواجههـــا . وكل ذلك من إدراك القائد لنفسه وإدراك الآخرين له . وإدراك القائد لهم . والادراك المشترك بين القائد والآخرين الجماعة وللموقف (٤٤) .

---

(٤٤) د. لويس كامل مليكه ، الجماعات والقيادات فى قرية عربية ، فى : **قراءات فى علم النفس الاجتماعى** ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٢٥٣ وما بعـــدها .

غير أن القيادة فى قرية سيف الدين ، التى درسناها فيما قبل لا تقتصر مقوماتها على الأسس الدينية والاقتصادية وحسب ، وإنما صارت مقومات جديدة تدخل فى دعائم هذه الظاهرة غير الرسمية . وبذلك حدث تغير فى نمط القيادة من النمط التقليدى القائم على مقومات السن ، والتدين ، والثروة إلى النمط الحديث الذى يرتكز على المقومات الحديثة المستمدة من طبيعة التغير الاجتماعى ونتائجه وهى التعليم ، وشغل الوظائف الإدارية والفنية فى مؤسسات الخدمات المحلية الرسمية (٤٥) . وهنا يجمعون بين القيادة الرسمية وغير الرسمية . ولكن الملاحظ بصفة عامة هو السعى الحثيث للشباب المحدث نحو تصدر صفوف القيادة فى القرية فى مقابل الإنزواء التدريجى للصفوات التقليدية . وبهذا نأمل لمجتمع القرية مزيدا من التغير على ايدى هؤلاء المحدثين الذين يختلفون عن « دائرة التراث » Tradition Circle (٤٦) ، ويرحبون بالأفكار الجديدة والمستجدثات بمعدل يفوق نظيره عند المسنين .

٦ — **العمليات الاجتماعية الداخلية : التوتر والصراع** : يؤدى صراع المصالح Conflict of interests إلى إحداث تغير اجتماعى واضح فى الانساق الاجتماعية . وتعد بؤرة السياسة هى الحلبة التى يتنافس فيها الجماعات المختلفة وتتصارع لكى تحقق أهدافها ضد منافسيها (٤٧) . ويتضمن مفهوم القوة Power هنا فكرة الأغراض المتصارعة . ويذهب انصار النظرية الوظيفية إلى أن صراع المصالح لا يظهر فى الأنساق الاجتماعية المستقرة نسبيا ، لأن هناك قواعد صارمة تتولى تنظيمه . ولعل

---

(٤٥) د. على المكاوى ، المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعى ، مرجع سابق ، ص ٢٥١ .

(٤٦) دائرة التراث Tradition Circle هى جملة التراث ، أو حاملو عناصر تراث معينة متميزة ، وهم مجموعة الاشخاص الذين يحملونه فى الحاضر .
انظر :
هولتكرانس ، قاموس الفولكلور ، مرجع سابق ، ص ١٨٨ .

(٤٧) Harry Johnson, Sociology, op. cit., p. 634

التشريعات ، والمحاكم ، والمواثيق وغيرها من الأشكال القانونية ووسائل الضبط الاجتماعى ، تسعى لمواجهة هذه الصراعات وحلها .

وتجدر الاشارة إلى أن قضايا الصراع على المصالح ، تختلف وتتنوع من موقف إلى آخر . ومع ذلك فان هناك أسبابا عريضة شاملة لهذا الصراع، وتوجد فى كل نسق اجتماعى . ومن خلال تناول بارسونز (٤٨) لبعض أسباب الصراع الطبقى فى المجتمع الصناعى الحديث ، عرض لنا مجموعة من تلكم الأسباب التى تحدث صراعا فى أى مجتمع معقد . ويرى بارسونز فى البداية أن التنظيمات الجديدة فى هذه المجتمعات الصناعية تحل محل القديمة . وبالتالى يتغير بناء الدور Role- Structure . ويترتب على هذا أن تكتسب أنماط التيسيرات الجديدة أهمية كبرى ، ومن ثم تنعكس هذه الأهمية على قوة Power وهيبة Prestige شاغلى الدور الذين ينتفعون بهذه التسهيلات الجديدة ، وهنا يعترى التوتر ، بناء المصالح Interests-Structure فلا يمكن الفكاك بالتالى من عمليات التغير . وهذا الصراع على المصالح يمثل نواة الصراع الطبقى فى المجتمع الغربى المعاصر .

وهذه الظواهر الصراعية تتصف بطابع نسبى ، على الرغم من درجة تعقدها البالغة ، فى البناء الاجتماعى الخاص الذى يعتريه التغير ففى انجلترا على سبيل المثال شعر عمال الزراعة بتهديد الميكنة الزراعية لمعيشتهم ومن ثم شكلوا على الفور رأس حربة تتصدر الحركات الراديكالية بدلا من أن تقوم البروليتاريا بتلك الصدارة .

وعلى أية حال ، فقد لخص بارسونز أسباب الصراع فيما يلى (٤٩) .

(أ) تؤدى ممارسة السلطة (بمعنى الحق الشرعى فى إصدار

---

(٤٨) Talcott Parson, The Social System. Op, cit., p. 518.

(٤٩) Talcott Parsons, ibid, p. 136 . 523.

الأوامر) ، إلى ظهور الاعتراضات والتناقضات وهنا يفرض السؤال نفسه : هل السلطة تلقى حسن الاستخدام أم تعانى من سوء الاستعمال Abuse ؟

(ب) هناك ميل عام — مع اختلاف فى الدرجة — لممارسة كل أنواع القوة فى استغلال الناس (وليس المقصود هنا السلطة Authority بمعناها الضيق) . وعلى الرغم من أن كل نسق اجتماعى يتضمن فى داخله عوامل إحتواء الصراع ، والاستغلال بكل صوره — مثل سوء استعمال السلطة ، والتدابير الخاصة بمواجهته — إلا أنه يحتمل وجود الكثير من المنافذ والثغرات . ولا يعنى هذا الحكم بطبيعة الحال ، أن كل نسق يشبه النسق الآخر فى الجودة والإحكام . وعلى ذلك يعد إساءة استعمال السلطة، والاستغلال ، معملا لتفريخ الصراع Conflict ، والإغتراب Alienation وما شاكلهما .

(حـ) عندما يزيد حجم المجتمع ، وترتفع درجة التباين فيه فتظهر على الفور ثقافات فرعية Sub - cultutes تتضارب فيما بينها ، أو على الأقل تكون على درجة من الاختلاف كفيلة بإقامة العراقيل أمام الاتصال الداخلى المتبادل بينها Inter Communication difficult وفى بعض الحالات تأتى الثقافة الفرعية الى المجتمع من خارجه ، كما فى حالة هجرة جماعات سلالية مختلفة ، ذات ثقافات متباينة ، قد تتغلب إحداها على الأخرى ، وبالتالى ينتهى التثاقف بسيطرة الثقافة الغالبة .

(د) يحتوى كل مجتمع من المجتمعات فى داخله مجموعة من عمليات التنافس ، يترتب على كل منافسة طرف يكسب ، وآخر يخسر . ومن هنا يؤدى استياء الطرف الخاسر إلى التحرى والتمحيص فى حقيقة المنافسة .

(هـ) استحالة تكافؤ الفرص بشكل كامل . إذ لاتعدم بعض الجماعات السلالية ذات الميول الخاصة ، وقد ينضم إلى هذه القائمة الجماعات الدينية . ومن هنا يسود التوتر والقلاقل بسبب حرمان إحدى الجماعات

من الفرص المتاحة أمام جماعات آخرى فيدفعها هذا الحرمان والاحبــــاط Frustration إلى الصراع (٥٠) .

(و) واخيرا يؤثر وجود الثقافات الفرعية الطبقية على عملية التنشئة الاجتماعية فى المجتمع الأمريكى على وجه الخصوص . وتنطبق نفس الفكرة على الثقافات الفرعية السلالية Ethnic Sub-Cultures . فبعض هذه الثقافات يتصف بمميزات هامة ، على حين يعد بعضها الآخر معــوقا فى حالة التنافس على القوة وعلى الهيبة الاجتماعية . وعلى الفور يســود التوتر والصراع ، ومن ثم يحدث التغير الاجتماعى .

* * *

(٥٠) Talcott parsons ' Ibid. p. 252.
See also : Harry Johnson, Sociology, Op. cit., p. 634.

الفصل الثاني عشر

النظرية الوظيفية
وقضية التغير الاجتماعي

* * *

الفصل الثانى عشر

النظرية الوظيفية
وقضية التغير الاجتماعى

مقدمة :

تعتمد النظرية الوظيفية فى دراستها للتغير الاجتماعى ، على الوقوف على الوظيفة التى يضطلع بها العنصر الاجتماعى أو الثقافى فى النسق الاجتماعى بنحو عام ، وبالتالى فهى تسعى لفهم هذا الدور وإبرازه . وإذا كانت النظرية الوظيفية تضع فى اعتبارها مسألة التغير ، إلا أنها تنظر إليه على استحياء حينا ، وترده إلى العوامل الخارجية فى غالب الاحيان ، على أساس أن النسق الاجتماعى يحوى مقومات التوازن والتكامل فى نفس الوقت .

وتذهب هذه النظرية إلى أن التغير الاجتماعى هو تغير فى بناء النسق الاجتماعى الذى قد ظل — إلى حد ما — ثابتا ، أو « طرأ التغير عليه بعد أن كان استاتيكيا نسبيا » (1) . والاكثر من ذلك نجد أن رواد هذا الاتجاه النظرى ، يركزون على أن أكثر التغيرات البنائية اهمية هى تلك التى يترتب عليها نتائج تالية للأداء الوظيفى **Functioning** للنسق سواء ليحقق اهدافه بصورة اكثر فاعلية أو اقل ، او للوفاء بالشروط اللازمة — كثيرا أو قليلا — لاستمرار النسق فى الوجود . وعلى ذلك فان التغير فى البناء يستتبعه بالضرورة تغير فى الوظائف ولكن ليس التغير فى الوظائف بلازم أن يتبعه تغير فى البناء .

وغاية القول أن الوظيفية ترى أن التغير الاجتماعى ينجم عن عوامل، بعضها خارجى وإن لم يكن اغلبها ، والبعض الآخر داخلى ينبع من داخل النسق ذاته . وعلى ذلك يذهب هيرسكوفيتس على سبيل المثال إلى أن

---

(1) Harry Johnson. Op. cit., p. 626.

التغير ينتج عن عاملين احدهما داخلى وثانيهما خارجى (٢) . الأول يستمد فاعليته من بناء النسق ذاته وينبثق عنه ، على حين ينجم الآخر عن عوامل خارجية لم تأت من داخل النسق نفسه .

وفى ضوء ما سبق ، نتناول فى هذا الفصل ما قدمه الانثروبولوجيون الوظيفيون حول تغير النسق الاجتماعى ، من خلال ما يلى :

أولا : النظرة الوظيفية لعوامل تغير النسق الاجتماعى .

ثانيا : العوامل التى تعجل بحدوث التغير الاجتماعى .

ثالثا : عوائق التغير الاجتماعى .

* * *

أولا — النظرة الوظيفية لعوامل تغير النسق الاجتماعى :

يذهب الوظيفيون إلى ان الوحدة الوظيفية تعيش اساسا فى حالة من التكامل . وبالتالى فإن عوامل التغير لا يمكن أن تنطلق من الداخل ، وإنما تلعب البيئة الخارجية للنسق الاجتماعى دور الإطار الذى تنطلق منه عوامل التغير تجاه النسق الوظيفى ، الذى ليس له إلا ان يتكيف مع العوامل الخارجية التى تطرأ عليه (٣) . غير أن هذه النظرة تحوى ثلاثة اتجاهات رئيسية وهى :

١ — الوظيفية الأنثروبولوجية عند رواد علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية أمثال مالينوفسكى وراذكليف براون وغيرهما . وهم يرون أن مصدر التغير خارجى فى المقام الأول ، إلا انهم لا ينفون إمكانية حدوث التغير من الداخل .

---

(٢) M. Herskovits. Cultural Anthropology, Op-cit., p - 454.

(٣) د. على ليله ، كفاءة الاتجاه الوظيفى فى دراسة التغير الاجتماعى ، المجلة الاجتماعية القومية ، العدد ١٢ ، القاهرة ، يناير ١٩٧٥ ، صفحات ١٢٣ و ١٤١ .

٢ — الوظيفية السوسيولوجية عند دوركايم . ويذهب هذا الاتجاه إلى أن التغير الاجتماعى ينبع من داخل النسق ذاته ، استنادا إلى فكرة الحجم الأمثل للوحدة الوظيفية كالزيادة السكانية التى تسهم فى تغيير شكل تلك الوحدة من التضامن الآلى إلى التضامن العضوي . وكذلك يؤكد براون على التغير من الداخل مثل انشقاق الوحدات القرابية ، والتغير فى نظام الزواج بانجلترا . اما ميرتون فهو يرى أن التناقض الداخلى فى السياق الثقافى Cultural Context ، أو التناقض فى العلاقة بين السياق الثقافى والسياق الاجتماعى Social Context . إذ ان احدهما أو كلاهما يؤدي إلى إحداث التغير الاجتماعى الداخلى للنسق . ويبرهن ميرتون R. Merton على وجهة نظره من خلال استعراضه لأنماط التكيف الاجتماعى Patterns of Social adaptation .

٣ — يرى بارسونز (٤) أن مصادر التغير تأتى كلها من خارج النسق، سواء تمثل ذلك فى الزيادة السكانية ، او فى العوامل الثقافية والحضارية الواردة . هى كلها واردة إذن من خارج النسق .

والواقع أن النظرة الوظيفية للنسق الاجتماعى ترى انه يتعرض للتغير ، نتيجة للعوامل التالية :

١ — التفاوت البنائى والتباين الوظيفى (٥) .

٢ — دور الأشخاص المبتدعين والمكتشفين والمجددين (٦) .

٣ — تعرض النسق لعوامل خارجية تؤدى إلى احداث مجموعة من التغيرات البنائية والوظيفية معا (٧) .

---

(٤) انظر Parsons, The Social System, Op. cit., p. 493

(٥) د. محمد عارف ، المنهج فى علم الاجتماع ، ج ٢ ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٦٣ .

(٦) M. Herskovits, op. cit., pp. 453 - 454.

(٧) H. Johnson, Op, cit.. pp. 626 - 627.

(أ) التفاوت البنائى والتباين الوظيفى :

وفى هذه الحالة يمكن ان يحدث التغير نتيجة لعامل ، او عوامل تنبع من النسق ذاته . ومثال ذلك التغيرات التى تطرأ على الأسرة ، والأدوار الاجتماعية فيها كخروج المرأة إلى العمل مثلا (٨) ، ودور الأبوين فى التنشئة الاجتماعية فى مجتمع قامت فيه ثورة . فهم لا ينشئون ابناءهم على ما كان يسود هذا المجتمع من علاقات اجتماعية فيما قبل الثورة ، بقدر ما ينشئونهم على القيم الجديدة ، والعلاقات والأدوار الجديدة . وقد كان هؤلاء الأبناء صغارا ، وسرعان ما يشبون ويضطلعون بالأدوار الجديدة فى النسق الاجتماعى . ومن خلال شغل هذه الأدوار — التى طرأ عليها التغير — نجد المحصلة النهائية تغيرا فى النسق ككل ، وإن كان ذلك على المدى البعيد .

ومن ناحية أخرى فاذا كان الانغلاق يغلف البناء الاجتماعى ، بنظمه وعلاقاته ، ولا يقبل الأعضاء الجدد من الجيل الصاعد ، ويوصد فى وجوههم الأبواب ، واذا كانت الأسرة غير قادرة على التنشئة الاجتماعية لتاهيل النشء واشراكهم فى الأوضاع المتخصصة والأدوار الجديدة فى المجتمع ، فان ذلك كله يترتب عليه قيام جماعات شبابية منظمة شكليا **Formalized youth groups** تحدث تغييرات كبيرة فى النسق الاجتماعى (٩) . ويمكن النظر الى هذه الظاهرة على انها ظاهرة صراع بين الأجيال : جيل الأبناء والناشئة ، وجيل الآباء . غير أن المنظور الوظيفى ، يرد درجات الصراع العنيف هنا ، إلى اختلافات فى مراحل نمو الشخصية بين الجماعات العمرية ، والتناقضات **Contrasts** فى الأوضاع الاجتماعية بين أعضاء المجتمع من المحدثين والمسنين .

---

(٨) د. على المكاوى ، المعتقدات الشعبية ... ، مرجع سابق ، ص ٣٤٣ و ٣٤٩ .

(٩) Michael Furlong and Others, Time, Aging and The Continuity of Social Soructure, op. cit. p. 5.

والجدير بالذكر أن هذا التباين والصراع الجيلى ، يدفع المحدثين فى غالب الأمور إلى الاعتراض على التراث السائد الذى يدعم سيطرة جيل المسنين على جيل المحدثين ، بل يصل الأمر إلى الرفض المقنع أو الظاهر . ويبدو ذلك فى النظم الاجتماعية والمعتقدات الشعبية بشكل واضح فى موضوعات الأولياء والأحلام والطب الشعبى والسحر (ولا سيما فى المظاهر السحرية فقط) (١٠) .

(ب) دور المجددين فى النسق الاجتماعى :

ويظهر هذا الدور واضحا فى احداث التغير الاجتماعى عن طريق صور الابتداع ، والاختراع والاكتشاف وكل مظاهر التجديد التى تنشأ فى داخل النسق وتعمل بالتالى على تغيره . وقد ترتبط هذه العمليات المختلفة بالعناصر المادية من الثقافة ، ولكنها تمتد لتشمل أيضا العمليات الثقافية اللامادية (الروحية) كالأفكار الجديدة ، والنظم الجديدة ... الخ . وفى هذا الصدد يقرر هيرسكوفيتس بأن « الأفكار لا تقل قيمة عن الأشياء المادية فى تشكيل وصياغة حياة الانسان . ولذلك يكون من العسير أن نقلل من شأن المخترعين — بالمعنى الإثنولوجى والوظيفى — الذين طوروا طريقة النسب فى النظام الأسرى ، أو الأنساق التصنيفية لمصطلحات القرابة (النظام القرابى) ... » (١١) . ومعنى ذلك ببساطة هو أن دور المجددين فى الشق اللامادى للثقافة لا يقل شأنا عن المخترعين والمكتشفين فى العناصر المادية .

وفى جانب آخر نلمس هذا الدور بشكل واضح فى النظام العائلى ونظام الزواج على سبيل المثال . فقد انبرى هؤلاء المجددون فى رفض ما هو

---

(١٠) راجع تفاصيل ذلك فى دراستنا للماجستير سابقة الذكر ، الفصل السابع ص ص ٤٧٠ — ٥٨٤ والفصل الثامن خاصة صفحات ٦٢٣ — ٦٣٦ .

(١١) انظر : M. Herskovits, op. cit., p. 455.

قائم ، واستبداله بغيره . وعلى ذلك نجد فى المجتمع الريفى المصرى — وقرية البحث على سبيل المثال — أن نظام الزواج لم يعد يمر بالخطوات التقليدية الثابتة ، بل طرأت مجموعة تغيرات بنائية ، ووظيفية عليه ، بحيث لم يعد المهر Pride Price نظاما معمولا به الآن . وصار العريس والعروس يضطلعان معا بجهاز الزوجية . ولم تعد تحظى « الشبكة » بالمكانة السابقة المرتفعة ، وإنما غلب الآن تقديم الدبلتين فحسب ، علاوة على أن عادات الزواج واحتفالاته هى الأخرى لم تعد تلقى الإسراف والاحتفاء المفرط الذى كانت تلقاه من عشر سنوات مثلا أو عشرين على الأكثر (١٢) . والفضل فى ذلك يرجع إلى مركب من العوامل المتكاملة معا . وإن كان ابرزها هنا دور المجدد الذى يضحى بالتراث السائد ويتحمل اتهام المجتمع له بالمروق ، والتنصل من تراث الأسلاف .

وتجدر الاشارة إلى أن هذا الموقف لا يتطلب أكثر من المبـادأة . فالمسرح مهيأ كلية لهذا الدور ، وإن كان المتفرجون جميعهم ينتظرون ظهور الممثل ليشاهدوا الدور ، والآثار المترتبة عليه . ومع ذلك فلابد من ابداء الاستنكار — ولو ظاهريا — ثم التمهيد لمناقشة السلوك الجديد . وهنا تتم الموازنة بين الجديد والقديم . ويكفى المجدد أنه صدمهم بصدمة ثقـافية أوجبت إعادة النظر .

وفى هذا الصدد ينظر إلى المجدد على أنه شخص منحرف أو منعزل ، وذلك لأنه يضرب بما هو سائد عرض الحائط ، ويسلك سلوكا مغايرا له ، غير عابىء بما يلقى من لوم أو نبذ Ostracism أو اتهام بالتنكـر للتراث . غير أنه سرعان ما يتدعم النمط السلوكى الجديد ويصبح قاعدة فى النظام الاجتماعى .

* * *

(١٢) د. على المكاوى ، المعتقدات الشعبية والتغير ، مرجع سالف الذكر ، ص ٣٥٤ .

(ج) تعرض النسق لعوامل خارجية :

وفى هذه الحالة تأتى عوامل التغير من الخـــارج ، فتنشر افكارا جديدة ، وتجلب معها المستحدثات . وفى هذه الأوضـــاع الجديدة نجـــد نظمـــا ، وعلاقات ووظائف جديدة وافدة على المجتمع ، وبالتالى تحدث فيه التغير المنشود . ويمكن القول بأن كل الأجهزة العاملة فى مجـــال التعليم ، والطب ، والخدمات الزراعية المتخصصة ، والتكنولوجيا ، وغيرها تلعب هذا الدور البـــارز فى تحقيق التغير .

ولعل هذا اللـــون من التغير يمكن تسميته بالتغير الموجـــه أو المخطط Planned Change — كما سبق — وهو نتيجة تحدث عن طريق أشخـــاص من الخـــارج يمثلون هيئات خارجية لاحداث التغير (١٣) . وهم يقـــدمون الأفكار الجديدة على مدى اقامتهم فى المجتمع وتمثيلهم لهيئاتهم ويحـــاولون جاهدين انجاز الأهداف الكبرى التى وضـــع البرنامج من أجل تحقيقهـــا استهدافا للتغير .

وقد لعبت المؤسســـات التعليمية دورا هاما فى احداث هذا التغير فى المجتمع الريفى عامة (١٤) . فقد دخلت المدرسة الى القرية فانتشر التعليم ، وصـــار للتغير مصدران أحدهما المدرسة والمدرسون الذين يفدون الى القرية من الخارج وينقلون اليها أفكارهم الجديدة ويفتحون عيون أهلها على أنماط ثقافية واجتماعية جديدة ، فيبادرون بالتعرف عليها والاحتكاك بها . أما المصدر الثانى فهو الجيل الذى تلقى تعليمه فى هذه المدرسة واستكمل مراحل الدراسة خارج القرية ، فى الاعدادى أو الثـــانوى والجـــامعة . وهنا تتـــاح فرص الانفتاح على العـــالم الخـــارجى ، ونقل الخبرات والتجـــارب الجـــديدة الى القرية . علاوة على الدور الجديد الذى شغله أبنـــاء القـــرية المتعلمون فى تغير الحيـــاة الاجتماعية فيها .

---

(١٣) Shoemaaker and Other, op. cit., p. 9.

(١٤) د. على المكاوى ، المعتقدات الشعبية ، مرجع سابق ، ص ٣٤٨ .

وكذلك حال المؤسسات الخدمية الرسمية الأخرى مثل جمعيات التعاون الزراعى ، والخدمات الاجتماعية والثقافية ، والخدمات الصحية الريفية ، علاوة على التجنيد الالزامي الذى يمارس آثاره فى احــداث تغيرات اجتماعية واضحة المعــالم فى ثقافة المجندين انفسهم ، وفى انماطهم السلوكية ، وفى الادوار الجديدة التى صــاروا يقــومون بهــــا بعد آداء هذه الخــدمة العســكرية (١٥) .

ولعل من ابرز عوامل الانفتاح على العالم الخارجى كلية ، هو عامل السفر والهجرة المؤقتة إلى الدول العربية البترولية ، حيث عاد هــؤلاء المسافرون — من أبناء القرى المصرية — وهم يجلبون معهم تكنولوجيـــا العصر ، والأفكار الجديدة ، والثقافة الجديدة ، ونظرتهم المتغيرة إلى العالم وآمالهم ومشروعاتهم التى أحدثت تغيرا جــذريا فى النظم الاجتمــاعية ، والثقافة (١٦) .

وعلى الرغم من حدوث هذه التغيرات الاجتماعية والثقافية العديدة فى البناء الاجتماعى العام ، وما ترتب عليها من صراعات وتناقضات لا حصر لهـــا ، نجد النظرية الوظيفية تقرر بأن عمليات التغير على الرغم من انها تحدث تحولا فى النسق الاجتماعى ، إلا أنها قد تساعد بدرجــة كبيرة على الحفاظ على النسق وتدعيمه (١٧) . فقد يحتاج هذا النسق فى الظــروف الجديدة الى أن يكيف بناءه ، ويتواءم مع هذه الظروف لكى يحــافظ على بقائه . ومن الممكن أن يعمل التغير أيضا على تاكيد تكامل النسق وتميزه عن غيره من الانساق .. على حين لو ظل على حاله مدة طويلة فقد يفقد تكامله كنسق متمايز . إذن قد تواجه الوحدة الوظيفية التغير إما استجابة

(١٥) حسن الخولى ، الآثار الاجتماعية للخدمة العسكرية على ثقافة الفلاحين المصريين ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٦ .

(١٦) راجع تفاصيل ذلك فى دراستنا — لاحدى قرى مصر — عن المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعى سالفة الذكر ، ص ص ٢٥٧ — ٢٥٨ ومواضع أخرى عديدة .

(١٧) انظــر : H. Johnson, Sociology, op. cit , p. 625.

لعوامل خارجية ينبغي أن تتلاءم معها ، أو أن الوحدة ذاتها تتفاعل تفاعلا داخليا فيتأصل التغير فى بناء النسق نفسه (١٨) . ولذلك تجد الاتجـــاه الوظيفى يركز على الأداء الوظيفى للوحدات أى العلاقات فيما بينها ، دون أن يركز على بناء الوحدات ذاته .

غير أنه تبقى زاوية هامة من زوايا الوظيفية ، وهى ما يختص بإيقاع التغير هل هو تغير تدريجى أم تغير ثورى ؟ هنا يتصدى بارسونز Parsons بالقول بتدرج التغير ، وليس ثوريته . ويخرج علينا فى هذا الصدد بفكرته عن التوازن الدينامى (١٩) . ولكن ذلك لا يمنع من خضوع النسق الاجتماعى فى ظروف معينة إلى حالة من التغير الثورى استجابة لحالة التوازن المتطرف أيضا (٢٠) . إذن طبقا لنوع التوازن الســـائد ، يكون التغير . فإن كان التوازن متطرفا ، كان التغير ثوريا . وإن كان التوازن ديناميا كان التغير تدريجيا . وعلى ذلك تذهب الوظيفية إلى أن التوازن الدينامى هو الحالة السوية التى يعيش فيها النسق الاجتماعى .

خلاصة الاتجاه الوظيفى أنه — وإن آمن فى بدايته بالتغير التدريجى — إلا أنه يحاول أن يقدم فهمـــا للتغير الثورى . وإذا كانت عمليـــات التغير الاجتماعى الثلاث هى التغير التدريجى بفعل العلم والتكنولوجيا ، والتغير التـــدريجى بفعل النمو الداخلى للنسق على غـــرار النمو العضـــوى ، والتغير الثورى ، فإن هذا الاتجاه يرى أن العملية الأولى والثانية ، عادة ما تحكم المجتمعات الصناعية المتقدمة ، بينما العملية الثانية عادة ما تغلب على تفاعل المجتمعات البدائية والمتخلفة على السواء . أما بالنسبة للعملية

---

(١٨) د. على ليلة ، كفاءة الاتجاه الوظيفى فى دراسة التغير الاجتماعى ، المجلة الاجتماعية القومية ، ع ١٢ ، القاهرة ، يناير ١٩٧٥ ، ص ١٢٩ .

(١٩) انظـر : T. Parsons, The Social System, op. cit., p. 519.

(٢٠) د. على ليلة ، كفاءة الاتجاه الوظيفى ... ، مرجع سابق ، ص ١٤ .

الثالثة فهى إلى جانب العمليات الأخرى ، قاسم مشترك فى معظم البلدان النامية إلى جانب العمليتين السابقتين (٢١) .

* * *

ثانيا — العوامل التى تعجل بحدوث التغير الاجتماعى :

هناك العديد من العوامل الاجتماعية والثقافية ، التى تعجل بحدوث التغير فى البناء الاجتماعى بما يحويه من النظم الاجتماعية . وتتمثل هذه العوامل فى العامل الاقتصادى ، والعامل الدينى ، والتنافس ، والرغبة فى الحصول على الهيئة الاجتماعية (٢٢) . ومن الواضح أن هذه العوامل تنبثق عن النظم الاقتصادية والدينية والسياسية وغيرها . وسنحاول فيما يلى من الفقرات ، إلقاء الضوء على هذه العوامل :

١ — الرغبة فى الحصول على الهيبة الاجتماعية ، حيث يحاول أبناء الطبقات الدنيا والوسطى تقليد أبناء الطبقات العليا فى أنماط سلوكهم وطريقة حياتهم . وتتضح معالم تحقق هذه الرغبة ، من خلال اكتساب وتعديل وتمثل بعض الرموز فى المسكن والملبس والمأكل والتزين ، والاستهلاك الترفى وسائر أنماط الحديث ... الخ . لذلك يكن استغلال هذه الرغبة فى إنجاح مشروعات وبرامج التغير الاجتماعى المقصود . وتصدق هذه الفكرة على رغبة أبناء المجتمع أيضا فى تحقيق عائد اقتصادى ، وبالتالى يمكن استغلالها فى نجاح تلك المشروعات .

٢ — المعتقدات الدينية وهى عامل فعال فى تحفيز المجتمع لإحداث التغير الاجتماعى ، وتعبئة النظم الاجتماعية المختلفة لمؤازرة برامجه ومشروعاته . وتعتبر هذه المعتقدات حافزا يسود كافة مجتمعات العالم ،

---

(٢١) د. على ليلة ، المرجع السابق ، ص ١٤٨ .

(٢٢) د. على المكاوى ، المعتقدات الشعبية ... ، مرجع سابق ، ص ٣٥١

وانظر أيضا :

George Fostez, op. cit., p. 47, 151, 157.

.ع اختلافات بسيطة فى الدرجة . وإذا نظرنا إلى مجتمعنا المصرى ، وجدنا
أن الحافز القراءة والكتابة من خلال السعى لحفظ القرآن الكريم وفهمه .
ومن ناحية أخرى ، تدعم النظم الاجتماعية الأخرى هذا الحافز من جديد ،
من خلال تعيين هؤلاء الحفظة فى الأعمال الحكومية الرسمية ، علاوة على
إعفائهم من الخدمة العسكرية — فيما قبل ثورة ١٩٥٢ — واستفادتهم ببعض
المزايا الأخرى وهكذا . ولعل فشل برامج ومشروعات تنظيم الأسرة فى مص
منذ عام ١٩٦٥ وحتى الآن ، راجع إلى سوء تقديم هذه المشروعات والتم
لها ، وعدم استغلال المعتقد الدينى فى تهيئة الرأى العام لمناقشتها
تقبولها . وإن كنا نلاحظ حاليا تداركا لهذا الخطأ ، ومحاولة لإصلاحه ، و
ذلك فسوف يستمر الفشل قائما ، بسبب إهمال هذه البرامج لاستث
الحافز الدينى .

٣ — المنافسة وهى عامل بالغ الأهمية ، حيث يحفز شخصين
جماعتين أو مجتمعين ، لاستثارة التغير الاجتماعى والتعجيل بحدوثه
وتساعد المنافسة فى الكشف عن القدرات الإبداعية الخلاقة لكل طرف
من الطرفين — والطاقات الكامنة ، وذلك للتغلب ع
الطرف الآخر ، وبالتالى إحداث التغير الاجتماعى فى المجتمع . ففى مجتم
المصرى ساهمت الهجرة إلى المجتمعات العربية البترولية ، والانفتاح ع
العالم الخارجى ، فى زيادة معدل المنافسة بين الأفراد والجماعات والمجتمع
المحلية . وقد أعلى من هذه المنافسة ، انتشار مشروعات وبرامج التنم
فى المجالات الصحية والاقتصادية والسياسية ... الخ . مما أعطى دفعا
قوية للتغير الاجتماعى على مستوى القرية والمدينة فى مصر (٢٣) . ولعل
إقبال الريف المصرى حاليا على التعليم — بشتى مراحله — يجسد لنا
أهمية عامل المنافسة فى إنجاح البرامج والمشروعات التعليمية .

* * *

---

(٢٣) د. على المكاوى ، المعتقدات الشعبية والتغير ... ، مرجع سبق ذكره ،
ص ٣٥١ و ٣٥٨ .

ثالثا — عوائق التغير الاجتماعى :

ينطوى البناء الاجتماعى للمجتمع على مجموعة من العلاقات والنظم التى قد تشجع على حدوث التغير الاجتماعى ، كما قد تعوق حدوثه . وفى كلتا الحالتين يعتبر هذا البناء الاجتماعى هو المصدر الأساسى الذى يحفز أو يثبط عملية التغير . واذا كنا تناولنا العوامل التى تعجل بحدوث التغير الاجتماعى فى الفترة السابقة ، فإننا سنتناول فى هذه الفترة مجموعة العوامل التى تعرقله ، ومنها بناء القوة والسلطة ، والصراع ، والملامح العامة للبناء الاجتماعى ، والتضامن الجمعى .

١ — **السلطة :** تعكس السلطة قوة التأثير فى الآخرين . وقد يتمتع بهذه السلطة شخص أو مجموعة أشخاص يمارسونها سواء فى الأسرة ، أو المجتمع المحلى ، أو حتى مجتمع الجيرة ، أو المجتمع العام . فاذا اقتصرنا فقط على السلطة فى العائلة لنوضح مدى تعويقها لحدوث التغير الاجتماعى، لوجدنا انها تتضح فى صنع القرار الأسرى (٢٤) ، سواء فى مجال الصحه والاستشفاء (القرار الطبى) (٢٥) ، أو فى تخصيص ميزانية الأسرة وأوجه الإنفاق ، أو فى تعليم الأبناء ، أو زواج البنات ، أو المشكلات التى تعترض الأسرة . . . الخ . وبالتالى فقد يغلب الطابع الاستبدادى على ذوى السلطة، مما يدفعهم لاتخاذ قرارات تعرقل حدوث التغير الاجتماعى فى المجالات الاقتصادية أو الصحية أو التعليمية ، وتحكم على ما فيه من برامج ومشروعات بالفشل .

وقد كشفت الدراسات الأنثروبولوجية النقاب عن حالات تتدخل فيها سلطة كبير الأسرة — أو كبيرة الأسرة — فتساهم فى فشل الجهد المخطط لإحداث التغير الاجتماعى . وعلى سبيل المثال فان المريض من النافاهو

---

(٢٤) د. على المكاوى ، اتخاذ القرار الاسرى ، الكتاب السنوى لعلم الاجتماع ، العدد ٧ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص ص ٤٦٧ — ٤٨٠ .

(٢٥) د. على المكاوى ، الخدمة الصحية فى مصر مرجع سابق ، ص ص ١٤٣ — ١٤٧ .

Navaho لا يدخل المستشفى إلا بعد أن تعقد الأسرة الممتـدة مؤتمرا تتشاور فيه حول هذه العملية . كذلك ليس فى مقدور الزوج أو الزوجة من الشبان — أصحاب الأسر النووية فى هذه الأسرة الممتدة — أن يتخذا ذلك القرار منفردين (٢٦) .

٢ — **الصراع والمصالح الشخصية** : من المؤكد أن التغير الاجتمـاعى لابد أن يترتب عليه تهديد لمصالح بعض الأشخاص أو الجماعات فى المجتمع. ولذلك حينما دخلت الخدمات الصحية الرسمية الريف المصرى — على سبيل المثال — بدأ المطببون الشعبيون يحاربونها ، لأنها تهدد مصالحهم الشخصية، فانبرى الحلاقون والدايات والمجبرون وغيرهم ، للهجوم على الطب الرسمى ومحاربته (٢٧) . وعلى نفس الشاكلة يحارب التجار إنشـاء الجمعيـات الاستهلاكية ، لأنها تهدد مصالحهم . ويحارب الرأسماليون فكرة العدالة الاجتماعية التى تساوى بينهم وبين الفقـراء . ومن الواضـح أن هـذه الصراعات تشكك المجتمع فى البرامج والمشروعات التى تسعى لإحـداث التغير الاجتماعى فيه ، وتشتت الجهود ، وتكون النتيجة فشلا ذريعا .

٣ — **الملامح العامة للبناء الاجتماعى** : من الملاحظ أن هناك خصائص معينة للبناء الاجتماعى ، وما يحويه من عناصر أساسية ، تعوق حـدوث التغير الاجتماعى وتبطئه . والواقع أن الأسرة — كنظام من بين نظم هذا البناء الاجتماعى — تمارس دورا خطيرا فى هذه العملية كما رأينا فى الفقرات السابقة حول السلطة فيها . ومن ناحية أخرى ، فإذا كان البناء الاجتماعى يعتمد على النظام الطائفى — كما فى الهند مثلا — تعذر وقوع التغير الاجتماعى، وفشلت مشروعاته وبرامجه . وفى ضوء هذا النظام الطائفى يمنع أبنـاء

---

(٢٦) George Foter, Traditional Societies . . . , op. cit., pp. 117 - 118

(٢٧) د. على المكاوى ، الخدمة الصحية فى مصر ، مرجع سابق ، الفصل الخامس ، صص ١٨٦ — ٢١٨ ، ومواضع أخرى عديدة .

طوائف معينة من الالتحاق بمدارس الطوائف الأخرى ، كما يخضع الطعام وتناوله لنفس المحاذير .

والواقع أن خصائص البناء الاجتماعى الأخرى تمارس دورها فى عملية التغير الاجتماعى سلبا وايجابا . فالمجتمع المنفتح على غيره من المجتمعات، يزداد فيه معدل التغير ، على حين يقل هذا المعدل — من التغير — فى حالة المجتمع المغلق الذى لا يتصل بالمجتمعات الأخرى . وبالتالى تتباطأ عمليات التجديد ويخمل الإبتكار ويتثاقل الابداع الاجتماعى .

٤ — **التضامن الجمعى** : تذهب الدراسات الانثروبولوجية إلى أن المجتمعات البسيطة والبدائية يسودها الاحساس بالذات الجماعية ، وبالتالى تذوب الشخصية الفردية فى الشخصية الجماعية ، ويسود الالتزام المتبادل فى جماعة ، سواء كانت جماعة الأسرة أو جماعة الأصدقاء ، أو جماعة الجوار ... الخ . ومن يخرج عن القاعدة ، يعتبر منشقا عن الجماعة ، فمن ينتمى إلى جماعة يلتزم بالتزاماتها . وتتحدد هذه الالتزامات المتبادلة فى انماط الأسرة والقرابة والصداقة . وإذا كانت تلك الالتزامات تقع على عاتق الأشخاص ، إلا انها تضطلع بدور بالغ الأهمية فى مواجهة الأزمات ، والحفاظ على تكامل المجتمع واستمراره .

وفى مقابل هذه المجتمعات البسيطة ، توجد المجتمعات المركبة (الحضرية أو الصناعية) التى تسودها الاتجاهات الفردية واستقلال ذاتية الفرد عن الذات الجماعية . وفى حالة هجرة ابناء الريف إلى المدن — على سبيل المثال — فإنهم يعايشون صراعا حادا بين التزاماتهم نحو جماعتهم الأصلية ، والتزاماتهم نحو انفسهم فى المجتمع الجديد . وبمعنى آخر فإنهم يصبحون أمام معادلة صعبة بين الالتزامات والحرية ، بين حياة الفقر وبحبوحة العيش أو الثراء النسبى . فإذا كان للمهاجر أن يجنى ثمار عرقه وكدحه ، فلابد له من التنصل من غالبية التزاماته الاجتماعية نحو جماعته . ولكنه يؤثر السلامة فى الغالب ، فيفى بالتزاماته نحو أسرته على الأقل ومجتمعه المحلى بصفة عامة . إلا أن هذا الالتزام لا يطول ، حيث يبدأ المهاجر فى التفكير فى الزواج ويتزوج ثم ينجب ، وبالتالى تبدأ علاقته

بجماعته القرابية — ومجتمعه الأصلى — تضعف رويدا رويدا (٢٨) .

وتتعدد الشواهد الدالة على ذلك فى مجتمعنا المصرى ، وفى مجتمعات العالم الثالث بنحو عام . ففى الهنـد ، يوجه المجتمع الريفى الهندى اللوم والتأنيب للشخص الذى لا يبدد ثروته فى احتفالات طقوسية فى الأسرة ، وينبذه فى النهاية (٢٩) . وفى زامبيا يحاول التاجر الحصيف أن يتنصل من التزاماته نحو جماعته القرابية ، من خلال نقل تجارته بعيدا عنها ، خشية أن تقلل هذه الالتزامات نحو الأهل والجيران ... الخ من حجم الربح الذى يحققه .

وهناك حل وسط يلجأ إليه بعض المهاجرين الى المجتمعات الحضرية أو الصناعية ، يتمثل فى توجيه قسط من الاهتمام والالتزام نحو مجتمعـه الأصلى وجماعته القرابية ، وتوجيه قسط آخر مناظر لشخصه واسرتـه الجديدة (النووية) ومستوى معيشته فى المجتمع الجديد . ولنا بعد كل هذه الأمثلة أن نتعرف على حجم تعويق الالتزامات الشخصية نحو الأسرة والمجتمع المحلى ، من فاعلية التغير الاجتماعى وبرامجه ومشروعاته .

وتجدر الاشارة إلى أن هناك عوائق اجتماعية اخرى — بالإضـافة إلى ما سبق — تحد من فاعلية التغير الاجتماعى وتعوقه فى كثير من الأحيان، مثل عدم توافر المواد الخام اللازمة لبرامج ومشروعات التغير الاجتمـاعى والتجديد والابتكار . كذلك يلعب العامل الجغرافى دوره فى الحد من عملية التغير وتعويقها ، فى حالة العزلة الجغرافية ، التى تمثل عائقا طبيعيا يحول دون الاتصال الاجتماعى والثقافى (٣٠) .

* * *

---

(٢٨) د. عبد الله عبد الغنى غانم ، هجرة الايدى العاملة : دراسة فى الانثروبولوجيا الاجتماعية للبناء الاجتماعى لمجتمع الحماليين بميناء الاسكندرية ، المكتب الجامعى الحديث ، الاسكندرية ، ١٩٨٢ ، ص ص ٤٠٠ — ٤٠٣ .

(٢٩) انظـر : George Foster, op, cit., p 106.

(٣٠) انظـر : M. Herskovits, op cit,, p. 451.

الباب الرابع

الأنثروبولوجيا الاجتماعية

المنهج والتطبيقات

الفصل الثالث عشر : طرق البحث فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية .

الفصل الرابع عشر : الأنثروبولوجيا التطبيقية .

الفصل الثالث عشر

طرق البحث
فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية

الفصل الثالث عشر

طرق البحث فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية

مقدمة :

سبقت الإشارة — فى الباب الأول من هذا الكتاب — إلى أن مفهوم الأنثروبولوجيا الاجتماعية قد ارتبط فى الأذهان بدراسة الشعوب البدائية ويرجع هذا الفهم إلى أساس نشأة هذا العلم وظروفه إلى حد كبير ، إذ كان يقصر اهتمامه على المجتمعات البدائية والمتخلفة ولا يزال يهتم بهما اهتماما خاصا حتى الآن . أضف إلى ذلك أن الأنثروبولوجيين الأوائل كانوا يعتمدون فى دراساتهم غالبا على كتابات وتقارير الرحالة والمبشرين عن هذه الشعوب البدائية ، وذلك قبل أن يبدأ الجيل التالى من العلماء بدراستها على الطبيعة ، اعتمادا على الملاحظة المباشرة .

وفى ضوء ذلك تضاربت الآراء التى ساقها الرحالة والمبشرون والكتاب الأوائل عموما . وإذا أخذنا (الرجل البدائى) نفسه مثالا على ما نقول ، وجدناه يتراوح بين طرفى نقيض . فالكتابات الأولى تضعه فى منزلة الحيوان وتصور حياته مزيجا من الفقر والعدوان والخوف . على حين تصفه الكتابات التالية بأنه إنسان رقيق مهذب يعيش فى رخاء وسلام ودعه ... كذلك سادت الفكرة عنه فى القرنين السابع عشر والثامن عشر بأنه كان يحيا حياة منعزلة فقيرة قذرة وحشية قاسية وقصيرة ... ونفس الشىء يمكن استخلاصه من كتابات الرحالة المعاصرين الذين اتصلوا بالبدائيين فوصفوهم كما لو كانوا (لا يملكون شيئا يخول لهم حق الإنتساب البشرى غير مجرد النطق) ، حسبما يقول سيرجون تشاردن **Sir John Chardin** عن الجراكسة الذين جاب بلادهم فى عام ١٦٧١ ، أو أنهم (لا يختلفون عن الوحوش إلا قليلا) على قول الأب ستانيسلاوس **Stanislaus** عن هنود بيرو الذين زارهم فى عام ١٦٩٨ (١) . وعلى العكس من ذلك تذهب آراء

(١) ايفانز بريتشارد ، مرجع سابق ، ص ١٠٣ .

أخرى تصف الحياة البدائية بطريقة رصينة تلتزم الجد والواقع ، منها ماكتبه أندروباتل Andrew Battel الانجليزى عن سكان الكنغو ، وما كتبه القسيس البرتغالى جيروم لوبو Jerome Lo'o عن الأحباش ، وكابتين كوك Cabtain Cook عن أهالى البحار الجنوبية ، ووليام بوسمان William Bos an الهولندى عن سكان غانا . ويرى إيفانز بريتشارد أن سبب إتزان هذه الآراء واهميتها وواقعيتها يرجع إلى الطريقة المنهجية البسطية الخالية من التكلف فى وصف الأشياء كما يراها الكاتب ، وتصوير الطبيعة من واقع الحياة ذاتها ، والإعتماد على الحواس وليس على المخيلة .

ومنذ منتصف القرن الثامن عشر ، وحتى منتصف القرن التاسع عشر ، ذاعت كتابات الفلاسفة الأخلاقيين وبدات تظهر الكتابات الأنثروبولوجية بالمعنى الدقيق للكلمة . وهنا تراكمت المعلومات حول الشعوب البدائية وشعوب الشرق الأقصى ، وزاد المد الاستعمارى الأوروبى لأمريكا ، والبريطانى للهند ، واستوطن المهاجرون الأوربيون فى كل من استراليا ، ونيوزيلاند وجنوب أفريقيا . وقد بدأ الوصف الإثنوجرافى لشعوب هذه المناطق كلها يتخذ طابعا جديدا يختلف تمام الاختلاف عن اقاصيص وحكايات الرحالة ، ويظهر فى شكل دراسات مفصلة على أيدى المبشرين والحكام هناك . فقد كان أمامهم فرص أفضل للملاحظة ، علاوة على انهم كانوا أوسع أفقا وأكثر ثقافة من رحالة العصور السابقة . وبالتالى تمثل هذه الفترة نقطة البداية فى محاولات تطبيق المنهج فى الدراسات الأنثروبولوجية.

واستمر الحال على ذلك حتى نهاية القرن التاسع عشر ، حيث اكتشف العلماء إمكانية تطبيق المنهج العلمى فى بحوثهم عن طريق الدراسة الميدانية Eield work التى تتمثل فى ملاحظة الواقع الاجتماعى مباشرة ، اى يقوم الباحث نفسه بجمع المعلومات بطرق بحث معينة ، ثم يقوم بتحليلها (٢) .

(٢) د. عاطف وصفى ، مصدر سبقت الاشارة اليه ، ص ١٦٤ .

وفى ضوء ذلك يستطيع أن يتأكد من استخدام المنهج العلمى فى جمع المعلومات . ولا شك فى أن هذا الأسلوب يختلف عن الأسلوب الذى استخدمه الانثروبولوجيون الأوائل فى القرنين السابع عشر والثامن عشر — فى اعتمادهم على أشخاص غير متخصصين فى جمع المعلومات ، ثم يقومون هم بتحليلها على أساس التسليم بأنها صحيحة ويمكن الاعتماد عليها . وقد أشرنا فيما قبل إلى خطأ هذا الأسلوب ، حيث أوصل الأنثروبولوجيين الأوائل إلى تحليلات وقوانين ونظريات خاطئة . كذلك أضفى هذا الأسلوب على الدراسات الأنثروبولوجية آنئذ طابع السرد الوصفى للنظم الاجتماعية والعادات والتقاليد فى المجتمع المدروس ، دون محاولة للتحليل المتعمق ، ودون محاولة لربطها ببعضها أو توضيح العلاقة بينها (٣) .

ولكننا نلاحظ وسط هذا المناخ أسلوبا منهجيا جديدا يجمع بين التدقيق فى جمع المادة وعمق التحليل من ناحية ، والاعتماد على المبشرين والحكام فى جمع المادة الميدانية من الواقع الاجتماعى فى المجتمعات البدائية والبسيطة من ناحية أخرى . وتمثل ذلك فى بعض الدراسات القليلة التى ظهرت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، من خلال ما يمكن تسميته بأسلوب (الاستكتاب) ، حيث يقصد الباحث بعض الهواة والمهتمين بالتراث أو النظم الاجتماعية السائدة ليطلب منهم كتابة تقرير مفصل عن موضوعات يحددها لهم فى صورة عناصر وأسئلة مفصلة تتطلب الإجابة عليها (٤) . وفى نفس الاتجاه ، يوجد أسلوب آخر يتمثل فى أن يرسل العلماء من أوطانهم قوائم تحوى أسئلة عن المعلومات التى يريدون الحصول عليها إلى الأشخاص المقيمين بين الشعوب البدائية ليجيبوا عليها . وأول تلك القوائم هى القائمة

---

(٣) د. شكرى نجار ، الأسلوب الانثروبولوجى لدراسة المجتمع ، مقال بمجلة الفكر العربى ، مرجع سابق ، ص ٢٢٦ .

(٤) انظر حول أسلوب الاستكتاب فى الدراسات الانثروبولوجية والفولكلورية المصدر التالى :

— د. علياء شكرى : التراث الشعبى المصرى فى المكتبة الأوروبية ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ص ١٩١ — ١٩٧ .

التى وضعها لويس مورجان L. Morgan لاستنباط مصطلحات القرابة وارسالها الى المبعوثين الامريكيين فى البلدان الأجنبية . وقد اعتمد على إجاباتم فى تأليف كتابه المشهور Systems of consanguinity and Affinity of the Human Family الذى نشر فى عام ١٨٧١ . ثم وضع جيمس فريزر J. Fraser بعد ذلك قائمة اسماها Questions on the Manners, Customs, Religion, Superstition etc, of Uncivilized or Semi - Civilized People. وارسلها إلى كثير من الناس فى كل انحاء العالم وحصل بذلك على كثير من المعلومات التى ضمنها كتابه (الغصن الذهبى) The Colden Bough (٥) والذى يرجع نشره بين عامى ١٨٨٠و١٨٩٠ ولكن أكثر هذه القوائم شمولا واستيعابا هى قائمة Notes and Queries on Anthropology والتى نشرت لأول مرة عام ١٨٧٤ لحساب معهد الأنثروبولوجيا الملكى بانجلترا . وبالإضافة إلى ذلك كان العلماء يتراسلون مع هؤلاء الأشخاص الذين عرفوهم أولا من خلال طريقة كتاباتهم (الاستكتابية) . فكان لويس مورجان يراسل فيزون Fison & Howitt وهاويت فى استراليا كما كان فريزر يراسل بولدوين سبنسر Baldwin Spencer فى استراليا وروسكو Roscoe فى افريقيا .

ثم توالت بعد ذلك الدراسات الميدانية فى علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، فكانت أول دراسة ميدانية هى الدراسة التى أجرتها بعثة هادون لمنطقة مضايق توريس فى المحيط الهادى فى عامى ١٨٩٨ و ١٨٩٩ (٦) . وظلت البحوث والدراسات تترى بعد ذلك تباعا ، وهى تحاول تطبيق المنهج العلمى بقدر المستطاع .

وفى ضوء ما سبق ، فإننا نستعرض الجوانب المنهجية السائدة فى علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية من خلال العناصر التالية :

---

(٥) ايفانز بريتشارد ، مرجع سالف الذكر ، صص ١٠٨ — ١٠٩ .

(٦) راجع التفاصيل فى الفصل الثالث من هذا الكتاب .

اولا : القواعد الاساسية التى ترتكز عليها الدراسة الميدانية .

ثانيا : طرق البحث المتبعة فى الدراسات الانثروبولوجية الميدانية .

ثالثا : المشكلات التى يواجهها الباحث الميدانى فى دراسته الحقلية .

رابعا : مشكلات تواجه الانثروبولوجى عند كتابة التقرير .

خامسا : نماذج من الدراسات الانثروبولوجية الاجتماعية الميدانية .

* * *

اولا : القواعد الاساسية التى ترتكز عليها الدراسة الميدانية :

تتطلب الدراسة الميدانية فى الانثروبولوجيا الاجتماعية أن يقصر الباحث اهتمامه على مجتمع واحد ، بقصد التركيز الشديد على كل النظم الاجتماعية وفهمها (٧) . وهذا يتيح التعرف على كل هذه النظم ، وتحليل العلاقات القائمة بينها . وفى سبيل اجراء الدراسة الميدانية فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية بكفاءة ، ينبغى مراعاة مجموعة القواعد الأساسية الآتية :

١ — **الإلتزام بالنظرة التكاملية لمجموعة النظم التى تشكل البناء الاجتماعى للمجتمع المدروس** . ولا يمكن تطبيق هذه القاعدة ، الا من خلال اجراء الدراسة الميدانية على مجتمع واحد لامكانية ادراك واقع هذه النظم الاجتماعية ، والتعرف على طبيعة العلاقات السائدة فيما بينها ، على حين لو أجرى الأنثروبولوجى دراسته على عدة مجتمعات ، فسوف يشتت جهده ويعجز عن التعرف الكفء على النظم والعلاقات الاجتماعية القائمة فيها . ويصدق نفس الشىء ايضا حينما يجرى الأنثروبولوجى دراسته على مجتمع واحد كبير الحجم ، مترامى الأطراف ، متعدد الثقافات . لذلك فمن الأفضل فى الدراسات الأنثروبولوجية الاقتصار على دراسة مجتمع واحد بسيط ، دراسة تكاملية .

٢ — ضرورة اعتماد الباحث على نفسه فى اجراء الدراسة الأنثروبولوجية على مجتمع البحث ، بمعنى ان يتصل اتصالا مباشرا بهذا المجتمع من خلال

---

(٧) د. شكرى نجار ، الاسلوب الانثروبولوجى ، مرجع سابق ، ص ٢٣٠ .

الدراسة الحقلية **Field work** والملاحظة المباشرة ، وهذا يشكل قاعدة جوهرية فى البحوث والدراسات الأنثروبولوجية . ولا يمنع الأمر من الاستعانة بالكتابات الأخرى التى ظهرت عن ذلك المجتمع ، وتلقى الضوء على أى جانب من جوانبه . ولعل هذه القاعدة تميز لنا بين علماء القرن التاسع عشر وعلماء القرن العشرين من الأنثروبولوجيين . اذ من الواضح أن معظم علماء القرن التاسع عشر — أمثال فريزر وماكلينان والأب شميته **F Schmidt** وغيرهم — لم يخطر ببالهم زيارة احدى القبائل البدائية التى يكتبون عنها عن بعد . وما يقال عن هؤلاء يصدق على دوركايم الذى اثرت نظرياته تأثيرا كبيرا فى تطور وتبلور فكر رادكليف براون ومدرسته . اما النفر القليل منهم — امثال تايلور **Tylor** وباستيان **Bastian** وغيرهما — فقد قاموا برحلات كثيرة زاروا خلالها عددا كبيرا من القبائل والمجتمعات البدائية . على حين اتجه علماء القرن العشرين نحو الدراسات الميدانية ، والاتصال المباشر بالمجتمعات البدائية والبسيطة . ومن هؤلاء ايفانز بريتشارد ومارجريت ميد وسليجمان ومالينوفسكى وشابيرا وفورتيس ونادل وغيرهم .

٣ — صغر حجم مجتمع الدراسة . وتحتم هذه القاعدة ضرورة دراسة المجتمعات الصغيرة المحددة تمام التحديد ، اذ كلما صغر حجم المجتمع وتحددت رقعته ومساحته ، وتميزت معالمه وحدوده ، كلما سهل على الباحث الأنثروبولوجى تتبع نظمه الاجتماعية ودراسة نسقه الاجتماعى كوحدة متميزة واضحة . ولذلك نجد معظم الدراسات الأنثروبولوجية الميدانية — خلال القرنين التاسع عشر والعشرين — تدور حول شعب واحد أو قبيلة واحدة أو مدينة صغيرة او حتى مصنع أو محل تجارى . فايفانز بريتشارد على سبيل المثال يدرس شعب النوير على حده ، كما يدرس شعب الأزاندى على حده ، ولم يحاول أن يقوم بدراسة حقلية تشمل مجموعة الشعوب النيلية التى يندرج تحتها شعبا النوير والأزاندى . وبريستيانى يدرس قبيلة الكبسيجيس الذين لا يتعدى عددهم الثمانين الفا ، ولا يدرس

مجموعة الشعوب السودانية أو حتى القبائل الناطقة بلغة الناندى (وهى حد فروع هذه المجموعة) التى ينتمى اليها الكبسيجيس (٨) . وبت ريفرز Riverr يكتفى بدراسة مدينة Alcala de la Sierra التى يتجاوز سكانها ثلاثة آلاف شخص ، ولا يدرس أسبانيا كلها أو حتى الأندلس حيث تقع المدينة . وأخيرا نجد جون اميرى Embry يقصر دراسته الحقلية على قرية سويا مورا Suye Mura التى يبلغ تعدادها ١٦٦٣ نسمه ، ولم يدرس اليابان كلها أو احدى الجزر اليابانية الصغيرة . ويمكن القول بأن تحديد الوحدة الاجتماعية — موضوع البحث الانثروبولوجى — يمثل مشكلة تواجه الباحث فى بداية عمله . اذ أن الأساس الأول فى الاختيار يتمثل فى وجود نسق اجتماعى واضح يستطيع تحليله ودراسة العلاقات المتداخلة التى يتألف منها . بيد أن كل وحدة اجتماعية — أيا كان حجمها — لها نسقها الخاص ، كما أن ما نعتبره نسقا متكاملا فى وحدة اجتماعية معينة ، قد يؤلف جزءا من نسق أوسع فى وحدة اجتماعية أكبر وهكذا .

٤ — المدة الزمنية التى يقضيها الانثروبولوجى فى الدراسة : كان العلماء الأوائل — الذين قاموا بالدراسات الحقلية — فى عجلة من أمرهم . حيث كانت زيارتهم الميدانية خاطفة ولا تتعدى بضعة أيام . ونادرا ما كانت زيارتهم لهذه الشعوب والقبائل البدائية تستمر أكثر من بضعة أسابيع . ومع أن هذه الزيارات السريعة الشاملة قد تصلح لأن تكون خطوة تمهيدية لما يأتى بعدها من دراسات مركزة ، الا أنها لا تفيد بحال من الأحوال فى فهم الحياة الاجتماعية . ولذلك فان الباحث المحدث يقضى الآن فترة تتراوح ما بين العام الواحد والأعوام الثلاثة فى دراسة شعب واحد ، مما يتيح له الفرصة لملاحظة الحياة الاجتماعية فى كل فصول السنة . وتسجيلها بكل تفاصيلها ودقائقها ، ثم اختيار النتائج بعدئذ بطريقة منهجية منظمة . والواقع أن طول مدة البحث لا عبرة منها ، الا بالقدر الذى سمحت

---

(٨) د. شكرى نجار ، مرجع سابق الذكر ، ص ٢٣١ .

للباحث خلالها بالوصول الى صورة دقيقة ومفصلة عن المجتمع المـدروس . وبالتالى ينبغى عليه أن يضع نفسه فى موضع يتيح له توطيد علاقته بالأهالى ، فيلاحظ مختلف مظاهر النشـاط اليومى ، ويتابع حياة الجماعة من داخـل المجتمع وليس من خارجه (٩) . ولن يتسنى له ذلك ، الا اذا عاش بقـدر المستطاع فى قراهم أو مخيماتهم ، وأصبح جزءا فيزيقيا ومعنويا فى مجتمعهم ؛ فيرى ويسمع كل ما يدور حوله من أحداث يومية وأحداث موسمية — أو بين الحين والحين — كالاحتفالات والمنازعات والحصـاد والقضـايا والزواج والوفاة . . . الخ ، وأن يسهم بشكل ايجابى فى تلك المناشط والأحداث ذاتها ، وبالتالى يتعلم بالعمل والممارسة كما يتعلم بالسمع والبصر .

٥ — ذهاب الأنثروبولوجى بمفرده الى مجتمع الدراسة ودون أن يرافقه أحد من بنى جنسه أو من نفس ثقافته ، مما يضطر معه الى الالتجاء الى الأهالى انفسهم ، يبحث بينهم عن الرفقة والصداقة والفهم الانسـانى . وبالتالى يقاس نجاح الأنثروبولوجى بمدى ما حققه من علاقة وطيدة بالأهالى تجعله يشعر بالحزن عند مفارقتهم ، وتجعلهم هم انفسهم يشعرون بهذا الشعور . والواقع أن هذا الشعور لا يمكن الوصول اليه ، الا اذا أفلح فى الاندماج فى المجتمع بحيث يصبح عضوا فيه ، ويتشرب ثقافتهم ، فيفكر فى حدودها ، وينفعل بها ما دام هو اقدر منهم على التحول وعلى التكيف . والمسـألة ليست مجرد التجـاور أو القرب الفيزيقى أو المـادى ، ولكنها مسـألة نفسية هامة . فالأنثروبولوجى الذى يعيش بين الأهالى كواحد منهم ، يضع نفسه فى مصافهم فى كل شىء ، وبالتالى فهو يختلف عن رجال الادارة ، والحكومة فى أنه لا يتمتع بأية سلطة أو مركز يحـاول ابرازه والاحتفـاظ بهيبته . أضف الى ذلك أنه يقف من الأهالى موقفا محايدا ومتزنا ، فهـو لم يأت لكى يغير أسلوب حياتهم ، وانما سعى اليهم فى تواضع ليقيم بينهم ويتعلم اسلوبا معينا منهم .

---

(٩) ايفانز بريتشارد ، مرجع سابق ، ص ١٢١ .

٦ — ضرورة مخاطبة الأهالى بلغتهم وبطريقتهم لنجاح الدراســة الأنثروبولوجية . فاذا كان الأنثروبولوجى غريبا عن المجتمع ولا يعرف لغته ، فانه لابد أن يتعلم هذه اللغة حتى يستغنى عن المترجمين ، ويستطيع التخاطب المباشر مع الأهالى وكسب ثقتهم وحرية الاختلاط بهم . وقد نقول بأن تعلم اللغة يستغرق وقتا وجهدا كبيرين من الباحث ، الا أن العــائد العلمى الناجم عن تعلم هذه اللغة يفوق ما استنفذه تعلمها من وقت وجهد . فالمعروف ان العلاقات الاجتماعية والعقائد والطقوس والعمليات الفنية والعــادات وكل شىء فى حياة الأهالى تظهر فى شكل الفاظ أو فى صورة أفعال . وحينما يفهم الباحث معانى كلمات اللغة وكيفية استعمالها فى مختلف المواقف والمناسبات ، يكون قد استكمل دراسة المجتمع . أما اذا لم يكن الأنثروبولوجى غريبا عن المجتمع الذى يدرسه ، فلابد اذن من التعرف على الثقافة الخاصة السائدة فيه ، والتبسط فى لغة الحديث ليفهمها البسطــاء وســائر أفراد مجتمع الدراســة .

* * *

ثانيا : طرق البحث المتبعة فى الدراسات الأنثروبولوجية الميدانية :

يعتمد الأنثروبولوجى الاجتماعى فى دراسته الميدانية على مجموعة من طرق البحث التى تساعده على انجاز الدراسة بكفاءة . والواقع أن قوام البحث الأنثروبولوجى يتمثل فى العمل الميدانى المكثف ، الذى يضطلع به البــاحث نفسه ، ويستخدم فيه طرقا معينة للبحث تتوقف كفاءتها على الأنثروبولوجى ذاته . ومن هنا نلاحظ ان علماء الأنثروبولوجيا الاجتمــاعية لم يكتبوا الكثير عن طرق البحث الميدانى ، بالمقارنة بما كتبه علماء الاجتماع أو علماء النفس عن مناهجهم وطرقهم . ومرد ذلك الى أن العمل الميدانى فى علم الأنثروبولوجيا يعتبر عملا شخصيا ، يصعب معه تسجيل قواعد معينة مقننة . ولكن هذا لا يمنع بعض الأنثروبولوجيين من الاشــارة الى عملهم الميدانى والأســاليب والطرق المتبعة فيه ، خلال بحوثهم الميدانية (١٠) ،

---

(١٠) د. نبيل صبحى ، مرجع سابق ، ص ٢١٧ .

.ا الصدد يؤكد ايفانز بريتشارد على أن كثيرا من الكتب الاثنوجرافية
.ازة ظهرت قبل أن نسمع عن الأنثروبولوجيا الاجتماعية بوقت طويل .
ومن هذه الكتب كتاب ديبوا Dubois عن (الشمائل والعادات والطقوس الهندية) عام ١٨١٦ ، وكتـــاب وليم لين W. Lane عن (المصريون المحدثون : عاداتهم وشمائلهم ، عام ١٨٣٦ (١١) . وهذه أمور صحيحة ، الا أنه من الصحيح أيضا أن الدراسة التى يكتبها الشخص المتمرس ـــ الذى يجمع الى جانب ميزاته الشخصية الخاصة تدريبا طويلا فى الأنثروبولوجيا ـــ لابد أن تأتى أكثر عمقا وكمالا مما يكتبه الرجل العادى ... وهكذا فمن الضرورى أن يتعلم المـــرء أولا ما الذى يبحث عنه ، وكيف يقوم بملاحظته (١٢) ... كما ينبغى أن يتمتع بقدر وافر من الحدس وحب التقصى والمـــران والبحث الدقيق .

وبنـــاء على ما سبق فاننا نستعرض باختصـــار أهم طـــرق البحث التى يستخدمها عالم الأنثروبولوجيا الاجتمـــاعية فى دراسته الميـــدانية ، وذلك فيمـــا يلى :

١ ـــ المـــلاحظة بالمشـــاركة Participant Observaion وهى :
طريقة بالغة الأهمية فى الدراسات الأنثروبولوجية . اذ انها التى تضفى على هذه الدراسات طابعا خاصا يميزها عن دراســـات العلوم الاجتماعية الأخرى . وتعتمد هذه الطريقة على قاعدة أساسية تتمثل فى ضرورة أن يعيش الباحث وسط المجتمع الذى يدرسه ويعايشه معايشة كاملة ، ويندمج فى

---

(١١) ترجم الاستاذ عدلى طاهر نور هذا الكتاب القيم ونشره فى عام ١٩٥٠ ، ثم أعاد طباعته فى عام ١٩٧٥ . وهو يحوى تسجيلا دقيقا وأمينا ـــ الى حد كبير ـــ عن حياة المصريين فى القرن التاسع عشر وعاداتهم ومعتقداتهم ونظمهم ... الخ .

أنظر وليم لين ، المصريون المحدثون : عاداتهم وشمائلهم ، ترجمة عدلى طاهر نور ، ط ١ ، دار نشر الجامعات المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

(١٢) ايفانز بريتشارد ، مرجع سابق ، ص ٢١٤ .

نسيجه حتى يصبح عضوا فيه ويحظى من المجتمع بالقبول والترحيب . ولكى يتحقق هذا الوضع فلابد أن يضطلع البـــاحث بدور ما فى هذا المجتمع ، ليتمكن من ملاحظة الســلوك اليومى بشكل تلقائى وبلا تكلف أو تزيد . الا ان المشكلة الأولى التى تواجهه — فى بداية اجراء الدراسة الميدانية — هى هوية الدور الذى يجب أن يؤديه لكى يحصل على معلومات موضوعية . وتزداد حـدة هذه المشكلة حينما يكون بصـــدد دراسة فى عشيرة أو قبيلة او قرية او حى شعبى . . . الخ ، حيث يحاول الأفراد — موضوع الملاحظة — تغيير سلوكهم العادى ، أو خداع الباحث بشعورهم بأنهم يخضعون لملاحظة شخص غريب عنهم . وللخروج من هذه المشكلة يكون قيامه بالدور ليتقبله المجتمع ويكتسب ثقته ويبدد الشكوك حول الباحث والبحث . وبالتـــالى لابد أن يعيش فترة من الزمن فى مجتمع الدراسة ويتعلم اســلوب الحياة الجديدة ، ويستخدم نفس لغتهم وتصوراتهم ومفاهيمهم فى تفكيره ، ويعتنق قيمهم ويعمل معهم ويشاركهم طعامهم واحتفالاتهم وارتداء ملابسهم . ويدخل فى بعض الأحيـــان كعضو فى جمعياتهم ، اذا سمحت النظم الاجتمـاعية بـــذلك .

وعلى البـــاحث طوال فترة الدراسة ان يكتب تقارير يومية عن كل صغيرة وكبيرة تقابله فى المجتمع ويلاحظها بحواسه ، بلا تحيز أو تهـويل . وعندما تتضح له فكرة عامة عن اســلوب المعيشـــة فى المجتمع ، يبدأ فى التحليل والكشف عن عناصر البناء الاجتماعى أو الترتيب البنـائى للمجتمع حتى تصبح دراسته مفهومة على مستوى التحليل الاجتمـــاعى . اذ ان الانثروبولوجى الاجتماعى لا يقنع بملاحظة ووصف الحياة الاجتماعية فى مجتمع ما ، وانمـــا يحاول الكشف عن الترتيب البنائى الذى يكمن تحتها ، أى يكشف عن النماذج والأنماط التى تمكنه من ملاحظة البنـــاء الاجتمـــاعى ككل مترابط الاجزاء ، ولا يمنع من التركيز فى الدراسة على نظام اجتماعى مثل نظام الزواج او النظام الاقتصادى اوا لنظام القرابى أو الأخلاقى (١٣) .

---

(١٣) د. عاطف وصفى ، مرجع سالف الذكر ، ص ١٦٦ .

وقد يركز الأنثروبولوجى انتباهه على مجموعة محددة من المراكز والأدوار الاجتماعية . وفى أحيان أخرى يركز ملاحظاته على شكل مورفولوجى معين مثل العشيرة أو القبيلة . وهكذا يستخدم الأنثروبولوجى الاجتماعى الملاحظة بالمشاركة فى جمع المعلومات عن جميع جوانب البناء الاجتماعى بحيث يمكن ملاحظته ككل ضمن ما يعرف بالطريقة الكلية **Holistic Method** وهى أحدى الخصائص الرئيسية المميزة للمنهج الأنثروبولوجى .

واذا ضربنا مثالا على هذه الطريقة الكلية فى الدراسات الأنثروبولوجية فاننا نستمده من دراسة تقليدية قديمة (١٨٣٦) ، ولكنها تضارع الدراسات الحديثة والمعاصرة ، ان لم تكن تتفوق على بعضها . والمثال نستشهد به من دراسة وليم لين **W. Lane** عن المصريين المحدثين ، وخاصة الفصل الثامن والعشرين الذى يدور حول (الموت والشعائر الجنائزية) حيث يصف الخطوات التى يقوم بها الناس حين يدخل أحدهم فى دور الاحتضار ، ويتابع كل العادات والأفعال التى تتعلق بتهيئة الجسد للدفن ثم تشييع الجنازة ، ضمن مراسم الدفن **Burial Ceremonies** ويصف عملية الدفن ويصف القبر ، ويتكلم عن معتقدات الناس عن حياة الروح بعد الموت وغير ذلك من مسائل . وفى ذلك يقول (ان حفرة القبر تكون على العموم من الاتساع بحيث تكفى لدفن أربعة أجساد أو أكثر . وحين يراد دفن الذكور والاناث جميعا فى نفس الحفرة — وهذه ليست العادة الشائعة المتبعة — يقام حاجز ليفصل أجساد الجنسين عن الآخر) (١٤) . أما الباحث الأنثروبولوجى فلن يقف عند حد هذه الملاحظة ، بل سيرى فى هذه العادات انعكاسا لطبيعة العائلة فى مصر ، وتنظيمها وتماسكها كوحدة قرابية واقتصادية وسياسية متميزة . اذ أنه سيلاحظ فى نفس الوقت أن أفراد العائلة وحدهم هم الذين يدفنون فى نفس القبر .

(١٤) وليم لين ، المصريون المحدثون ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٤٣٣ — ٤٤٦ .

كذلك سوف يهتم بدراسة درجة القرابة بين الأفراد الذين يباح دفنهم فى القبر الواحد ، وسيرى حينئذ أنهم ينتمون غالبا الى العصبة القرابية كالاخوة مثلا او الأب وابنـــائه . وسوف يظهر له أن هناك ترتيبا فى أحقية الدفن ، بمعنى أنه يأتى بعد العصبة القريبة أعضاء العصبة الأقل قربا ، والذين يلونهم مباشرة مثل ابناء العمومة ، ثم أفراد العصبة الأكثر بعدا مثل ابناء العمومة من الدرجة الثانية وهكذا . وقد يرى الباحث فى ذلك تدليلا على اختلاف قوة الروابط العائلية التى تقوم فى الأصـــل على مبـــدأ العصبة وتدرجها (١٥) . بـــل أنه قد يقـــارن بين هـــذه الروابط وتدرج الالتزامات السياسية مثل واجب الأخذ بالثأر أو المســـاهمة فى دفع الدية ، والالتزامات الاقتصادية كواجب الانفاق والمســـاعدة وقواعد الوراثة والتوريث وما الى ذلك من الناحية الأخرى . وقد يلاحظ الباحث الأنثربولوجى أيضا أنه فى كثير من الأحيان — حين تموت المـــرأة المتزوجة — فانها تدفن فى مدافن عائلة ابيها ، وليس فى مدافن عائلة زوجها . فالزواج لم يفقدها شخصيتها القديمة ، ولم يقطع علاقاتها تماما بعائلتها الأصلية التى ترتبط بها بروابط العصبة ، ولم يحرمها من الانتساب الى الأب ، بل تظل تحمل اســـمه ، ويكون لها الحق فى أن ترثه ، كما أنها ترث وتورث بعض أفراد عصبتهـــا فى حالات معينة . فروابط العصبة او روابط القرابة فى ســـلالة الذكور تظل قائمة فعالة حتى بعد الزواج ، رغم أن المـــرأة تنتقل بالزواج من بيت أبيها الى بيت الزوج . ومن هنا لابد أن يتطرق الباحث الى دراسة مشكلة التعارض بين مبدأ انتقال الزوجة الى بيت الزوج Patrilocality وروابط القرابة الأبوية patrilineality ، وما يفرضه هذان المبـــدآن من واجبات والتزامات وحقوق (١٦) .

ومن هنا يتضح أن العمل الميدانى فى الأنثروبولوجيا العـــــامة —

(١٥) د. شكرى نجار ، مرجع سالف الذكر ، ص ٢٢٧ .

(١٦) راجع التفاصيل فى الفصلين الخامس والسابع من هذا الكتاب .

والأنثروبولوجيا الاجتماعية موضع اهتمامنا — قوامه الملاحظة المباشرة للسلوك ، تلك الطريقة المنهجية التى تساعد الباحث على مواجهة التضارب فى الاجابات الذى ينجم عن استخدام المقابلة والتقارير اللغوية والأسلوب المستخدم فى اجراء المقابلة ذاتها . وهكذا تصحح الملاحظة المشاركة الأخطاء الواردة فى جمع المادة الميدانية — بالطرق الأخرى — وتزيل التضارب فى التفسيرات الاجتماعية . ومن ناحية أخرى ، فان الملاحظة المشاركة تساعد الباحث الانثروبولوجى على المقارنة بين انماط السلوك الواقعية Real patterns of Behavior وانماط السلوك المثالية Ideal patterns of Behavior (١٧) ، وذلك ليتعرف على اساليب السلوك السائدة فى المجتمع الذى يدرسه .

٢ — المقابلة Interveiw وهى طريقة منهجية بالغة الأهمية ، يعتمد عليها الانثروبولوجى — وغيره من المتخصصين فى العلوم الاخرى — فى دراساته الميدانية . والواقع ان المقابلة تتيح للباحث أن يقترب اشد الاقتراب من الجماعات التى يتصل بها فى اثناء قيامه بدراسة احد النظم أو الظواهر الاجتماعية . ولكن هذا الاقتراب رهين بمدى تقبل المجتمع للباحث ، وبالتالى تحدد طبيعة اسلوب المقابلة الذى يتبعه درجة تقبل ابناء المجتمع له . ولذلك يميل بعض الأنثروبولوجيين فى الوقت الراهن الى تعلم اللهجة العامية التى تسود المجتمع المراد دراسته . ويعتبر هذا التعلم والتدريب ضروريا بالنسبة لاجراء البحث ، واكثر ضرورة عند كتابة هذه اللهجة (١٨) . وفى هذه الحالة يحصل الأنثروبولوجى على

---

(١٧) يعرف كلاكهون Kluckhohn الانماط المثالية بانها ما ينبغى أن يفعله أو يقوله أفراد مجتمع معين فى مواقف معينة ، اذا ما ارادوا الامتثال الكامل لمعايير السلوك التى تحددها ثقافتهم . على حين تقوم الانماط السلوكية الواقعية على ملاحظتنا لما يمارسه الناس فعلا فى مواقف معينة .

انظر : د. محمد الجوهرى ، الانثروبولوجيا ، مرجع سبقت الاشارة اليه ، ص ٧٣ .

(١٨) د. نبيل صبحى ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢١٧ .

المـادة العلمية شفاهة من الاخباريين Informants والتقـارير التى يسجلها فى أثنـاء المقابلات أو المناقشـات الخاصة ، والمـذكرات المختصرة التى يدونها فى أثناء وجوده فى موقف اجتماعى خاص ، أو أثناء مشـاهدة حـدث معين .

والجدير بالذكر أن الانثروبولوجى الاجتماعى يعتمد على المقـابلة — بالاضـافة الى اعتماده على الملاحظة المشـاركة — حيث يلتقى مع بعض أفراد المجتمع الذين يتمتعون بسمعة طيبة ، ويحاول فى المقـابلات الأولى أن يكسب ثقتهم ، وبعد ذلك يوجه اليهم الأسئلة ، ويتيح لهم فرصة الاجابة المستفيضة . كما يحاول أيضا أن يشجعهم بكلمة أو اشـارة تزيد حماسهم فى الاسترسـال حول الموضوع الذى يدرسه . والباحث فى هذه الحالات ينبغى عليه تدعيم ثقته بالاخباريين ، حتى يسمحوا له بتدوين تلك المعلومات أو تسجيلها بالوسائل الصوتية والمرئية . فاذا لم يكن قد اكتسب ثقتهم بعد ، فيمكنه تدوين النقاط الاسـاسية بطريقة لا تثير الشك . وفى بعض الأحيـان لا يكتب الباحث أية معلومة أثناء المقابلة ، وانما يحتفظ بكـل ما سمعه الى ما بعد انتهائها فيكتبه قبل أن تخونه الذاكرة وينساه (١٩) . وتتلخص أهمية هذه الطريقة فى أنها تتيح فرصة اظهار سـمات شخصية الأفراد واعطاء معلومات تفصيلية عن الموضوعات التى تدور حولها الأسئلة .

٣ — تاريخ الحيـاة Life History : يستخدم كثير من الأنثروبولوجيين الاجتماعيين هذه الطريقة المنهجية فى أثناء الدراسة الميدانية ، وتتلخص فى تدوين أهم الأحداث التى تمـر فى حيـاة بعض أفـراد مجتمع الدراسة . وعلى الاخبارى أن يقص على الباحث تاريخ حياته منذ الصغر الى اللحظة التى يتحدث فيها . والواقع أن استجابة الاخبارى للبـاحث — بهذا الشكل لا يمكن أن تتحقق الا بعد تبادل الثقة بينهما وتدعيم العـلاقة

---

(١٩) د. نبيل صبحى ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢١٧ .

بحيث تسمح للاخبارى بأن يبوح بكل الأحداث والظروف والوقائع التى مرت به ومر بها ، وكان لها الأثر فى توجيه حياته وجهتها الحـالية . أضف الى ذلك أن هذه الطريقة المنهجية يمكن أن تفيد الباحث فى التعرف على أهم الأحـداث التى مرت بالمجتمع الذى يدرسه وأثرت فى الظاهرة أو النظام الاجتماعى موضوع الدراسة (٢٠) . ومن الواضح أن تبادل الثقة — كمـا قلنا — يضفى على المعلومات المقدمة صفة الموضوعية ، ويسـاعد على ذكر كل المعلومات المطلوبة وعدم اخفائها أو ليها . الا أن الحس التـاريخى وذاكرة الكبار ، غالبـا ما تخونهم فـلا يستطيعون أن يتذكروا المعلومات القديمة أو يسترجعوها ، وقد يدلون — لتغطية نسيانهم وصعوبة استرجاع الصورة الكاملة للموقف أو الحدث — بمعلومات غير مؤكدة . وهنا ينبغى على البـاحث أن يتأكد من صحة هذه المعومات من خلال الرجوع الى أكثـر من اخبـارى ، والاعتماد على السجلات والوثائق التاريخية — ان وجدت — والمقـارنة بين ما أدلى به الاخباريون ، والوصـول بالتالى الى الصورة شبه الصحيحة أو الصحيحة .

٤ — المقـارنة Comparison : سبقت الاشـارة الى أن الأنثروبولوجيـا الاجتمـاعية دراسـة وصفية مقـارنة للسلوك الاجتماعى (٢١) . وبالتـالى فالأنثروبولوجى لا يكتفى بوصف السـلوك الاجتماعى والعلاقات والنظم الاجتماعية ، وانما يذهب بعيداً الى ما وراء الوصف ، حيث يحلل المعلومات الوصفية لتحديد أنماط العلاقات الاجتماعية ، وفهم البنـاء الاجتماعى ككل . ويتم ذلك عن طريق الكشف عن التأثيرات المتبـادلة بين مجموعة النظم الاجتماعية ، بقصد الوصول الى الصورة الكلية للوظائف المختلفة لهذه النظم ، أو لنظـام واحد تدور حوله الدراسة . وتتمثل الخطوة التالية والهامة — فى نفس الوقت — فى مقارنة هذه النظم

---

(٢٠) د. على المكاوى ، المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعى ، مرجـع سـابق ، ص ص ١٤ — ١٧ .

(٢١) راجع التفاصيل فى الفصل الثالث من هذا الكتاب .

والظواهر الاجتماعية بنظيرها فى المجتمعات الأخرى . ولا شـــك ان كثرة الدراســات الانثروبولوجية المتــاحة عن المجتمع المــدروس وتراكمها ، تســاعد على توسيع نطــاق المقــارنة على المستوى الراسى والمستوى الأفقى . اما المستوى الراسى (الزمانى أو التاريخى) فهو يتضمن المقارنة بين ظاهرتين او نظامين اجتماعيين فى مجتمع واحد فى فترتين زمنيتين مختلفتين ومثال ذلك حينما نقارن بين نظام الأسرة فى المجتمع المصرى فى عصر محمد على وعصر الثورة ، أو نقارن بين نظــام الزواج فى مصر فى العصر المملوكى والعصر التركى . على حين يتمثل النوع الثانى من المقــارنة فى المســتوى الأفقى (المكانى أو الجغرافى) حيث نقارن مثلا بين نظــام القرابة فى مصر ونظيره فى الهند ، أو نقارن بين النظام الاقتصــادى فى الســودان ونظيره فى العراق وهكذا . وعلى هذا الاســاس ، فان كل دراسة جديدة لمجتمع ما ، توســع من مجال المقارنة ، وتثرى النظرية الانثروبولوجية . ولكننا ينبغى الا نعتمد فى المقارنة الا على الدراســات الميدانية المتخصصة التى اجراها انثروبولوجيون أكفاء . اما الدراســات الوصفية التى قدمها الرحالة والمبشرون والصحفيون وغيرهم من الهواه ، فهى لا تصلح للمقارنة .

٥ — ادوات مســاعدة يستخدمها الانثروبولوجى : بعــد استعراض مجموعة طرق البحث التى يعتمد عليها الانثروبولوجى الاجتماعى ، نشير الى بعض الأدوات المســاعدة له فى اجراء بحثه الميدانى ، وجمع مادته الحقلية . ومن أهم هذه الأدوات الســجلات والوثائق والتقارير المنشورة ، واجهــزة التسجيل الصوتى « المسجلات » والتسجيل المــرئى (آلات التصوير) . ولا شـــك فى أن السجلات والوثائق والتقارير المنشورة تفيد الباحث فى بحثه ، من خلال ما تقدمه له من معلومات عن الظاهرة ، أو النظام الاجتماعى الذى يدرسه . وتتيح له هذه المــادة المكتوبة فرصة اجراء المقارنات بين الظاهرة أو النظــام موضوع البحث فى فترات زمنية مختلفة (مقارنة راسية) للتعرف على أوجه الثبات ومعالم التغير ، ومحاولة البحث عن العــوامل

الفاعلة وراء ذلك . أما أجهزة التسجيل بنوعيها المسموع والمرئى فهى تسجيل لواقع حى ينبض بالحركة والحيوية ، والاحتفاظ بها مدة طويلة مما ييسر فى المستقبل اجراء المقارنات بينها وبين دراسات أخرى أحدث منها للوقوف على ما طرا عليها من تغيرات (٢٢) . ونود الاشارة الى أن هذه الأدوات التكنولوجية الحديثة ، ليس من السهل استخدامها فى البحوث الأنثروبولوجية نظرا لتحفظ بعض الاخباريين على استخدامها — شكا فى الباحث او توجسا لخيفة منه ، أو جهلا بغرضه أو نفورا منه — وبالتالى ينبغى ارجاء الاعتماد عليها حتى تتضح أغراض البحث ، ويقدم الباحث نفسه لمجتمع الدراسة ويتفهم أعضاؤه موقفه ، ويدعم الثقة بينه وبينهم ، ويبسط يده اليهم بالألفة والمودة . وحينئذ فقط يمكن له الاعتماد على هذه الادوات واستخدامها فى جمع المادة الميدانية .

* * *

ثالثا : المشكلات التى يواجهها الباحث الميدانى :

لاشك فى أن البحث الأنثروبولوجى تحيطه الصعاب ، وتغلفه المشكلات العديدة . وقد ترجع هذه الصعاب والمشكلات الى طبيعة موضوع البحث نفسه ، أو الى طبيعة المجتمع المدروس ، أو الى شخصية الانثروبولوجى وطريقته فى التعامل مع أبناء مجتمع الدراسة وعلاقته بهم .

أما بالنسبة لموضوع البحث فقد يكون عسيرا فى بداية تناوله ، أولا تتوافر عنه المادة العلمية المكتوبة أو يستلزم الاقامة الكاملة مدة من الزمن — كما قلنا سابقا — تتراوح ما بين العام الواحد وثلاثة أعوام . وفى هذه الحالة يترك الأنثروبولوجى وطنه وأهله وأسرته ويتفرغ لهذا الموضوع بالدراسة والبحث . وفى سبيل ذلك يعانى من مشكلات الاقامة ، وتقديم نفسه للمجتمع ، وتدعيم الثقة بالأهالى والتعرف على لغتهم والالفاظ المحورية ذات الدلالة الواضحة فى البحث ... الخ .

---

(٢٢) د. على المكاوى ، المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعى ، مرجع سابق ، ص ص ٥ ، و ص ص ١٤ — ٣٥ .

على حين قد تمثل طبيعة المجتمع — موضع البحث الأنثروبولوجي — مشكلة أمام الباحث . ويصدق ذلك على المجتمعات الأفريقية الاستوائية الحارة ذات الظروف المناخية الصعبة التى لم يألفها الباحث ولم يتعود عليها مثلا . كذلك قد تكون ثقافة المجتمع من النوع الذى يستغلق على الفهم السريع ، كما قد تكون اللغة المستخدمة غير مكتوبة ، وبالتالى يصعب تعلمها الا من خلال المعايشة كما فعل مالينوفسكى . وتلك لا يستطيع الباحثون جميعا تحملها كما تحملها دارس التروبرياند . ويمثل انتقال الباحث بين ربوع المجتمع المدروس مشكلة أخرى ، حيث يصعب الانتقال نظرا لانعدام وسائل المواصلات أو لقسوة البيئة ووعورة الطرق ... الخ .

والجانب الثالث للمشكلة يتعلق بالأنثروبولوجى ذاته ومقومات شخصيته ، وطريقة تعامله مع أبناء المجتمع الذى يدرسه . والواقع أن هذا الجانب المشكل يأتى فى النهاية لأن المفترض — والواقع — أن الأنثروبولوجى مؤهل تأهيلا علميا وعمليا على البحوث الميدانية . ولكننا نتناول الجانب من زاوية أن الأنثروبولوجيين يشتركون جميعا فى نوع المعرفة ، بيد أنهم — كغيرهم من الناس — يختلفون فيما بينهم فى أمور تتعلق بنوع التجارب والخبرة والتكوين الشخصى . فشخصية الأنثروبولوجى تؤثر بالضرورة فى عمله ، كما تؤثر شخصية المؤرخ فى عمله سواء بسواء . فالدراسة الأنثروبولوجية ليست وصفا دقيقا وأمينا للحياة الاجتماعية فى مجتمع معين ، وانما هى فى نفس الوقت انعكاس لشخصية صاحبها نفسه . ومن هنا كانت بعض نتائج الدراسة تتوقف على العناصر الذاتية التى يدخلها الباحث فى دراسته ، كالأحكام الخلقية . الا أن هذه المشكلات — التى ترجع الى المقومات الشخصية للباحثين — تميل الى أن تصحح بعضها بعضا . وعلى ذلك فليس ثمة ما يدعو الى الخوف أو القلق على قيمة الدراسات الأنثروبولوجية ، وصدق نتائجها ، على حد تعبير ايفانز بريتشارد نفسه (٢٣) .

(٢٣) ايفانز بريتشارد ، مصدر سالف الذكر ، ص ١٢٨ .

رابعـا : مشكلات تواجه الأنثروبولوجي عند كتابة التقرير :

تبدأ المشكلات التى تواجه الأنثروبولوجى ، عند كتابة تقريره ، منذ اللحظة الأولى التى طفق فيها يدون تقاريره اليومية . وهنا نقف عنـد هذه النقطة للاشـارة الى بعض الملاحظـات البسيطة حـول أسـلوب التدوين ، ووقته المناسب ، ومكانه المفضل . . . الخ . ولا شك فى أن أفضل الظروف لتسجيل المعلومات الميدانية ، هى تسجيلها فى نفس مكان الحادث وأثناء حدوثه (٢٤) . ففى هذه الحالة يتجنب الأنثروبولوجى الاجتمـاعى التحيز لمعلومات على حساب معلومات أخرى ، بمعنى أنه يسجل كل المعلومات التى تدور حول الحادث الذى وقفت عليه حواسه . ومن ناحيـة أخرى ، يتحاشى دور ضعف الذاكرة حينما يدون التفاصيل التى رآها ولاحظهـا ، وبالتالى لا يجهد ذاكرته فى استرجاع التفاصيل بعد فوات الأوان .

الا أنه فى كثير من المـواقف تكون عملية تدوين المعلومات فى أثنـاء ملاحظة الظاهرة ، أمرا غير ممكن ، أو مثارا للشكوك بين مجتمع البحث ، أو باعثا للتصنع فى السلوك وابعاده عن طبيعته التلقائية ، ومن ثم تتشـوه الصورة الطبيعية للظاهرة . وبالاضافة الى ماسبق ، فان قيام الأنثروبولوجى بالملاحظة وتسجيل المعلومات الميدانية فى نفس الوقت يـؤدى غالبا الى عدم دقة الملاحظة ، حيث يحول التدوين دون التركيز والتعمق فى استخدامها وكلما يحاول الباحث تسجيل معلومة ، فانه ينشغل عن مـلاحظة الظاهرة أو الحدث ، ويغفل عن استقراء الملامح والتعبيرات الحركية واللفظية والرموز والاشـارات التى يبديها أعضاء مجتمع الدراسة ، وتكون لها دلالة فى فهم الظاهرة أو الحدث ككل . ولذلك سـاد الاتفـاق على ضرورة تدوين كل المعلومات فى أقرب فرصة متاحة بعد الملاحظة مباشرة ، كما يجب أن يكون التسجيل بصورة يومية على الأقل ، وأن يشمل تقريرا مطولا عن حوادث ومشاهدات اليوم بكامله .

---

(٢٤) د. عاطف وصفى ، مرجع سبقت الاشارة اليه ، ص ١٦٨ .

وهناك موقف وسط يفيد الباحث فى الجمع بين الملاحظة الميدانية للظاهرة او الحدث وبين التدوين ، ويتمثل هذا الموقف فى تسجيل النقاط الهامة ، أو رؤوس الموضوعات ، أو ما يذكر الباحث بها حول الظاهرة لحظة حدوثها ، لا سيما وان هذا التسجيل لن يستغرق دقيقة . كما انه يتم على قصاصة ورق صغيرة يحملها الباحث فى جيبه . وبالتالى فلن تشغله فى طيها أو تجهيزها للكتابة ... الخ ومن جانب آخر يمكن للأنثروبولوجى ان ينتحل اى عذر بعد حدوث الظاهرة مباشرة ليعود سريعا الى مسكنه — أو الى اى مكان يخلص فيه الى نفسه بعيدا عن الافراد — ويسجل تفاصيل الحدث كامله ، وحينما يكتب تقريره النهائى فانه يحللها ويتأملها ويتحاور معها على مستوى النظرية .

ومن جانب آخر ، يجد الأنثروبولوجي لزاما عليه أن يصنف مذكراته اليومية ، حسب فهرس يتكون من الموضوعات الأساسية التى يدرسها . وبالتالى يخصص مكانا واحدا للموضوع الواحد ، وهكذا . وتظهر اهمية التسجيل والتصنيف حينما نعرف أن العمل الميدانى والملاحظات والتعليقات والشروح والتفسيرات التي يكتبها الباحث يوميا ، تتراكم على مدى فترة عامين أو ثلاثة لتصبح آلافا من الأوراق ومئات من الموضوعات الخاصة ، والعناوين الرئيسية والفرعية ... الخ .

أما من ناحية كتابة التقرير النهائى للبحث ، فان الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة لم تعد تعتمد على تفسير ثقافة معينة بالرجوع الى ثقافة أخرى ، كما تجاوزت مرحلة الوصف الخالص للحياة الاجتماعية عند شعب من الشعوب البسيطة . وانما صارت المدرسة الحقلية الحديثة تهدف الى الوصف التحليلى الكامل للنظام الاجتماعى أو للظاهرة الاجتماعية وبشكل يبرز الملامح الهامة فى الحياة الاجتماعية ، مما يتيح فهم هذه الحياة ، والوصول بالتالى الى قضايا عامة تشكل نظريات فى المراحل اللاحقة . وفى ضوء هذه الاتجاهات الأنثروبولوجية الحديثة ، بدأت الملاحظات

والمذكرات التي يدونها الأنثروبولوجي — في دراسته الميدانية — تصاغ بشكل يلقي الضوء على مشكلة تتعلق بأحد مظاهر الثقافة أو أحد النظم التي تشكل البناء الاجتماعي .

وقبل الحديث عن مشكلات كتابة التقرير ، نشير الى أن معظم الأنثروبولوجيين ظلوا يعتبرون أن المذكرات الميدانية والمادة التي يجمعونها من الميدان مصدر خاص للمعلومات بالنسبة لكل باحث فرد ، بمعنى أن المادة الخام التي يجمعها أنثروبولوجي ، لا ينبغي أن يحاول أنثروبولوجي آخر الاستفادة منها . وفي هذا الصدد يمكن أن يمزق الواحد منهم مذكراته الميدانية وملاحظاته الأنثروبولوجية بعد تحليلها وكتابة التقرير النهائي ونشره (٢٥) . على حين نجد فريقا آخر ينظر اليها كمادة خام تفقد قيمتها بمجرد تحليلها .

والواقع أن هذين الاتجاهين خاطئان الى حد كبير ، كما أنهما قطعا لا يساعدان على تراكم التراث الأنثروبولوجي ، والدراسات المونوجرافية على مجتمعات متنوعة . علاوة على أنهما لا يسمحان بتوافر مادة خام يمكن الاستعانة بها مرة أخرى — وعلى أيدي باحثين أنثروبولوجيين آخرين أو الباحث الأصلي صاحبها نفسه — في دراسات حول ظواهر جديدة أو نظم اجتماعية أخرى . وهكذا ينبغي أن تخضع تلك المادة الخام — بعد كتابتها وتحليلها ونشرها — للحفظ في أرشيفات خاصة ، وتصبح بمقتضى هذا الحفظ مادة متاحة أمام جميع الباحثين الذين يدرسون نفس الموضوع أو غيره من الموضوعات ، أو الذين يجرون دراسة على مجتمعات أخرى ويستخدمونها للمقارنة . أضف الى ذلك أن حفظ المادة الأثنوجرافية يمكننا من الوقوف على معدلات التغير الاجتماعي والثقافي الذي طرأ على تلك المجتمعات المدروسة ، كما يساعدنا على التنبؤ بالمسار الذي يتخذه هذا

---

(٢٥) د. نبيل صبحي ، مرجع سابق ، ص ٢٢٣ .

التغير فى المستقبل . ومن هذا وذاك يتضح أن حفظ المادة أمر ينبغى الأخذ به ومراعاته ، حرصا على علم الأنثروبولوجيا ذاته ، واثراء له .

أما عن المشكلات التى تواجه الأنثروبولوجى الاجتماعى عندما يريد كتابة تقرير عن نتائج دراسته الحقلية ، فهى مشكلات عديدة ومتنوعة ، فالمدرسة الحقلية الحديثة تنادى باستيعاب كل نواحى ومظاهر الحياة الاجتماعية فى مجتمع البحث . فهل يعنى ذلك ضرورة تقرير كامل يستوفى كل الملاحظات التى جمعها الباحث عن تلك المظاهر المختلفة ؟ يجيب ايفانز بريتشارد على هذا السؤال بقوله بأن المؤرخ لا تعترضه نفس المشكلة أو الصعوبة ، لأنه يستطيع ان يتخير من المعلومات المتاحة امامه ما يتعلق مباشرة بموضوع بحثه ويغفل ما عداها دون أن يخشى عليها من الضياع والاندثار . أما الانثروبولوجى ، فان ما يغفل عن تسجيله قد يتعرض للضياع ، وكثيرا ما يضيع الى الابد (٢٦) . كما انه لا يؤول النصوص والمصادر الموجودة بالفعل ، ويقابل بعضها ببعض ، بل انه يخلق هذه المصادر ذاتها خلقا .

وفى هذا الصدد يرى كثير من العلماء أن ينشر الباحث الأنثروبولوجى كل الوقائع والحقائق التى جمعها ، سواء تتفق مع اهدافه واغراضه من البحث ، أو لا تتلاءم معها . وواجبه اذن هو التسجيل والتدوين دون الحكم على الواقائع والمعلومات وتقييمها لما فى ذلك من تسرع فى الحكم على ميول الأجيال المقبلة ونظرتها للأمور . ويحاول العلماء الآن التغلب على هذه الصعوبة بنشر عدد من الدراسات عن بعض الظواهر الهامة ، يستخدم فيها الأنثروبولوجى كل الحقائق المتصلة بها لتوضيحها . أما بقية المعلومات المدونة والملاحظات فانه ينشرها فى المجلات العلمية ، أو يصورها على أفلام .

---

(٢٦) ايفانز بريتشارد ، مصدر سلف ذكره ، ص ١٣٢ .

خامسا : نماذج من الدراسات الانثروبولوجية الاجتماعية الميدانية :

نشير فى هذه الفقرة الى دراسة حديثة فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، وهى دراسة الدكتور عبد الله غانم عن هجرة الأيدى العاملة (٢٧) . التى نال بها درجة الماجستير . وقد اجريت هذه الدراسة على مجتمع الحمالين الذين يتركزون فى حى القبارى ، الا أن كثرة هجرة العمال للعمل فى مجالات الشحن والتفريغ ونشاة القطاع العام ، عملت على زيادة عددهم ، والتجمع فى أحياء أخرى مثل الورديان واللبان وغيرها بالأسكندرية .

وتحدد الدراسة خصائص مجتمع الحمالين فيما يلى (٢٨) :

١ — انه مجتمع يضم عمالا يعملون فى شحن وتفريغ البواخر التى ترد الى ميناء الاسكندرية وان هذه العمليات لها طابعها الخاص وظروفها الخاصة . ومن ثم تترك اثرا كبيرا فى حياتهم .

٢ — انهم يعيشون فى المدينة فى أحياء محددة يتجمع فيها أبناء كل قرية على حدة ، منفصلين عن باقى الحمالين الذين ينتمون الى قرى اخرى .

٣ — انهم كانوا جميعا مزارعين بقراهم قبل هجرتهم الى المدينة ، كما ان عددا منهم لازال يحتفظ بارض زراعية فى القرية ، ولازال ايضا عدد كبير منهم يتردد على قريته ويحتفظ بعلاقات عديدة وعميقة معها .

٤ — مجتمع مهاجر يتألف من مجموعة من المهاجرين من عدة قرى من الوجه القبلى ، يبلغ عدد أفراده فى المتوسط ٣٦٠٠ ينتمون جميعا الى محافظتى سوهاج وأسيوط ، وينتمون الى قرى معينة بالتحديد . وكانت هجراتهم فردية طواعية حيث اقام أبناء كل قرية مع بعضهم فى مناطق محددة بأحياء محددة كالورديان والقبارى وكرموز وكوم الشقافة واللبان .

---

(٢٧) د. عبد الله عبد الغنى غانم ، هجرة الايدى العاملة ، مرجع سابق .

(٢٨) د. عبد الله غانم ، المرجع السابق ، ص و — ز .

مشـــكلة الدراســـة :

تحاول الدراسة أن تجيب على تساؤل مطروح وخلاصته :

ماذا يحدث عندما تقوم جماعة من المهاجرين من الريف — (بما له من بنـــاء اجتماعى تقليدى وثقافة معينة) هجرة طواعية من اجل العمـــل بالتجمع فى المدينـــة ، وامتهان مهنة معينة — لبنـــائهم الاجتماعى التقليدى فى المـــوطن الأصـــلى من ناحية ، وكذا فى المـــوطن الجـــديد من ناحيـــة اخـــرى ؟ واذا حدثت تغيرات فما هو تفسيرها ؟

وبالاضـــافة الى هذا التساؤل المحورى ، تحاول الدراسة ان تجيب على عدة تساؤلات اخرى تتمثل فى :

١ — اختبار الفرض القائل بارتباط الهجرة من مجتمع القرية او القبيلة ، الى مجتمع المـــدينة بعوامل اقتصـــادية .

١ — اختبار فرض آخر مؤداه أن درجة الانتماء للمجتمع الأصـــلى ترتبط ارتباطا عكسيا بدرجة الانتماء للوطن الجديد ، مع محاولة توضيح المعيـــار الذى نقترحه لقياس درجة الانتماء ، وهو الترددات والتزاور بين المهـــاجر وموطنه الأصلى من ناحية ، ونظرة المهـــاجر للهجرة وهل هى دائمة ام مؤقتة ، والمـــدة التى انقضت على هجرته الى المـــدينة ، ثم تبادل المعونات مع المـــوطن الأصلى ومدى استمرار البنـــاء التقليدى فى المجتمع الجديد بالمدينة ، أو مدى تعرضـــه للتغير ، ومـــدى تعمق القيم التقليدية فى المهـــاجر . . . الخ من ناحية اخرى .

المنهج والأدوات :

اتبعت هذه الدراسة الطريقة الأنثروبولوجية فى التعرف على البنـــاء الاجتماعى للحمالين، وفى محاولة لتتبع ظاهرة الهجرة ذاتها وأثرها . وقد ترجمت الدراسة المنهج والأدوات المستخدمة على النحو التالى :

- دراسة البناء الاجتماعى للحمالين (المستوطن الجديد) باعتبارهم مجموعة من مهاجرى الريف . ثم دراسة ما طرأ عليه من تغيرات ، ثم دراسة الاختلافات بين نمط الحياة المميز للحمالين ، وبقية سكان المدينة ، مع ارجاع هذه الاختلافات الى اسبابها .
- الاعتماد على الملاحظة المشاركة — قوام الطرق المستخدمة فى الأنثروبولوجيا عموما — فى التعرف عن قرب على البناء الاجتماعى للمجتمع وملامحه العامة .
- الاستناد على المرشدين (الاخباريين) فى محاولة التأكد من فهم الظواهر التى لا يساعد مظهرها على فهمها بسهولة .
- استخدام اداة الاستبيان الكمية للتعرف على الوجه الآخر للحقائق الكيفية . وبالتالى قام الباحث بنفسه بملء الاستبيان وتطبيقه على ٦٪ من حجم المجتمع البالغ تعداده الاجمالى ٣٦٠٠ حمالا ، وبالتالى كانت مفردات العينة « ٢٠٠ » حالة تتنوع ما بين الحمالين الدائمين والحمالين الموسميين . وكانت العينة عشوائية طبقية ، روعى فى الاختيار نوعية ارتباط الحمال بالعمل من حيث كونه دائما أو مؤقتا ، وحجم كل قرية من القرى التى ينتمى اليها الحمالون بالمقارنة بحجم باقى القرى ، وذلك من حيث عدد مهاجريها من الحمالين ، وكذا وضعها فى سلم القمة فى ضوء علاقتها بمجتمع الحمالين ككل .

اهم الموضوعات التى ركزت عليها الدراسة :

تناولت هذه الدراسة الأنثروبولوجية الاجتماعية لمجتمع الحمالين البناء الاجتماعى العام لهذا المجتمع . وبالتالى فقد خصصت الفصل الثانى لمعالجة النظام الاقتصادى فأشارت الى النشاط الاقتصادى للحمالين فى مدينة الأسكندرية وتفصيل عمليات الشحن والتفريغ ، والتعرض لمجالات الدخل ومصدره ، والانفاق فى مجتمع الحمالين ، كما ابرزت نواحى التعاون الاقتصادى فى هذا المجتمع ، واختتمت هذا الفصل بالقاء الضوء على تقسيم العمل والتخصص .

على حين تناول الفصل الثالث النظام القرابى والانتماء حيث ركز عى دور النظام القرابى فى الانتماء المكانى فى مجتمع الحمالين ، وأشار بالتفصيل الى الحياة العائلية (النظام الأسرى) والزواج (نظام الزواج) . أما الفصل الرابع فقد خصصه الدكتور عبد الله غانم لدراسة النظام السياسى والضبط الاجتماعى . ومن خلاله حاول التعرف على بناء القوة power Structure فى مجتمع الحمالين ، ثم ألقى الضوء على علاقة الحمالين بالسلطة المحلية الادارية فى المدينة .

ثم اختتمت الدراسة الأنثروبولوجية بفصل عن بعض العادات والقيم الخلقية بين مجتمع الحمالين بمدينة الاسكندرية ، وطبيعة النظرة السائدة لمجتمع المدينة . ومن بين العادات التى ركزت عليها الدراسة عادات تسمية الأبناء بأسماء الاقارب وعادة الجلوس على المقاهى لقضاء وقت الفراغ ، وعادة اقامة الليالى للقرآن الكريم والذكر ... الخ (٢٩) .

* * *

(٢٩) د. عبد الله غانم ، المصدر السابق ، ص ٤٠٣ .

الفصل الرابع عشر
الأنثروبولوجيا التطبيقية

الفصل الرابع عشر

الأنثروبولوجيا التطبيقية

مقدمة :

لقد استفاد الكثيرون — على مدار تاريخ علم الأنثروبولوجيا — من تطبيقات هذا العلم . ففى الوقت الذى كان التركيز فيه على المجتمعات البدائية استغل المستعمرون معارفه فى توطيد حكمهم ، وعندما تطرق لدراسة المجتمعات الريفية والتقليدية استعان رجال وهيئات التنمية به فى تنفيذ مشروعاتهم ، وتحقيق التغير الاجتماعى ، وأخيرا حينما امتد نطاقه ، اتجه صوب دراسة المجتمعات الحديثة والصناعية ، تدرسها ابتداء من علاقة الادارة بالعمال فى المصانع ، وحتى وصل الى دراسة حالات الامتزاج والصراع بين الاقليات **Miniorities** والسلالات **Races** فى تلك المجتمعات .

والأنثروبولوجيا التطبيقية **Applied** هى التطبيق العملى للنظريات والنتائج الأنثروبولوجية الثقافية والاجتماعية فى الادارة والتعليم والخدمة العسكرية والخدمة فى المستعمرات والتخطيط والتنظيم الصناعى والتجارى . وقد قدم برنتون **D. G. Brinton** هذا المصطلح سنة ١٨٩٥ . وهو يعرف أهداف الأنثروبولوجيا التطبيقية بأنها (تحديد معايير الحضارة ، وما قدمته العناصر الفردية والاجتماعية من مساهمة لها فى الماضى ، وكيفية استمرار وتقوية هذه الاسهامات ، وما هى القوى الجديدة — أن وجدت — التى يمكن أن تستخدم للتعجيل بالتقدم) (١) .

الا أن الأنثروبولوجيا التطبيقية فى شكلها الحالى ليست الا حركة مستحدثة لا تربطها صلة بتعريف برينتون مباشرة ، ذلك لأنها ظهرت فى بريطانيا من واقع الاهتمام بأمور القبائل البدائية الموجودة داخل حدود

---

(١) تايوس الاثنولوجيا والفولكلور ، مرجع سابق ، ص ٥٤ .

امبراطوريتها . ونفس الشيء فى الولايات المتحدة ، شكلت العلاقات المتبادلة بين الحكام والأقليات المختلفة — ولا سيما الهنود الحمر — خطراً من نوع آخر . وعلى هذا الاهتمام البريطانى ، أنشىء المعهد الافريقى الدولى سنة ١٩٢٦ ، وبالمثل انشئت فى الولايات المتحدة جميعة الأنثروبولوجيا التطبيقية سنة ١٩٤١ ، متخذة لنفسها هذه الأهداف :

(أ) تدعيم البحث العلمى عن الأسس التى تتحكم فى علاقات الكائنات البشرية ببعضها .

(ب) تشجيع تطبيق هذه الأسس على نطاق واسع فى حل المشاكل العملية .

ان علم الفلك من العلوم العريقة والمتقدمة ذات الثراء العلمى فى المناهج والتصميمات والنظريات ، ولذلك استعين بهذه المعارف فى تحسين الملاحة . وكذلك الحال فى علوم الطب والهندسة وغيرها ، تقاس مدى تقدمها بالنتائج التطبيقية التى تحققها . ولا نغالى اذا قلنا بأن الأنثروبولوجيا هى الأخرى — بعد أن عمها الثراء العلمى ، وسادها التشعب وكثرة المجالات — اصبحت أهلا للتطبيق . وتطلق كلمة تطبيقى — على العلم اذا استعنا بمبادئه فى حل مشكلة معينة ، أو فى معالجة شىء ما . وحينما تكون الأنثروبولوجيا الاجتماعية هى العلم المقصود بالذات ، اذن فمجال التطبيق هو المجتمع (٢) .

والآن يحق أن نتساءل عن **العوامل التى ادت الى ظهور الأنثروبولوجيا التطبيقية** . ويمكن القول — ازاء التساؤل — بأن **ثراء العلم الأنثروبولوجى** واحد من تلك العوامل . **وثانيها** أن القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين كان عصر الاستعمار ، ولذلك انصب أول تطبيق لعلم الانسان على هذه المستعمرات كمساعدة المبشرين وموظفى الحكومات

Lucy Mair, op. cit., p 255.

الاستعمارية على اداء اعمالهم وتهيئة الظروف لرجال الاعمال واصحاب رؤوس الأموال من المستعمرين من ناحية ، ومن ناحية اخرى العمل على تكيف هذه المجتمعات التى تخضع للمستعمر على وضعها ، حيث تردد فى المحافل الدولية كالأمم المتحدة إن هذه المجتمعات عاجزة عن تنمية نفسها ، وبالتالى فهى تشكل مطلبا للحضارة متدنيا .

ويعتبر الاتصال الثقافى Cultural Contact بين المجتمعات المتخلفة والمجتمعات الغربية ثالث العوامل ، اذ ترتب عليه ظهور مجموعة من المشاكل الملحة التى تحتاج الى شرح وتفسير (٣) . ومن هذه المشاكل تنظيم الأسرة (ضبط السكان سواء بالحد أو الزيادة) ، وتفسير علاقات الجنس والزواج ، ومصطلحات القرابة Kinship Terms ، والحمل ورعاية الطفل Child Care ، ومشكلات استغلال الأرض ، وحقوق الرؤساء والأفراد والجماعات والمجتمع ككل ، والطريقة التى بمقتضاها يؤثر بناء القرابة Kinship Structure وقواعد الميراث فى انتاجية الأرض وكذلك المشكلات التى تنجم عن الاشتغال بالصناعة ، والعمالة الوافدة من القرى النائية (٤) . وما تركته وراءها من نساء وأطفال ، والترابطات الجديدة التى شكلها العمال فى مراكز العمل الجديدة ، والأنماط المعتدة لتوزيع الأجور ، وحصول عمال الصناعة على حاجاتهم من منتجات الريف ، والاستثمار والاقتراض والنظام الرأسمالى ومشكلات صفقات الزواج كالمهر Bride - price واستخدام الماشية فى اغراض غير اقتصادية ، والشعوذة Witchcraft واخيرا تحقيق الانسجام بين مدارس التعليم وبين حاجات البيئة .

وكان الأنثروبولوجيون هم اولى العلماء بتفسير وشرح هذه المشكلات ، ولاسيما وهم فى حالة تركيزهم على المجتمعات البدائية ، ولذلك اضطلعوا

---

(٣) د. على المكاوى ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص ٢٣٨ .

(٤) روبرت ريدفيلد ، المجتمع القروى وثقافته ، ترجمة د. فاروق العادلى ، الهيئة المصرية للكتاب ، الاسكندرية ، سنة ١٩٧٣ ، ص ص ١٤ — ١٥ .

بهذا الدور وقدموا الكثير . غير أن المستعمرين استغلوا هذه المعلومات فى توطيد حكمهم فى هذه المجتمعات ، ومن ثم حرصوا على أن يأخذ موظفوهم ومعاونوهم دورات تدريبية فى الانثروبولوجيا ، هذا فى الوقت الذى أسس مالينوفسكى المدرسة الوظيفية **Functionalism** وأبدى استعداده لتفسير اية ظاهرة تبدو غريبة فى نظر الغربيين .

ولقد اخذ المستعمرون بتوصيات مالينوفسكى وتلاميذه وعرفوا الكثير عن البناء الاجتماعى لتلك المجتمعات البسيطة ، مما كان له دور كبير فى تدعيم سلطاتهم عليها . ومن ابرز مانادت به مدرسة مالينوفسكى هو عدم المساس بأية معتقدات محلية او التهكم من التقاليد الوطنية (٥) ، ومن امثلة ذلك (المقعد الذهبى) **The Golden Stool** لدى جماعة الأشانتى **Ashanti** حيث يعتقدون انه هبط من السماء ، على الرغم من انه من المقاعد العادية ، غير انه مطلى بالذهب . وقد ثار الحاكم الاستعمارى لان الأشانتى لم تتح له الجلوس على المقعد ، كممثل للملكة فيكتوريا . ولذلك ساهم فى اخفائه . وهاج الناس وثاروا . وبعد عشرين عاما كان احد العمال يحفر مصادفة فوجد بقايا المقعد فذهب ليبيعها فعلم رؤساء القبيلة بالحادث وتذمروا وطالبوا باعدام الجناة . وقد أوضح أدوين سميث **E. Smith** — الذى روى ذلك فى كتابه حاملا نفس الاسم — أن الحاكم عاد فسلم الجناة للرؤساء ليحاكموا بأنفسهم ، واخيرا خففوا الحكم من الاعدام الى العقاب العادى . وهنا ايقن هذا الحاكم ان المقعد يمثل القبيلة ، ويرمز لها وأعلن باظهاره وعدم مسه بأى سوء بعد .

كما حظيت المدن الصناعية بتطبيق معارف الأنثروبولوجيا ، ومنها مدينة يانكى **Yankee city** التى درسها لويد ورنر **L. Warner**

---

(٥) **Lucy Mair, op - cit., pp. 525 - 256.**

وزملاؤه عن المـــدينة الحقيقية . وتعنى كلمة يانكى **Yankee** ابناء البلد **Natives** . وقد استخـــدم البـــاحثون المــــلاحظة بالمشاركة والمقابلة وســـــلاســـــل النسب والسير والصحافة والصور الفوتوغرافية ، وقدموا تحليلا وافيا للطبقـــــات الاجتمـــاعية **Social Classes** التى قسموها الى ســـت هى :

النسبة ٪	الطبقـــــة الاجتمــــاعية	
١ر٤٤	**Upper Upper Class**	الطبقة العليا — العليا
١ر٥٦	**Lower Upper Class**	الطبقة العليا — السفلى
١٠ر٢٢	**Upper Middle Class**	الطبقة الوسطى العليا
٢٨ر١٢	**Lower Middle Class**	الطبقة الوسطى السفلى
٣٢ر٦٠	**Upper Lower Class**	الطبقة الدنيا العليا
٢٥ر٢٢	**Lower Lower Class**	الطبقة الدنيا السفلى
٠ر٨٤	**UnknoWn**	غير معــــلوم

ثم قدم وصفا تفصيليا اجتماعيا لكل طبقة اجتماعية . كما قدم لنـــا وورنر وزملاؤه أيضــــا دراسة اخرى مشـــابهة عن جونزفيل **Jonesville** ولم تقتصر دراســـــات الانثروبولوجيـــا وتطبيقـــاتها على المدن الصناعية ؛ بل تعدتهـــا الى مدن اخـــرى (٦) .

ولكن هذا لا يعنى أن عالم الانثروبولوجيـــا مشترك فى استغلال هذه المجتمعـــات مع المستعمرين . انه يقـــدم معلوماته فحسب للحـــكام يتصرفون فيهـــا كيفما شـــاءوا . وقد يتذرع بعضهم بأنهم سيستغلونها فى انهـــاض

---

٦) **R. Bernard. The Human Way, New York , Macmillam Publishers. 1975. P. 348.**

وتطوير هذه المجتمعات حتى يحصلوا عليها . كما أن ذلك لا يع وقوف العلماء مكتوفي الأيدي ، وانما هم ينتقدون ، وقد انتقد مالينوفسكى السياسة التي تنتجها حكومة جنوب أفريقيا في عصره ، بنفس الطريقة التى ينتقد بها الكتاب الليبراليون عصرهم ، ولم يكن يعتمد على معارفه الخاصة كانثروبولوجي .

وفى العقد الثالث من هذا القرن أحس الانثروبولوجيون بأنهم لا يساوون الملح ، وستظل قيمتهم فى الهبوط ما لم يقدموا حلولا للمشكلات الملحة (٧) . ومن ثم اتجهت الانثروبولوجيا التطبيقية نحو تنمية هـ المجتمعات البدائية وغيرها من المجتمعات المتخلفة بعد دراسة و للعادات Customs والتقاليد Tarditions لمعرفة ما يعمل منها على نجاح المشروعات ، وما يؤدى منها الى احباطها . ولذلك تركز دور الانثروبولوجي فى تفسير تقبل المواطنين للتحسينات الواضحة فى الوسائل الفنية لأول وهلة كما يتوقع الفنيون ، وكذلك تعليل تباطؤهم فى الأخذ بالأدلة التى لا يعتريها الباطل .

وبصفة عامة ، يمكن أن نجمل تطبيقات الانثروبولوجيا — فى هذه الفترة — فى ثلاثة مجالات هى :

(أ) مشروعات تنمية المجتمعات المحلية **Community Development projects.**

(ب) حملات الصحة العامة **Public Health Campaigns.**

(جـ) مشروعات التوطين **Settlement projects**

هذا بالاضافة الى مجموعة اخرى من المجالات سيحين ذكرها .

(أ) **مشروعات تنمية المجتمعات المحلية** من المجالات التى أظهرت الانثروبولوجيا فيها جدواها الكبرى ، حيث يقف علماء الانثروبولوجيا

---

(٧) د. على المكاوى ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص ٢٤١ .

الميدانيون على رأس فريق الفنيين الذين ينمون تلك المجتمعات ، ثم أن دراساتهم لهـا تعـد بمثابة قطب الرحى التى تدور حولها ما يمكن أن تقدمه المنظمـات الدولية من معونة فنية . فقد تكون الخطة سليمة تماما من الناحية التكنولوجية البحتة ، ولكن أسـاليب تنفيذها تتعـارض مع قيم المجتمع موضوع التنمية فتفشل الخطة . ويعد سبايسر **E. H. Spicer** من أبرز من كتب فى هذا الصـدد ، فاهتم بالوقوف على معوقات التقدم التكنولوجى فى الجماعات المتخلفة . وتفيد المعرفة الأنثروبولوجية أيضـا فى تطـوير الوسـائل التكنولوجية ، ووسـائل الانتاج والاستغلال ، فى حدود الأنماط الثقافية المـألوفة ، كما تسهل على أصحـاب رؤوس الأموال والمستثمرين الحصول على أصلح العمال ملاءمة للنواحى الانتاجية بتكلفة أقل وبأدنى أجر ، وأيضـا تسـويق السـلع المصنعة .

كما تساهم الأنثروبولوجيا فى تقييم المشروعات التنموية وابراز عوامل النجـاح وعوائقه . ومن هذه الدراسات تقييم الدكتور محى الدين صابر لعملية التغير الحضـارى وتنمية المجتمع (٨) ، وريموند فيرث **R. Firth** عن تيكوبيا **Tikopia** ، وتقييم الدكتور أحمد أبوزيد لمشروع الزاندى بالسودان بعنوان « التنمية الاقتصـادية والتغير الإجتمـاعى فى أفريقيا : مثـال من السـودان » .

ومن بين المعوقات فى جنوب افريقيا ظـاهرة المهر **Bride - price** التى اقترح أحد الغربيين الغـاءها ، وأطـلق عليهـا خطيئة شراء الزوجات بيد ان محـاولته باءت بالفشـل لأن هذه الظـاهرة ترتبط بقيم المـراكز الاجتماعية . فالزوجة ذات المهـر المرتفع تحتل منزلة اجتماعية مرتفعة ، هى وأبنـاؤها فيما بعد ، على أسـاس المـركز الاجتمـاعى المـوروث

---

(٨) د. محيى الدين صابر ، التغير الحضارى وتنمية المجتمع ، مركز تنمية المجتمع فى العالم العربى ، سرس الليـان ، ١٩٦٢ .

Ascaibed Status الذى يختلف عن المركز الاجتماعى المكتسب Achieved Status .

(ب) ولقد ادلى علماء الانسان بدلوهم فى مجال الصحة العامة Public Health فشرحوا وفسروا الأفكار المتعلقة بالصحة وبالمرض. ولذا اعتمدت عليهم الهيئات الدولية التى تتولى تنفيذ المشروعات الصحية . وترجع اهمية الاعتماد على الأنثروبولوجيا فى مجال الصحة العامة الى اعتبارات منها : —

* أن الاطار الاجتماعى والثقافى (٩) — باعتباره انعكاسا صادقا لمعرفة كيف يعيش الناس ، وماذا يأكلون ، ويعتقدون ، وقيمهم ومستواهم التكنولوجى — يعد مؤشرا هاما فى معرفة حال المجتمع واعضائه من الناحية الصحية .

* أن الصحة العامة هى نشاط اجتماعى وثقافى ، فهى تؤدى الى انجاز الأفراد لأدوارهم الاجتماعية داخل البناء الاجتماعى (١٠) .

ولذلك يقوم علماء الأنثروبولوجيا برسم وتخطيط برامج الصحة العامة . ويحتوى هذا التخطيط على دراسة شاملة لمصادر الثروة القائمة ، وأحوال الناس الصحية ، ومستوى التعليم ، وأنماط العائلة . ومن الممكن أن تكون الامكانيات الصحية موجودة ، غير أن النسق القيمى يحول دون استغلالها . ففى جزيرة جاوة Jawa تعتقد المرأة أن السمك المجفف ضار بصحة الأطفال ، على الرغم من أنه البروتين الحيوانى الرخيص الوحيد الذى يمكن الحصول عليه . وكذا المستشفيات لا تقدمه للمرضى معتقدين نفس الاعتقاد . وغير السمك فى جاوة ، هناك البيض فى أفريقيا ، حيث يعتبر من الأطعمة المحرمة Food Taboo على النساء

---

(٩) د. على المكاوى ، الجوانب الاجتماعية والثقافية للخدمة الصحية ، مرجع سابق ، الفصلان الرابع والخامس .

(١٠) د. على المكاوى ، الانثروبولوجيا الطبية ، مرجع سابق ، تحت الطبع .

بالرغم من حاجتهن الماسة اليه . وقد تضطر المرأة — تحت الاغراء — أن تتناول الأطعمة المحرمة وتنظر الى هذا الفعل على أنه نصر وبعد عودتها الى بيتها لا تذق له طعما بعد ذلك ، وتعود الى ما كانت عليه . ومن هنا وقف علماء التغذية فى أفريقيا ضد نظام المحرمات Taboo . وقد تحتم قواعد الصحة العامة تسخين الماء Biol water كما يبين البحث فى بيرو Beru - غير أن الامكانيات المحدودة لهذا المجتمع تحول دون ذلك . ومن ثم تفشل حملات الصحة (١١) . ولاشك أن توصيات الأنثروبولوجيين ذات أثر بالغ فى نجاح مثل هذه الحملات والمشروعات وفى التنبيه على المعوقات التى لا يعرفها غيرهم .

(جـ) **وفى مجال التوطين والاستقرار** تنبه الأنثروبولوجيا التطبيقية الى المشكلات التى تنبثق عن اغفال الأرضية الثقافية التى قد تساعد أو تعوق تنفيذ الخطط ، أو تنبىء باحتمالات النجاح أو الفشل . فيدرس العلماء أنماط الثقافة **Patterns of culture** وتجسيداتها فى سلوك اعضاء المجتمع . ومن ثم يقفون على الموضوع الأساسى **Theme** لثقافة المواطنين موضوع التوطين . وتراعى أن تكون المستوطنات على درجة تسمح بتقبل المستوطن لها . ومن الأمثلة فى هذا الصدد النوبة قبل وبعد التهجير (١٢) . حيث أن نزوح هؤلاء أو هجراتهم يحتم بالضرورة تطوير العلاقات الاجتماعية فى المراكز الجديدة ، أو خلق مجتمع محلى جديد من الوجهة المثالية . وليس الحال فى مصر فحسب بل أجريت مثل تلك الدراسة فى مشروعات التوطين فى ايطاليا وجنوب أوربا .

بالاضافة الى هذه الميادين الرئيسية للانثروبولوجيا التطبيقية ، **هناك مجالات أخرى فرعية** ، فلقد أفادت كثيرا فى مجال حديث وهو

---

(١١) **Lucy Mair, op. cit., pp. 264 - 265.**

(١٢) د. عاطف وصفى ، الانثروبولوجيا الثقافية ، مرجع سابق ، ص ص ٢٠٩ — ٢٣٥ .

الأنثروبولوجيا الطبية . اذ تبين أن كثيرا من العادات والعرف لها تأثيرها فى انتشار بعض الأمراض وعلاجها بالطريقة العلمية ، وكذلك طرق التغذية وطرق تربية الأولاد . حيث أجرى الأنثروبولوجيون أبحاثهم على أطفال المستعمرات لمعرفة استعداداتهم وأذواقهم وعاداتهم ، ومراحل نموهم العقلى .

ولقد حظى ميدان اللغات بمزيد اهتمام الأنثروبولوجيين ، حيث ركزوا على نشأة اللغة فى الجماعات الانسانية عامة ، ثم تتبع تفرعها الى لهجات وانتشارها ، والصراع الذى يدور بين اللغات . ولذلك تخصص جمهور غفير منهم فى لغة الجماعات المنعزلة والبدائية ، واللهجات المحلية والاقليمية Dialeology والمأثورات الشعبية Folklore . وقد أتاحت معرفة اللغات المحلية والبدائية معرفة كثير من اللغات المحلية التى لم تكن معروفة نظرا لأنها لا تتصل بالأصول اللغوية الكبرى فى الجماعات التاريخية أو المجتمعات الحديثة .

وساعد ذلك على معرفة اللغة الأنامية — لغة أهالى أنام فى الهند الصينية — واللغة الدرافيدية التى كان شعب الهند الأصلى يتكلم بها . ومن أشهر العلماء فى هذا الصدد وندت وانطون توماس A. Tomas . ويبدو تطبيق هذا الفرع فى محاولة السودان تحقيق وحدة اثنولوجية ثقافية بين قبائل الجنوب (١٣) ، ولذلك استعانت بفقهاء اللغة وبالدراسات المتخصصة . كما يبدو تطبيق الأنثروبولوجيا واضحا فى برامج تعليم القراءة والكتابة ، وتحسين عيوب النطق ، وادخال التعديلات المقصودة .

وفى المجال العسكرى تجلى دور الأنثروبولوجيا التطبيقية منذ الحرب العالمية الأولى ١٤ — ١٩١٨ حيث أجريت اختبارات ذكاء

---

(١٣) د. عاطف وصفى ، الانثروبولوجيا الثقافية ، مرجع سابق الذكر ، ص ١٣٦ — ١٤٥ .

على المطلوبين للتجنيد اثناء هذه الحرب . كما تستغل المعرفة الأنثروبولوجية فى تدريب الوحدات الخاصة التى تقوم بمهام عسكرية كبرى (١٤) . فتلقن عادات وتقاليد وأنماط ثقافة المجتمع الذى سيمارسون نشاطهم فيه . ويمكنهم بذلك ايضا ان يجتذبوا الوطنيين أنفسهم فى صفوفهم ويستلبوا منهم اسرارا عسكرية ويوصلوها الى اعدائهم ، وكذلك استمالتهم للتجسس . وتفيد ايضا فى التفرقة بين القتلى عن طريق السمات الفيزيقية . ولقد برز هذا الفن التطبيقى فى بداية عهد الاستعمار ، اذ كانت قواته تغزو المجتمعات البدائية ، وتحمل معها التوتم **Totem** الذى تدين به القبيلة او المجتمع المغزو ، فلا يقاوم ، ويخر ساجدا للتوتم ، ومن ثم يسهل الغزو .

ولا ننسى دور الأنثروبولوجيا التطبيقية فى مجال الصناعة ، اذ ساهمت فى اكتشاف وفهم وعلاج أسباب الاحتكاك بين الادارة والعمال ، والحصول على اكفأ العمال بأقل الأجور ، وزيادة الانتاج وتسويق السلع وادخال التحسينات التكنولوجية فى وسائل الانتاج . وكذلك اكتشاف التنظيم غير الرسمى **Informal** فى المصنع ، ووسائل الضبط الاجتماعى غير الرسمية ، وافضل الأوقات للعمل ، واحسن الظروف لزيادة الانتاج ، وهى وجود الجماعة الاجتماعية المتكيفة والمتفاعلة معا ، وادخال نظام فترات الراحة والترويح ، وكشف أسباب الاضطرابات . ومن اشهر الدراسات التى اجريت على مدن غير صناعية ، نجد دراسة **Bent Bralin** عن مدينة شاندجارة **Chandigarh** فى شمال غرب الهند (١٥) . وعنوانها « لقد خطط الخبراء مدينة شاندجاره ،

---

(١٤) **R. Bealss, H. Haijer, Introduction to Anthropology New Yerk. 1956.**

(١٥) **B. Bralin. Chandigarh was Planned by experts but somehting has Come wrong, in R. Bernard The Human Way, New York, Maemeillan Publishes, 1975. p. 350.**

ولكن وقع خطـــأ ما فى التخطيط » ..وتدور هذه الدراسة حول هذه المدينة التى لم تحظ بأى تطوير على مدار القرون ، على عكس ســـائر المـدن الهندية ، وبعـد انفصـال الهند وفقدان بنجـاب Punjab القديمة عاصمة لاهور فى باكستان سنة ١٩٤٧ . لذا قررت حكومة الهند أن تبنى مدينة جديدة من أجل بنجـاب Punjab ، أو بقول نهرو أن تكون مدينة متحررة من أغلال تقـاليد الماضى . وبالفعل خطط المـدينة مهندسـون معمـاريون من فرنسـا مثل Le Cabusier والامريكى ماير A. Mayer ونائبه Nowciki . وجهزت المسـاكن بكل الوسـائل الحديثة كالمـاء السـاخن والبـارد والكهرباء ، وحجرات النوم والأفنية والشرفات المريحـة ، حتى صـار الأهـالى سـعداء ، غير انهم تحسروا على انهم فى شدنجارة الآن لا يشـاركون الآخرين افراحهم ولا اتراحهم مثلمـا كان الحـال فى المـدن القـديمة . ولكن الخطـأ الكبير — والذى يرجع الى التبـاين الثقـافى — يرجع الى تقسيم المكان ومسـاحات الحجرات ، ولذلك مثلا يحتاج اثنان من الهنود الى قدم ونصف بعدا عن بعضهما يتحـدثان ويتصـافحان فى حين فى امريكا يتطلب الأمر قدمين واكثر كما لا يتصافحان ابدا . والذى حدث ايضـا هو أن السكان استخـدموا حجرات المعيشة فى النـوم ووضعوا الأسرة فيها ، وعلقوا المـلابس على مسامير فى الحوائط . وعموما يرجع ذلك الى عدم وضع عادات وتقاليد الناس فى الاعتبـار لدى تصميم الخطة وبعبارة أخـرى تجاهل ثقافتهم وتجاهل دور الأنثروبولوجيا فى حل مشـكلة كهذه قبـل أن تقع .

كذلك استخدمت المعـارف التكنولوجية فى فهم مشـكلة السـكان ووضع تقرير شـامل عن ثقافة المجتمع المقصـود . وكان ذلك فى جـزر ياب Yab فى الباسفيك Pacific . فعندما هبطت القوات الامريكية أرض الجزيرة سنة ١٩٤٥ صـار عدد سـكانها ٢٥٠٠ نسمة بعد ان كان [illegible] فأصبح العمل الذى يحتاج عشرة افراد لا يتوفر له سوى [illegible] وعبر أهل الجزيرة عن رغبتهم بضرورة التحرك لعمـل [illegible] السـكان . وتشكل فريق البحث مباشرة من أربعة ، ورأوا أن

السبب يرجع الى عوامل ثقـافية حيث تبين فى البداية ان نسبة تقدر ٣٤٪ من بين نســاء يلب ممن تتراوح أعمارهن بين ٢٦ ــ ٥٠ سنة لم يبقين على طفل واحـد حيـا .

وفى هذا الصـدد يعرض دافيد شنيدر D. Scheinder البحث المعنون « بالاجهـاض وتناقص السـكان فى جزيرة بالباسفيك » (١٦) . واتضح تشخيص المشكلة فى ان القيم الثقافية والاجتماعية وطريقة الحياة فى مجتمع يلب ، كل ذلك مسئول عن المشكلة . حيث تبعد المـراة الحامل عن الجماعة كالمنبوذة حتى تنتهى فترة الحيض ، ثم تعود . وكذلك لأن المرأة لن تحصل على مركز رئاسى او قيادى ، ولن تحصل على منزلة الرجـال الاجتماعية ، ولذلك فان الاجهـاض يريحها من الارتبـاط بالاولاد ، وييسر لهـا حياة اللهـو التى لن تحصل عليهـا ما لم تحتل مركزا اجتماعيـا مرموقا ولن يحـدث ذلك .

ويستعين مصمموا الازيـاء بعلم الانثروبولوجيـا الطبيعيـة وعـلم الانثروبومترى (القياس الحيوى) Anthropometry فى تصميم الازياء (١٧) وبالمثل فى تصميم الاجهزة الفنية الاكثر تكيفا مع جسـم الانسـان ، وفى التأهيل الاجتمـاعى .

واخيرا تلعب الانثروبولوجيا التطبيقية دورا بارزا فى تصحيح ، واختبار مدى صحة النظريات العلمية السـائدة . ومن ذلك مثلا نظرية الغـرائز التى توضحهـا ستروديك Strodtbeck (١٨) . ومركب أوديب

---

(١٦) D. Schneider, Applied Anthropology. Abrtion and Depopulation On a pacific Island. in, R. Bernard, The Human way. ibid, p 365.

(١٧) دكتور عاطف وصفى ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ، مرجع سابق الذكر ، ص ٢١ .

(١٨) دكتور مصطفى سويف ، مقدمة لعلم النفس الاجتماعى ، مرجع سبق الاشارة اليه ، ص ص ٦٢ — ٦٤ .

Odiepus Complex الذى دحضته دورثى ايجـــــان **D. Eggan** فى دراستهـــا عن قبائل الهـــوبى **Hobbi** فى شمال أريزونا (١٩) . وكذا دراســـــة مرجريت ميد **M. Mead** عن المراهنة فى سموا **Samoa** وابطـــال المزاعم المرتبطة بهذه المرحلة فى المجتمعات الحديثة (٢٠) . ثم دراسة روث بندكت **R. Benedict** على قبائل الاسكيمو ، متتبعـــــة بالفحص والتحليل ظاهرة الحرب . وقد اسفرت الدراسة عن ابطال زعم اعتبـــار الحـــرب من الغرائز الفطرية ، كما ابانت ايضا عن عدم ســـماع الاسكيمو للفظة الحرب من قبل ، ولم يدركوا معناها .

* * *

(١٩) دكتور عاطف وصفى ، الثقافة والشخصية ، مرجع سابق ، ص ٣٤ .

(٢٠) **Margaret Mead, Coming of Age in Samoa, Morrow Quill Paperbacks , New York. 1961 .**

قائمة بأهم المراجع فى الدراسة

أولا : المـــراجـــع العـــربية .

ثانيا : المـــراجـــع الاجنبية .

أولا : المراجع العربية :

١ — د. احسان محمد الحسن ، العائلة والقرابة والزواج ، الطبعة الأولى ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٨١ .

٢ — د. احمد ابوزيد ، تايلور ، سلسلة نوابغ الفكر الغربى ، العدد التاسع ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

٣ — د. احمد ابو زيد ، البناء الاجتماعى ، مدخل لدراسة المجتمع ، الجزء الثانى ، الانساق ، المكتب الجامعى الحديث ، الاسكندرية ، د . ت .

٤ — احمد حمدان الربايعة ، دراسة انثروبولوجية ميدانية للتغير الاجتماعى على قبائل منطقتى جرش والمفرق فى الأردن ، رسالة ماجستير (غير منشورة) جامعة القاهرة ، ١٩٧٢ .

٥ — د. احمد عبد الاله عبد الجبار ، عادات وتقاليد الزواج بالمنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية ، دراسة ميدانية وأنثروبولوجيه حديثة ، تهامة للنشر والمكتبات ، جدة ١٩٨٣ .

٦ — د. أحمد محمد الحوفى ، الحياة العربية من الشعر الجاهلى ، الطبعة الخامسة ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

٧ — د. ادريس صالح نايف عزام ، التحضر وأثره فى الأسرة الأردنية من وجهة نظر بنائية وظيفية مع دراسة تطبيقية ، رسالة دكتوراه (غير منشورة) ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥ .

٨ — ادوارد وليم لين ، المصريون المحدثون : عاداتهم وشمائلهم ، ترجمة عدلى طاهر نور ، الطبعة الثانية ، دار نشر الجامعات ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

٩ — الهام عفيفى عبد الجليل ، التغير الاجتماعى فى منطقة مرسى مطروح كأثر من آثار برامج التنمية ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، جامعة [illegible] ١٩٧[illegible] .

١٠— ايفانز بريتشـــارد ، الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، ترجمة الدكتور أحمد أبو زيد ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٥٨ .

١١— ايكه هولتكرانس ، قاموس مصطلحات الاثنولوجيا والفولكلور ، ترجمة الدكتورين محمد الجوهرى وحسن الشـــامى ، الطبعة الثانية ، دار المعـــارف ، القـــاهرة ، ١٩٧٢ .

١٢— بوتومور ، تمهيد فى علم الاجتماع ، ترجمة الدكتور محمد الجوهرى وزملائه ، دار المعـــارف ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

١٣— جهينة سلطان العيسى ، الانتقاء الحضـــارى واثره فى تغير البنـــاء الاجتماعى للاسرة فى قطر ، رسالة ماجستير (غير منشورة) جامعة القـــاهرة ، ١٩٧٥ .

١٤— جورج بالانديه ، بنـــاء الأنثروبولوجيا السياسية ، ترجمة غسان زيادة ، مجلة الفكر العربى ، العددان ٣٧ ، ٣٨ ، يناير — مايو ١٩٨٥ ، معهد الانماء العربى ، بيروت .

١٥— حسن أحمد الخولى ، الآثار الاجتماعية للخدمة العسكرية فى ثقـــافة الفلاحين المصريين ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، جـــامعـــة القـــاهرة ، ١٩٧٦ .

١٦— د. حسن أحمد الخولى ، الفروق الويفية الحضرية فى بعض عناصر التراث الشعبى ، دراسة ميدانية لتكريم الأوليـــاء والطب الشعبى فى الريف والحضر ، رسالة دكتوراه (غير منشورة) ، جـــامعـــة القـــاهرة ، ١٩٨١

١٧— رالف بيلز وهارى هويجر ، مقدمة فى الأنثروبولوجيا العـــامة ، الجزء الأول ، ترجمة الدكتورين محمد الجوهرى والسيد الحسينى ، دار نهضة مصر ، القـــاهرة ، ١٩٧٦ .

١٨— د. سناء الخولى ، التغير الاجتماعى والتكنولوجى واثره فى الأسرة المصرية بنائيا ووظيفيا ، رسالة دكتوراه (غير منشورة) ، جـــامعـــة القـــاهرة ، ١٩٧٢ .

١٩ـ أ.د. صالح على صالح الزين ، الاسرة وابعادها فى النظريات الاجتماعية المعاصرة ، مقال منشور بمجلة الوحدة ، العدد ٥٠ ، نوفمبر ١٩٨٨ ، الرباط .

٢٠ـ د. عاطف وصفى ، الأنثروبولوجيا الإجتماعية ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

٢١ـ د. عاطف وصفى ، الأنثروبولوجيا الثقافية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

٢٢ـ د. عاطف وصفى ، الثقافة والشخصية : الشخصية المصرية التقليدية ومحدداتها الثقافية ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

٢٣ـ د. عبد السلام الترمانينى ، الزواج عند العرب فى الجاهلية والاسلام ، مجلة عالم المعرفة ، المجلس الوطنى للثقافة ، العدد ٨٠ ، اغسطس ١٩٨٤ ، الكويت .

٢٤ـ عبد الرحمن بن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، الطبعة الخامسة ، دار العلم ، بيروت ، ١٩٨٤ .

٢٥ـ د. عبد الله عبد الغنى غانم ، هجرة الأيدى العاملة : دراسة فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية للبناء الاجتماعى لمجتمع الحمالين بميناء الاسكندرية ، المكتب الجامعى الحديث ، الاسكندرية ، ١٩٨٢ .

٢٦ـ على المكاوى ، الشعوذة ، دراسة نقدية منشورة بالكتاب السنوى لعلم الاجتماع ، العدد الأول ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

٢٧ـ على المكاوى ، المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعى مع دراسة ميدانية على قرية سيف الدين بمحافظة دمياط ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٢ .

٢٨ـ على المكاوى ، السياق الاجتماعى للمعتقد الشعبى ، مقال منشور

بالكتاب السنوى لعلم الاجتماع ، العدد الثالث ، دار المعارف ، القاهرة ، اكتوبر ١٩٨٢ .

٢٩— على المكاوى ، اتخاذ القرار الأسرى ، دراسة نقدية منشورة بالكتاب السنوى لعلم الأجتماع ، العدد السادس ، دار المعارف ، القاهرة ، ابريل ١٩٨٤ .

٣٠— على المكاوى ، أثر انتقال القوى العاملة المصرية الى الخارج على التنمية الصناعية فى مصر ، دراسة نقدية منشورة فى مجلة دراسات سكانية ، المجلس القومى للسكان ، القاهرة ، العدد ٧٣ ، ابريل — يونية ١٩٨٥ .

٣١— على المكاوى ، ظاهرة هجرة ذوى الكفاءات العلمية فى مصر الى المجتمعات العربية الشقيقة وآثارها على المجتمع المصرى ، مجلة دراسات سكانية ، المجلس القومى للسكان ، العدد ٧٢ ، يناير — مارس ١٩٨٥ .

٣٢— د. على المكاوى ، « الثبات والتغير فى العادات والتقاليد والمعارف الشعبية مع الاشارة الى مجتمع الخليج » ، بحث مقدم الى ندوة « التخطيط لجمع ودراسة العادات والتقاليد والمعارف الشعبية » ، مركز التراث الشعبى لدول الخليج العربية ، الدوحة ، ١٣ — ١٧ ينساير ١٩٨٥ .

٣٣— د. على المكاوى ، التراث الشعبى والمشكلة السكانية فى مصر ، مجلة المأثورات الشعبية ، العدد الثانى ، مركز التراث الشعبى لدول الخليج ، الدوحة ، ابريل ١٩٨٦ .

٣٤— د. على المكاوى ، الخدمة الصحية فى مصر : دراسة للابعاد المهنية والاجتماعية والثقافية ، رسالة دكتوراه (غير منشورة) ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٦ .

٣٥— د. على المكاوى ، الجوانب الاجتماعية والثقافية للخدمة الصحية :

دراســـة ميدانية فى علم الإجتماع الطبى ، الطبعة الأولى ، دار المعرفة الجـامعية ، الأسكندرية ، ١٩٨٨ .

٣٦ــ د. على المكاوى ، الأنثروبولوجيا الاجتماعية : الموضـــوع والمنهج والتطبيقات ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ، ١٩٨٩ .

٣٧ــ د. على المكاوى ، علم الاجتماع الطبى : مدخل نظرى ، الطبعـــة الاولى ، دار المعرفة الجامعية ، الأسكندرية ، ١٩٩٠ .

٣٨ــ د. على المكاوى ، الأنثروبولوجيا الاجتمـــاعية ودراســـة التغير والبنـــاء الاجتماعى ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ، ١٩٩٠ .

٣٩ــ د. على ليلة ، كفاءة الاتجاه الوظيفى فى دراســـة التغير الاجتماعى ، المجلة الاجتماعية القومية ، العدد ١٢ ، القاهرة ، يناير ١٩٧٥ .

٤٠ــ د. على ليلة ، البنـــائية الوظيفية فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا ، دار المعـــارف ، القـــاهرة ، ١٩٨٢ .

٤١ــ د. عليـــاء شكرى ، الاتجاهات المعاصرة فى دراسة الأسرة ، الطبعة الثـــانية ، دار المعـــارف ، القـــاهرة ، ١٩٨١ .

٤٢ــ د. علياء شكرى (مشرف) : المـــرأة فى الريف والحضر : دراســـة لحيـــاتها فى العمل والأسرة ، دار المعرفة الجامعية ، الأسكندرية ، ١٩٨٨ .

٤٣ــ د. فاروق العادلى ، الاتجاهات المعاصرة فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية المجلة الاجتماعية القومية ، المركز القومى للبحوث الاجتمـــاعية ، القـــاهرة ، ١٩٧٣ .

٤٤ــ د. فاروق العادلى ، دراســـات فى علم الاجتمـــاع والأنثروبولوجيـــا الاجتماعية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الأسكندرية ، ١٩٧٤ .

٤٥ــ د. فاروق العادلى ، علم الاجتماع : أسس نظرية وتطبيقات عملية ، دار الكتاب الجامعى ، القاهرة ، ١٩٨٦ .

٤٦ــ د. فاروق العادلى ، الأنثروبولوجيا الاجتمـــاعية والثقـــافية ، دار الثقـــافة العـــربية ، القاهرة ، ١٩٨٧ .

٤٧— فاروق أمين ، دراسة حول واقع الأسرة البحرينية ، جمعية الاجتماعيين البحرينية ، الكتاب الثالث ، البحرين ، ١٩٨٣ .

٤٨— د. كمال التابعي ، القيم الاجتماعية والتنمية الريفية : دراسة فى علم الاجتماع الريفى ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ، ١٩٨٦ .

٤٩— لويس كامل مليكة ، قراءات فى علم النفس الاجتماعى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

٥٠— لوسى مير ، الأنثروبولوجيا الاجتماعية ترجمة الدكتورين على شكرى وحسن الخولى ، الطبعة الأولى ، دار المعرفة الجامعية ، الأسكندرية ، ١٩٨٨ .

٥١— د. محمد الجوهرى ، بعض معالم التغير فى مجتمع غرب أسوان دراسة أنثروبولوجية لأحد المجتمعات النوبية ، مطبعة جامعة القاهرة ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

٥٢— د. محمد الجوهرى ، الأنثروبولوجيا : أسس نظرية وتطبيقات عملية الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

٥٣— محمد ابو زهرة ، تنظيم الاسلام للمجتمع ، دار الفكر العربى القاهرة ، ١٩٦٥ .

٥٤— د. محمد غانم الرميحى ، البترول والتغير الاجتماعى فى مجتمع الخليج ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، د . ت .

٥٥— د. محيى الدين صابر التغير الحضارى وتنمية المجتمع ، مركز تنمية المجتمع فى العالم العربى ، سرس الليان ، ١٩٦٢ .

٥٦— د. محيى الدين صابر ود. لويس كامل مليكه ، البدو والبداوة : مفاهيم ومناهج ، مركز تنمية المجتمع فى العالم العربى ، سرس الليان ، ١٩٦٦ .

— د. محمود عبد الفضيل ، التحولات الاجتماعية والاقتصادية فى الريف المصرى (١٩٥٢ — ١٩٧٠) : دراسة فى تطور المسألة الزراعية فى مصر ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٨

٥٨ــ د. مصطفى سويف ، مقدمه لعلم النفس الاجتماعى ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

٥٩ــ د. نبيل صبحى حنا ، الأنثروبولوجيا الطبية وخدمة قضـــايا الصحة والمرض فى مصر ، مقال منشور بالكتاب السنوى لعلم الاجتمـــاع ، العــــدد الثالث ، دار المعـــارف ، القاهرة ، اكتوبر ١٩٨٤ .

٦٠ــ د. نبيل صبحى حنا ، الاتجاهات التقليدية والحديثة فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٥ .

* * *

ثانيا : المراجع الأجنبية :

1. Alland, Alexander, Adaptation in Cultural Evolution, Columbia Uni - Press, New york. 1970.
2. Beals, Relph and Hoijer, Harry, An Introduction to Anthropology, (3 rd edition), New York. 1966.
3. Bengtsen, Vern and Others, Time, Aging and the Continuity of Social Strueture : Themes and Issues in Generational Analysis, Journal of Social Issues, Vol. 30. 1974,
4. Bernard. R., The Human Way, Mac millan Publishers, New York. 1975.
5. Borhek. Jerom. aud Curtis. R., A Sociology of Belief, John wiley, Sons New York. 1975,
6. Frailn, B., « Chandigarh wns Planned by Experts but Something Has Come wrong », in. R. Bernard. The Human way, Mac millan Publishers, New York, 1975.
7. Foster, George. Traditional Societies and Social Change., (2 ed edition). New Yerk. 1973.
8. Traditioual Cultures aud Techological Change, (2 ed edition) Harper & Row Publishers, New York. 1973.
9. Hommound, Peter, Cultural and Social Anthropology. (2 ed edition). New York. 1975,
10. Herskovits, Melville, Cultural Anthropology. Indian Editiou Bombay. 1969.
11. Johnson, Harry, Sociology : A Systematic Introduction (3 rd Indian Editlon), Bombay, 1970.
12. Kats, Danial, Factor Affecting Secial Change, in : Journa of Social Issues, Vol. 30. No. 3. 1974.
13. Keesing, Roger, Cultural Anthropology. Holt, Rinehar and Winston, New York. 1981.

14 Klunzinger, C.B., Upper Egept : Its People and Its Product. London. 1878.

51 Kroeber, Alfred. Anthropology, (2 ed Indian Edition), Calcutta. 1978.

19 Mair , Lucy. An Introduction to Social Anthropology , Oxford Uni. Press, Oxford, 1968

17 Mair, Lucy. Witchcraft, London. 1973 .

18 Mead, Margaret, Cultural Patterns and Technical Change, New York. 1955.

19 Parsons, Talcott The Social System , (Indian Edition) New Delhi. 1972 .

20 Pearson , Roger , Introduction to Anthropology . Holt, Rinehart and winston , I N C ., New York . 1974 .

21 Read, Margaret , Culture Health and Disease . Tavistock Publication , London . 1966 ,

22 Rogers , Evert and Shoemaker , Floyed. Communication of Innovation , The Free Press , New York, 1971

23 Rokeach , Milton , Attitude Differentiated From Other Concepts, International Encyclopedia of Social Sciences , Vol . I .

24 Schneider . D ,, Applied Anthropology. « Abortion and Depopulation in a Pacific Island », in :
Bernard, R ., The Human Way, Macmillian Puplishers . New York, 1975 .

❋ ❋ ❋

سلسلة علم الاجتماع المعـاصر

صـــدر منهـــا :

الكتاب الأول : ميادين علم الاجتماع :

اختيار وترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمود عودة ومحمد على محمد والسيد الحسينى .

الكتاب الثانى ، نظرية علم الاجتماع :

تأليف نيقولا تيماشيف ، ترجمة الدكاترة محمود عودة ومحمد الجوهرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى .

الكتاب الثالث : أساليب الاتصـــال والتغير الاجتماعى :

تأليف الدكتور محمود عودة .

الكتاب الرابع : تمهيد فى علم الاجتماع :

تأليف بوتومور ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شـــكرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى .

الكتاب الخامس : مجتمع المصنع ، دراسة فى علم اجتماع التنظيم :

تأليف الدكتور محمد على محمد .

الكتاب السادس : الصفوة والمجتمع :

تأليف بوتومور وترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعليـــاء شـــكرى والسيد الحسينى ومحمد على محمد .

الكتاب السابع : الطبقات فى المجتمع الحديث :

تأليف بوتومور وترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعليـــاء شـــكرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى .

الكتاب الثامن : علم الاجتماع الفرنسى المعـــاصر :

تأليف الدكتورة علياء شكرى .

الكتاب التاسع : قراءات معاصرة فى علم الاجتماع :

للدكاترة علياء شكرى ، ومحمد على محمد ، ومحمد الجوهرى .

الكتاب العاشر : دراسات فى التنمية الاجتماعية :

تأليف الدكاترة السيد الحسينى ، ومحمد على محمد وعليـــاء شكرى ومحمد الجـــوهرى .

الكتاب الحادى عشر : مشكلات اساسية فى النظرية الاجتماعية :

تأليف جون ركس ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى ومحمد سعيد فرح ومحمد على محمد والسيد الحسينى .

الكتاب الثانى عشر : دراسات فى التغير الاجتماعى :

تأليف الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمـــد على محمـــد والسيد الحسينى .

الكتاب الثالث عشر : دراسة علم الاجتماع :

اختيار وترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى .

الكتاب الرابع عشر : علم الاجتماع الريفى والحضرى :

للدكتور محمد الجوهرى والدكتورة علياء شكرى .

الكتاب الخامس عشر : مقدمة فى علم الاجتماع :

تأليف اليكس انكلز ، ترجمة وتقديم الدكاترة محمد الجوهرى وعليـــاء شكرى والسيد الحسينى ومحمد على محمد .

الكتاب السادس عشر : مقدمة فى علم الاجتماع الصناعى :

تأليف الدكتور محمد الجوهرى .

الكتاب السابع عشر : علم الفولكلور — الجزء الأول :

تأليف الدكتور محمد الجوهرى .

الكتاب الثامن عشر : النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم :

تأليف الدكتور السيد محمد الحسينى .

الكتاب التاسع عشر : مصادر دراسة الفولكلور العربى :

اشراف الدكتور محمد الجوهرى .

الكتاب العشرون : الدراسة العلمية للمعتقدات الشعبية :

اشراف الدكتور محمد الجوهرى .

الكتاب الحادى والعشرون : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث :

تأليف الدكتور محمد الجوهرى .

الكتاب الثانى والعشرون : علم الفولكلور ، الجزء الثانى (دراسة المعتقدات الشعبية) :

تأليف الدكتور محمد الجوهرى .

الكتاب الثالث والعشرون : بعض ملامح التغير الاجتماعى الثقافى فى الوطن العربى . دراسات ميدانية لثقافة بعض المجتمعات المحلية فى المملكة السعودية :

تأليف الدكتورة علياء شكرى .

الكتاب الرابع والعشرون : التراث الشعبى المصرى فى المكتبة الاوربية :

تأليف الدكتورة علياء شكرى .

الكتاب الخامس والعشرون : الاتجاهات المعاصرة فى دراسة الأسرة :

تأليف الدكتورة علياء شكرى .

الكتاب السادس والعشرون : دراسات معاصرة فى علم الاجتماع :

تأليف الدكتورة علياء شكرى .

الكتاب السابع والعشرون : عادات الطعام فى الوطن العربى :

تأليف الدكتورة علياء شكرى .

الكتاب الثامن والعشرون : الفلاحون والدولة :

تأليف الدكتور محمود عودة .

الكتاب التاسع والعشرون : تاريخ علم الاجتماع . الجزء الأول :

تأليف الدكتور محمد على محمد .

الكتاب الثلاثون : علم الاجتماع والمنهج العلمى :

تأليف الدكتور محمد على محمد .

الكتاب الحادى والثلاثون : اصول علم الاجتماع السياسى :

تأليف الدكتور محمد على محمد .

الكتاب الثانى والثلاثون : جماعات الفجر ، مع اشارة لفجر مصر والبلاد العـــربية :

تأليف الدكتور نبيل صبحى حنا .

الكتاب الثالث والثلاثون : الانثروبولوجيا : اسس نظرية وتطبيقات عملية :

تأليف الدكتور محمد الجوهرى .

الكتاب الرابع والثلاثون : علم الاجتماع السياسى المفاهيم والقضايا :

تأليف الدكتور السيد الحسينى .

الكتاب الخامس والثلاثون : عـــلم الاجتمـــاع العســـكرى ، التحليل السوسيولوجى لنسق السلطة العسكرية :

تأليف الدكتور احمد خضر .

الكتاب السادس والثلاثون : الفكر الاجتماعى نظرة تاريخية عالمية :

تأليف هاينز موس ترجمة الدكتور السيد الحسينى والدكتورة جهينة ســـلطان العيسى .

الكتاب السابع والثلاثون : التنمية والتخلف ، دراسة تاريخية بنائية :

تأليف الدكتور السيد الحسينى .

الكتاب الثامن والثلاثون : المدينة ، دراسة فى علم الاجتماع الحضرى :

تأليف الدكتور السيد الحسينى .

الكتاب التاسع والثلاثون : النظرية الاجتماعية المعاصرة ، دراسة لعـــلاقة الانســـان بالمجتمع :

تأليف الدكتور على ليلة .

الكتاب الاربعون : علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية :

تأليف الدكتور أحمد زايد .

الكتاب الحادى والاربعون : البنـــاء السياسى فى الريف المصرى :

تحليل لجماعات الصفوة القديمة والجديدة :

تأليف الدكتور أحمد زايد .

الكتاب الثانى والاربعون : علم الاجتماع الامريكى . دراسة لاعمال تالكوت بارسونز :

تأليف جى روشيه ، ترجمة الدكتور محمد الجوهرى والدكتور أحمد زايد .

الكتاب الثالث والاربعون : البنائية الوظيفية فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا المفاهيم والقضايا :

تأليف الدكتور على ليلة .

الكتاب الرابع والاربعون : علم الاجتماع والنقد الاجتماعى :

تأليف بوتومور ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى والسيد الحسينى وعلى ليلة وأحمد زايد .

الكتاب الخامس والاربعون : الاقتصاد والمجتمع فى العالم الثالث :

تحرير آلن مونتجوى ، ترجمة وتعليق الدكاترة محمد الجوهرى وعلى ليلة وأحمد زايد .

الكتاب السادس والاربعون : علم الاجتماع ومشكلات وقت الفراغ :

تأليف الدكتور محمد على محمد .

الكتاب السابع والاربعون : علم الاجتماع :

تأليف جونسون ، ترجمة وتعليق الدكاترة علياء شكرى ومحمد الجوهرى وعلى ليلة ، وأحمد زايد ، وحسن الخولى . تحت الطبع .

الكتاب الثامن والاربعون : الريف والمدينة فى مجتمعات العالم الثالث :

تأليف الدكتور حسن الخولى .

الكتاب التاسع والاربعون : المرأة المصرية بين البيت والعمل :

تأليف الدكتور محمد سلامة آدم .

الكتاب الخمسون : النظرية الاجتماعية فى الفكر الاسلامى :

تأليف الدكتورة زينب رضوان .

الكتاب الحادى والخمسون : نحو نظرية اجتماعية نقدية :

تأليف الدكتور السيد الحسينى .

الكتاب الثانى والخمسون : التغير الاجتماعى :

اختيـــار وترجمة : الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى وعلى ليلة .

الكتاب الثالث والخمسون : النظرية الاجتماعية ودراسة الاسرة :

تأليف الدكتورة سامية الخشاب .

الكتاب الرابع والخمسون : البناء الاجتماعى والثقافى فى مجتمع الغجر :

دراسة انثروبولوجية لتاثير البنـــاء والثقافة والشخصية على التكامل الاجتماعى . تأليف الدكتور نبيل صبحى حنا .

الكتاب الخامس والخمسون : المجتمع والثقافة والشخصية . مدخل الى علم الاجتماع :

تأليف الدكاترة محمد على محمد ، وغريب سيد احمد وعلى عبد الرازق جـــــلبى .

الكتاب السادس والخمسون : التصنيع فى الدول النامية :

تأليف آلان مونتجوى ، ترجمة وتقديم الدكتور السيد الحسينى .

الكتاب السابع والخمسون : علم اجتماع الادارة . مفاهيم وقضايا :

تأليف الدكتور عبد الهادى الجوهرى .

الكتاب الثامن والخمسون : دراسات فى علم الاجتماع الطبى :

للدكاترة محمد على محمد ، وعلى جلبى ، وسناء الخــولى ، وسامية جـــابر .

الكتاب التاسع والخمسون : نقد علم الاجتمـــاع الماركسى . دراســـة فى النظـــرية الاجتمـــاعية :

تأليف بوتومور ، ترجمة وتعليق الدكتور محمد على محمد والدكتور على جـــلبى .

الكتاب الستون : دراسات فى علم الاجتماع السياسى :

تأليف الدكتور عبد الهادى الجوهرى .

الكتاب الحادى والستون : معجم علم الاجتماع :

ترجمة وتعليق الدكتور عبد الهادى الجوهرى .

الكتاب الثانى والستون : الشباب والمشـــاركة السياسية :

تاليف الدكتور سعد ابراهيم جمعة .

الكتاب الثالث والستون : المـدخل الى علم الاجتماع :

تاليف الدكتور محمد الجوهرى .

الكتاب الرابع والستون : تنمية العالم الثالث الابعاد الاجتماعية الاقتصادية

للدكاترة على ليلة واحمد زايد ومحمد الجوهرى .

الكتاب الخامس والستون : فلفريدو باريتو ودورة الصفوة فى اطار النظام :

تاليف الدكتور على ليلة .

الكتاب السابع والستون : المـراة والمشكلة السكانية فى العالم الثالث :

تحرير ريتشــــارد انكر وزملائه ، ترجمة الدكاترة علياء شكرى وحسن الخولى واحمد زايد ، مراجعة محمد الجوهرى .

الكتاب الثامن والستون : الاتجاهات التقليدية والحديثة فى الانثروبولوجيا الاجتمـــــاعية :

تاليف الدكتور نبيل صبحى حنا .

الكتاب التاسع والستون : المجتمعات الصحراوية فى الوطن العربى :

تاليف الدكتور نبيل صبحى .

الكتاب السبعون : المـراة فى الريف والحضر . دراسة لحياتها فى العمل والأســــرة .

تاليف الدكاترة علياء شكرى وحسن الخولى وأحمد زايد .

الكتاب الحادى والسبعون : السكان والتنمية . دراســـة انثروبولوجيـــة فى قريتين مصريتين :

اشراف الدكتورة علياء شكرى تحت الطبع .

الكتاب الثانى والسبعون : الانثروبولوجيا الاجتماعية :

تاليف لوسى مير ، ترجمو الدكتورة عليـــاء شـــكرى والدكتور حسن الخولى ، مراجعة الدكتور محمد الجوهرى .

الكتاب الثالث والسبعون : المرأة فى العمل الزراعى . دراسة انثروبولوجية :
للدكاترة علياء شكرى وحسن الخولى واحمد زايد ، تحت الطبع .

الكتاب الرابع والسبعون : الاتجاهات المعاصرة فى دراسة القيم والتنمية :
تأليف الدكتور كمال التابعى .

الكتاب الخامس والسبعون : دراسات فى علم اجتماع التنمية :
تأليف الدكتور محمد الجوهرى والدكتور كمال التابعى .

الكتاب السادس والسبعون : السياسة الاجتماعية والتخطيط فى العالم الثالث :
تأليف الدكتور محروس محمود على خليفة .

الكتاب السابع والسبعون : الجيش والمجتمع ، دراسات فى علم الاجتماع العسكرى :
تأليف الدكتور أحمد ابراهيم خضر .

الكتاب الثامن والسبعون : الدولة فى العالم الثالث ، الرؤية السوسيولوجية :
تأليف الدكتور أحمد زايد .

الكتاب التاسع والسبعون : الجوانب الاجتماعية والثقافية للخدمة الصحة : دراسة ميدانية فى علم الاجتماع الطبى
تأليف الدكتور على المكاوى .

الكتاب الثمانون : علم الاجتماع الطبى : مدخل نظرى .
تأليف الدكتور على المكاوى .

الكتاب الحادى والثمانون : الأنثروبولوجيا الطبية : دراسات نظرية وبحوث ميدانية . تحت الطبع .
تأليف الدكتور على المكاوى .

الكتاب الثانى والثمانون : الأنثروبولوجيا الاجتماعية ودراسة التغير والبناء الاجتماعى .
تأليف الدكتور على المكاوى .

* * *

المحتـــويات

الموضـــوع	الصفحة

* * *

رقــم الايــداع
٨٢٥٤ / ٨٩
ترقيم دولى ٣ — ٢٧٤. — ٥٠٢ — ٩٧٧